

التبصير

تصنيف

الحافظ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي البغدادي
٥١٠ - ٥٩٧ هجرية

الجزء الثاني

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

لدار الكتب العلمية - بيروت

يطلب من: **دار الكتب العلمية** بيروت - لبنان
هاتف: ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢
ص: ٩٤٢٤/١١ تليكس : Nasher 41245 Le

الطَّبَقَةُ الثَّانِيَّةُ

فِيهَا مَجَالِسٌ تُشْتَمَلُ عَلَى فُضَائِلِ أَيَّامِ السَّنَةِ وَلِيَالِهَا
الْمَذْكُورَاتِ

فِيهَا أَحَدَ عَشَرَ مَجْلِسًا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المجلس الأول

في ذكر عاشوراء والمحرم

الحمد لله الذي طهر بتأديبه من أهل تقريبه نفوساً، وسقى أرباب مصافاته من شراب مناجاته كؤوساً، ودفع كيّد الشيطان عن قلوب أهل الإيمان، فأصبح عنها محبوساً، وصرف عن أهل وداده بلطفه وإسعاده أذى وبوساً، وأذلّ بقهره من شاء من خلقه أعناقاً ورعوساً، وأعادَ ذِكرَ الأصنام بعزّ التوحيد والإسلام مَطموساً، وجعل عدّد السنين بجريان الشمس والقمر للحاسبين محروساً، وكرّم عشرَ المحرم وكلمّ في عاشوراء منه نبيّه موسى.

أحمده على نعم لا تُحصى عدداً، وما أقضي بالحمد حقّاً، وأشكره ولم يزل للشكر مستحقّاً، وأشهد أنه المالك للرقاب كلها رقاً، كوّن الأشياء وأحكّمها خلقاً، وفتق السماء والأرض وكانتا رتقاً، وقسم العباد فأسعد وأشقى ﴿هو الذي يُريكم آياته، وينزل لكم من السماء رزقاً﴾^(١).

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف الخلائق خلقاً وخلقاً، ﷺ وعلى صاحبه أبي بكر الصديق الذي حاز كل الفضائل سبّاقاً ويكفيه: ﴿وسيجبها الأتقى﴾^(٢) وعلى عمر العادل فما يُحايي خلقاً، وعلى عثمان الذي استسلم للشهادة

(٢) الليل ١٧.

(١) سورة غافر ١٣.

فما يتوقَّى، وعلى عليٍّ بائع ما يَفْنَى ومشتري ما يبقى، وعلى عمه العباس صينو أبيه حقاً.

اعلموا رحمكم الله إخواني أن شهر المحرّم شهر شريف القَدْر، وإنما سمّي المحرّم، لأن القتال كان يحرم فيه. وقد روي عن جماعة من المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ، وليالٍ عَشْرٍ﴾ (١) أنها العَشْرُ الأوائل من المحرّم، وقال قتادة: أراد بالفجر فجر أول يومٍ من المحرّم.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الباقي البزار، حدثنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري، أنبأنا علي بن أحمد بن محمد بن كيسان، أنبأنا يوسف بن يعقوب القاضي، حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا أبو عوانة عن عبد الملك بن عمير، عن محمد بن المنتشر عن حميد بن عبد الرحمن الحِميري، عن أبي هريرة قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «أفضلُ الصوم بعد رمضان شهر الله الذي تدعونه المحرّم».

أخبرنا ابن الحُصَيْن، أنبأنا ابن المذهب، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبيد الله بن أحمد، حدثني خيثمة، حدثني أبو معاوية، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن علي قال: أتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله أخبرني بشهرٍ أصومه بعد رمضان فقال: «إن كنت صائماً شهراً بعدَ رمضان فصمّ المحرّم، فإنه شهر الله، وفيه يومٌ تاب فيه على قوم، ويُتاب فيه على آخرين».

وقد روى ابن شاهين من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال «مَنْ صام يوماً من المحرّم فله ثلاثون يوماً».

ومن حديث أنس عن النبي ﷺ قال: «من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت كتب الله له عبادة تسع مائة سنة».

(١) الفجر ١ - ٢.

ورويت أحاديث من هذا الجنس لا تثبت، فلهذا تركناها.

ويستحب صيام التاسع والعاشر، أما التاسع فمذهب ابن عباس أنه هو عاشوراء، قال الأزهرى: كأنه تأوّل فيه عَشْرُ الوِرْدِ والعرب تقول: وردت الإبلُ عَشْرًا، إذا وردت يومَ التاسع.

وأما يوم عاشوراء ففي الصحيحين من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قدم المدينة فرأى اليهود يصومونه ويقولون: هذا يومٌ عظيمٌ أنجى الله فيه موسى وقومه، وأغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكرًا، فنحن نصومه. فقال رسول الله ﷺ: « فنحن أحقُّ وأولى بموسى منكم » فصامه وأمر بصيامه.

وفيهما من حديث سلمة بن الأكوع أن رسول الله ﷺ أمر رجلاً من أسلم « أن اذّن في الناس: من كان أكل فليصم: يعني بقية يومه. ومن لم يكن أكل فليصم، فإن اليوم يوم عاشوراء. »

أخبرنا محمد بن عبد الباقي البزار، أنبأنا الحسن بن علي، أنبأنا أبو الحسين علي ابن محمد بن كيسان، أنبأنا يوسف بن يعقوب، حدثنا إبراهيم بن بشر، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا عبيد الله ابن أبي يزيد، قال: سمعت ابن عباس سئل عن صيام يوم عاشوراء فقال: « ما رأيت النبي ﷺ صام يوماً يتحرّى فضله على الأيام إلا هذا اليوم. يعني يوم عاشوراء. وهذا الشهر، يعني شهر رمضان. »

قال يوسف: وحدثنا عبد الواحد بن غياث، حدثنا حماد بن سلمة عن قتادة، عن غيلان بن جرير، عن عبد الله بن معبد الزماني، عن أبي قتادة الأنصاري أن رسول الله عليه وسلم قال: « صوم عاشوراء يكفر العام الذي قبله. »

انفرد بإخراجه مسلم.

وقد روي في فضائل عاشوراء أحاديث موضوعة، فلا فائدة في ذكرها، مثل: من اغتسل، ومن اكتحل، ومن صافح. وكله ليس بشيء.

وقال معاوية بن قرة: صام نوح ومن معه في السفينة قال ابن شاهين: ومن

بلَغنا أنه كان يصوم يوم عاشوراء علي بن أبي طالب وأبو موسى الأشعري، وعليّ ابن الحصين وسعيد بن جبّير وطاوس. وفي الجملة هو يوم عظيم فينبغي أن يُفعل فيه ما يمكن من الخير. [فهو وأمثاله مواسم الخيرات، فاغتموها واحذروا الغفلات].

(الكلام على البسمة)

خُلِقْنَا لأحداث الليالي فرائساً
تجهّز منا للقبور عساكراً
إذا أمَلَّ أرْحَى لنا من عنانه
أرى الغُصْنَ لما اجْتَثَّ وهو بمائه
نَشِيدُ قصوراً للخلود سفاهةً
وقد نعت الدنيا إلينا نفوسنا
لقد ضربت كسرى الملوك وتبعاً
نرى ما نرى منها جهاراً وقد غدا
وقد فضح الدنيا لنا الموتُ واعظاً

غيره:

أبدأ تفهّمتنا الخطوب كروورها
تلّقى مسامعنا العِظَاتُ كأنما
وصحائف الأيام نحن سُطورها
لحدّ على لحدٍ يَهَالُ ضريحه
من ذا توقّاه المنون وقبّلنا
والتبّعان تلاحقاً ومُحَرِّق

ونعودُ في عمّة كمن لا يفهمُ
في الظل يَرُقُّم وعظه من يرقمُ
يقرا الأخير ويُدْرَج المتقدّمُ
وبأعظم رممّ عليها أعظمُ
عادّ أطاحهم الحِمَامُ وجُرهمُ
والمنذران ومالك ومتمّمُ

كانك بما يُزْعج ويَرُوع، وقد قلع الأصول وقطع الفروع، يا نائماً إلى كم هذا
المجوع، إلى متى بالهوى هذا الولوع، أينفعك وقت الموت الدموع، كم لك إلى

التَّقَى عند النَّزْعِ نَزْوِع، هيهات لا ينفع الذل إِذَا والخضوع، يقول: فرَّقوا المال،
 فالعجب لجُود المتنوع، هذا وملَك الموت يسألها من بين الضلوع، رشَّك سَهْمُ
 المنون فما أغنت الدروع، وأتى حاصدُ الزرع، وأين الزُّروع، وخَلَّتْ منك
 المساكن، وفرغت الربوع، وناب غرابُ البَيْنِ عن الوَرَقَاءِ السُّجُوع، وتمنيت أن
 لو زدت من سجود وركوع، فاحذر مكر العدو ولا تقبل قول الخَدُوع.

ضَيَّعْتَ وقتك فانقضى في غفلةٍ وطويتَ في طلب الخوادع أدْهَرَا
 أفهمت عن هذا الزمان جوابه فلقد أبان لك العِظَاتِ وكَرَّرَا
 عاينت ما ملأ الصدر مخافةً وكفاك ما عاينته من أخْبَرَا

يا عجباً كيف أنس بالدنيا مفارقها، وأمن النارَ واردها، كيف يغفل من لا
 يُغفل عنه، كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته
 تهدم عمره، كيف يلهو من يقوده عمره إلى أجله، وحياته إلى موته.

إخواني: الدنيا في إْذْبار، وأهلها منها في استكثار، والزارع فيها غير التَّقَى لا
 يحصد إلا الندم.

قال لقمان لابنه: يا بني لكل إنسان بيتان: بيتٌ شاهد وبيتٌ غائب، فلا
 يُلهينك بيتك الحاضر الذي فيه عُمْرُك قليل عن بيتك الغائب الذي عمرُك فيه
 طويل.

إخواني: أنفاس الحيِّ خُطَاهُ إلى أجله، وربما أورد الطمعُ ولم يُصْدر. يا من
 يَفْنَى ببقائه وَيَسْتَقَم بِسلامته وَيُؤْتَى من مَأْمَنه تيقُّظ، الجِدَّ الجد قبل بغتات المنايا،
 ومجاورة أهل البلى، لِيَحْلَنَ بكم من الموت يوم ذو ظلم ينسيكم معاشرَةَ اللذات
 والتَّعَم، ولا يبقى في الأفواه إلا طعم الندم.

سَلْ بِالزَّمانِ خَيْراً إِنَّه بِهِ لَعَلِيمُ
 دَاعِي الإِماتَةِ ظَاعِنٌ بِالرَّءِ وَهُوَ مُقِيمُ
 ووراء ضيق حياته نَفْسٌ وليس يَدُومُ

يا سادراً في غيِّه	حَتَّامَ أَنْتَ مُلِيمٌ
لا تُخْدَعَنَّ بِمُنِيَّةِ	أُمَّ الْخَلْبُودِ عَقِيمٌ
حَتَّامَ يَجْذِبُكَ الْمَشِي	بَ بِكَفِّهِ وَتَهْيِيمٌ
وَإِذَا الْمُنِيَّةُ أَبْرَقَتْ	فَرَجَاؤُكَ الْمَهْزُومُ
عَشِيْقُ الْبَقَاءِ وَإِنَّمَا	طَوْلُ الْحَيَاةِ هَمُومٌ

أين الذين ملكوا الدنيا ونالوا، زالوا سبوقك يا هذا إلى ما إليه آلوا، أين
المغرورون بالآل آلوا إلى الشَّتَات، أين المسرورون بالمال مالوا إلى الكِفَات، غَلِقَ
رَهْنُ أَعْمَالِهِمْ وَمَا عَلِقُوا إِلَّا بِالْوَبَالِ، وصارت آصارهم في مصيرهم كالجبال،
فندموا إذ لا ندم ينفع، وندبوا على المصاب، ولكن بعد المصْرَع، وتجرَّعوا كؤوس
البأس من كل مَطْمَع، وضربوا بسيوفٍ من الحسرات إذ تَهَزَّتْ تَقَطَّعَ.

ظَلُّ مِنَ الدُّنْيَا تَقْلُصُ زَائِلًا	وَمُنَى يُذَاقُ عَلَى جَنَاهَا الْعَلْقَمُ
مَا هَذِهِ الْأَمَالُ إِلَّا رَقْدَةٌ	فِيهَا بِأَضْغَاثِ الْأَمَانِي نَحْلُمُ
وَالْكَسْلُ فِي رِقِّ الْفَنَاءِ وَإِنَّمَا	لِلنَّائِبَاتِ مُعْرَضٌ مِنْ يَهْرَمُ
أَبْدًا تَفْهَمُنَا الْخَطُوبُ كَرُورِهَا	وَنَعُودُ فِي عَمَةٍ كَمَنْ لَا يَفْهَمُ
تَلْقَى مَسَامِعَنَا الْعِظَاتُ كَأَنَّمَا	فِي الظِّلِّ يَرْقُمُ وَعِظُهُ مِنْ يَرْقُمُ
وَصَحَائِفُ الْأَيَّامِ نَحْنُ سَطُورِهَا	يَقْرَأُ الْأَخِيرَ وَيَدْرُجُ الْمُتَقَدِّمُ
لِحَدِّ عَلَى لِحْدٍ يُهَيِّئُ ضَرْبَهُ	مَعَ أَعْظَمِ رِمَمٍ عَلَيْهَا أَعْظَمُ
مَنْ ذَا تَوَقَّاهِ الْمُنُونُ وَقَبْلُنَا	عَادَ أَطَاحَهُمُ الْحِمَامُ وَجُرَّهُمُ
وَالْتَبَعَانِ تَلَا حَقًّا وَمَحْرَقُ	وَالْمُنْذِرَانِ وَمَالِكَ وَمُتَمِّمُ
وَمَمَالِكُ مُنَعَتْ بِهَا أَرْبَابُهَا	فَتَجَبَّرُوا ثِقَةً بِهَا وَتَعَظَّمُوا
سَلَبُوا ثِيَابَ الْخُنْزَوَانَةِ عَنُوءًا	فَهَوَّوْا وَشَامِخُ عِزِّهِمْ مَتَهَدَّمُ

الكلام على قوله تعالى

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (١)

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي بكر عن النبي ﷺ أنه قال يوم النحر بمكة: «دماؤكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضللاً يضرب بعضكم رقاب بعض».

أخبرنا هبة الله بن الحصين، أنبأنا الحسن بن علي، ابن المذهب، أنبأنا أحد ابن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن شقيق، قال: قال عبد الله، قال رسول الله ﷺ: «أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء».

قال أحمد: وحدثنا أبو النضر، حدثنا إسحاق بن سعيد، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: «لن يزال المرء في فسحة من دينه، ما لم يُصَبْ دماً حراماً».

انفرد بإخراج هذا الحديث البخاري واتفقا على الذي قبله.

أخبرنا علي بن عبيد الله، أخبرنا أبو الحسين ابن النُّقُور، أخبرنا أبو حفص الكناني، حدثنا البغوي، حدثنا محمد بن عبَّاد المكي، حدثنا حاتم، يعني ابن إسماعيل، عن بشير يعني ابن المهاجر، عن ابن يريدة، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «لَقَتْلُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ زَوَالِ الدُّنْيَا».

واعلم أن الله عز وجل اختار هذا اليوم لاستشهاد الحسين.

أخبرنا ابن الحصين، أخبرنا ابن المذهب، أخبرنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا أبو النُّضْر، حدثنا مهدي، عن محمد بن

(١) الإسرائ ٣٣.

أبي يعقوب، عن ابن أبي نعم، قال جاء رجل إلى ابن عمر، وأنا جالس عنده فسأله عن دم البعوض فقال له: ممن أنت؟ قال: من أهل العراق. قال: انظروا إلى هذا يسأل عن دم البعوض وقد قتلوا ابن رسول الله ﷺ، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هما ريحانتي من الدنيا».

انفرد بإخراجه البخاري.

أخبرنا الكروخي، أنبأنا أبو عامر الأزدي. وأبو بكر الغورجي، أنبأنا الجراحي، حدثنا المحبوبي، حدثنا الترمذي، حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا أبو داود الحفري، عن سفيان، عن يزيد بن أبي زياد، عن ابن أبي نعم، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة».

قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي، أنبأنا الجوهري، حدثنا ابن معروف، حدثنا ابن صاعد، حدثنا يوسف بن موسى القطان، حدثنا أبو بكر بن عيَّاش، عن عاصم بن بهدلة، عن أبي ذرّ، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «هذان ابناي، فمن أحبهما فقد أحبني» يعني الحسن، والحسين عليهما السلام.

أخبرنا علي بن عبد الله، أخبرنا علي بن أحمد بن البشري، أخبرنا عبيد الله ابن محمد بن ربيعة إذناً، قال: حدثني أبو صالح محمد بن أحمد، حدثنا محمد بن عبيد الله البصري، حدثنا عبيد الله بن محمد العبسي، حدثنا أبان بن أبي عيَّاش، عن شهر بن حوشب، عن أم سلمة، قالت: كان جبريل عند النبي ﷺ وحسين معي، فبكى فتركته، فأتى النبي ﷺ، فأخذته فبكى، فأرسلته، فذهب إليه فقال له جبريل: أتجبه يا محمد فقال: نعم. فقال: إن أمّتك ستقتله، فإن شئت أريتك تربة أرضه التي يُقتل بها. فبسط جناحه إلى الأرض التي يُقتل بها يقال لها كربلاء، وأخذ بجناحه فأراه إياه، قال حماد: فأخبرني أبان، أو غيره أن الحسين لما نزل كربلاء شمّ الأرض، وسألهم عن إسمها فقالوا: كربلاء فقال: كرب

وبلاء فقتل بها .

وروى عبد الله بن نجيب، عن أبيه أنه سار مع علي عليه السلام، وكان صاحب مطهرته فلما حاذى نينوى، وهو منطلق إلى صيفين نادى علي: أصبر أبا عبد الله، أصبر أبا عبد الله بشط الفرات. قلت: وما ذاك؟ قال: دخلت على النبي ﷺ ذات يوم وعيناه تفيضان قلت: يا نبي الله أغضبك أحدًا ما شأن عينيك تفيضان؟ قال: قام من عندي جبريل قبل، فحدثني أن الحسين يقتل بشط الفرات، وقال لي هل لك أن أشمك من تربته قلت: نعم فمد يده، فقبض قبضة من تراب فأعطانيها، فلم أملك عيني أن فاضتا .

وروى عمار بن أبي عمار، عن ابن عباس قال: رأيت النبي ﷺ في المنام نصف النهار أشعث أغبر معه قارورة فيها دم يلتقطه، أو يتتبع فيها شيئاً، قلت: يا رسول الله ما هذا؟ قال: دم الحسين وأصحابه لم أزل أتبعه منذ اليوم. قال عمار: فحفظنا ذلك اليوم فوجدناه قُتل ذلك اليوم.

إنما رحل الحسين إلى القوم، لأنه رأى الشريعة قد رُفضت، فجدد في رفع قواعد أصلها الجَدِّ [ﷺ]، فلما حضروه حصروه، فقال: دعوني أرجع. فقالوا: لا، انزل على حكم ابن زياد. فاختر القتل على الذل، وهكذا النفوس الأبية.

تأبى الدناءة لي نفسٌ نفاستها
فلاكتساب العُلا حلي ومُرتحلي
لي همة ما أظن اللحظ يُدرکها
لا صاحبتي نفسٌ إن هممت بأن
تسعى لغير الرضا بالرِّي والشُّبع
وفي حِمى المجدِ مُصنّافي ومُرتبعي
إلا وقد جاوزت في كل مُمتنع
أرمي بها لهوات الموت لم تُطع

ولقد تبع طريق الحسين عبد الله بن الزبير، فإن الحجاج عرض عليه الأمان فقال: والله لَضربة بسيف في عِز أحب إلي من حياة في ذل! وكان يجارهم وينشد:

إصبر عصام إنه شِبْرَاقُ قد سنَّ أصحابك ضَرْبَ الأعناقِ

وقامت الحربُ بنا على ساقٍ

فقليل له : قد لحق فلانٌ وفلانٌ بالحجاج . فأنشد :

فَرَّتْ سَلَامَانُ وَفَرَّتِ النَّمِرُ قد نتلاقى معهم فلا نِفْرَ

وكانوا يرمون بالحجارة، فيقال له : ما تأمن أن يصيبك حجر؟ فيقول :

هُوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنَّ الْأُمُورَ بِكَفِّ الْإِلَهِ مَقَادِيرُهَا

فليس بآتيك منهيها ولا قاصيرُ عنك مأمورها

ولبس درعاً وجاء يودّع أمه أسماء فقالت : ما هذا الدرع؟ فقال : والله ما

لبسته إلا لأقوي نفسك !

فإني لَيُعْنِينِي عَنِ السَّيْفِ عَزْمَتِي فهل فيه ما يغنيه عن كفِّ ضاربِ

إذا عرض الدنيا الآن صلابها شَمَخْتُ بِأَنْفِي عَنْهُ وَأَزُورُ جَانِبِي

فلا تنتسب إلا إلى بعد همة ولا تكتسب إلا بحرَّ المقانِبِ

فإن دتبات السجايا إذا هوى بها المرء لم ينفعه عزُّ المناصبِ

لله در هذه الأنفس ، فما أعزها ، وهذه الهمم فما أرفعها !

ولما رأوا بعضَ الحياةِ مَذَلَّةً عليهم وعزَّ الموتِ غيرَ محرمٍ

أبو أن يذوقوا العيشَ والذمَّ واقعٌ عليه وماتوا ميتةً لم تُذمَّ

ولا عجب للأسد إن ظفرت بها كلابُ الأعادي من فصيحٍ وأعجمٍ

فحرَّبةٌ وحشيٍ سقتْ حمزة الردي وختف علي في حُسامِ ابنِ مُلجَمِ

أخبرنا علي بن عبيد الله ، أخبرنا علي بن أحد السري ، أنبأنا عبد الله بن

بَطَّة ، حدثنا أبو حامد محمد بن هارون الحضرمي ، حدثنا هلال بن بشر ، حدثنا

عبد الملك بن موسى عن هلال بن ذكوان ، قال : لما قتل الحسين مطرنا مطراً

بقي أثره في ثيابنا مثل الدم .

قلت: لما كان الغضبان يحمراً وجهه، فيتبين بالخمرة تأثير غضبه، والحقُّ سبحانه ليس بجسم، أظهرَ تأثير غضبه بجمرة الأفق حين قُتل الحسين.

وبالإسناد قال ابن بطة: وحدثنا إسماعيل ابن إسحاق القاضي، حدثنا سليمان ابن حرب، عن حماد بن زيد، عن هشام، عن محمد بن سيرين، قال: لم تر هذه الحمرة في السماء حتى قُتل الحسين.

قال ابن بطة: وحدثنا أبو ذر الباغندي، حدثنا حماد بن الحسين الوراق، قال: سمعت علي بن أخي شعيب بن حرب يقول: ناحت الجنُّ على الحسين ابن علي فقالت جنية:

جاءت نساءَ الحيِّ يبكين شجياتٍ ويلطمن خدوداً كالدنانير نقياتِ
ويلبسن ثياب السُّود بعد القصياتِ

وروينا في حديث أنه حفظ من قول الجن:

مَسَّحَ النَّبِيُّ جَبِينَهُ فَلَهُ بَرِيْقٌ فِي الْخُدُودِ
أَبَوَاهُ مِنْ عَلِيٍّ قَرِيْشٍ وَجَدَّهُ خَيْرُ الْجُدُودِ
وقال جني آخر.

أبْكَى قَتِيلاً بِكَرْبَلَاءِ مُضْرَجَ الْجِسْمِ بِالْدمَاءِ
أَبْكَى قَتِيلاً بِكَى عَلَيْهِ حُزْناً بَنُو الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ
أَبْكَى قَتِيلاً الطُّغَاةَ ظُلماً بغير جُرْمٍ سِوَى الْوَفَاءِ
هَتَّكَ أَهْلُوه فَاسْتَحَلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي الْإِمَاءِ
يَا بَأَيِّ جِسْمِهِ الْمَعْرَى إِلَّا مِنَ الدِّينِ وَالْحِيَاءِ
كُلُّ الرِّزَايَا لَهَا عَزَاءُ وَمَالِذَا الرُّزْءُ مِنْ عَزَاءِ

وروينا أن صخرة وجدت قبل مبعث النبي ﷺ بثلاث مائة سنة، وعليها مكتوب باليونانية:

أيرجو معشرٌ قتلوا حُسيناً شفاعَةَ جَدِّه يَوْمَ الحِسابِ

ويح قاتل الحسين! كيف حاله مع أبويه وجده!

لا بد أن ترد القيامة فاطمٌ وقميصها بدم الحسين ملطخٌ
ويل لمن شفعأؤه خصمأؤه والصُّور في يوم القيامة يُنْفَخُ

إخواني: بالله عليكم من قَبَّح على يوسف بأبي وجهٍ يَلْقَى يعقوب!

لما أسر العباس يوم بدر سمع رسول الله ﷺ أنينه فما نام، فكيف لو سمع
أنين الحسين؟

لما أسلم وحشيٌّ قال له: غيَّب وجهك عني. هذا والله والمسلم لا يؤاخذ بما كان
في الكفر، فكيف يَقْدِر الرسولُ ﷺ أن يُبصر من قتل الحسين؟

★ ★ ★

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا﴾ (١).
لقد جمعوا في ظلم الحسين ما لم يجمعه أحد، ومنعوه أن يرد الماء فيمن ورد،
وأن يرحل عنهم إلى بلد، وسبوا أهله وقتلوا الولد، وما هذا حَدٌّ دَفَع عن
الولاية هذا سوء مُعْتَقَد.

نعب الماء من بين أصابع جدّه، فما سَقَوْه منه قطرة!

كان الرسول ﷺ من حُب الحسين يقبل شفتيه، ويحمله كثيراً على عاتقيه،
ولما مشى طفلاً بين يدي المنبر نزل إليه، فلو رآه مُلْقَى على أحد جانبيه
والسيوف تأخذه والأعداء حوالبه والخييل قد وطئت صدره ومشت على يديه،
ودماؤه تجري بعد دموع عينيه لضجَّ الرسول ﷺ مستغيثاً من ذلك ولعزَّ عليه.

كربلا ما زلت كـرباً وبلاً
كم على تُرْبِكَ لما صُرعوا
يا رسول الله لسوعاينتهم
ما لقي عندك أهل المصطفى
من دمٍ سالٍ ومن دمٍ جرى
وهم ما بين قتل وسباً

(١) الإسراء ٣٣.

من رَمِيضٍ يُمْنَعُ الظَّلَّ وَمِنْ
 لَرَأَتْ عَيْنَاكَ فِيهِمْ مَنظَرًا
 لَيْسَ هَذَا لِرَسُولِ اللَّهِ يَا
 غَارِسٌ لَمْ يَأُلْ فِي الْغَرَسِ لَهُمْ
 جَزَرُوا جَزَرَ الْأَضْحَايِ نَسْلَهُ
 هَاتِفَاتٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي
 قَتْلُوهُ بَعْدَ عِلْمٍ مِنْهُمْ
 يَا جِبَالَ الْمَجْدِ عِزًّا وَعَلَا
 جَعَلَ اللَّهُ الَّذِي نَالَكُمْ
 لَا أَرَى حُزْنَكُمْ يُنْسِنِي وَلَا

عَاطِشٌ يُسْقَى أَنْبَابَ الْقَنَا
 لِلْحَشَا شَجْوًا وَللْعَيْنِ قَدَى
 أُمَّةَ الطَّغْيَانِ وَالْمَيْسِنِ جَزَا
 فَأَذَاقُوا أَهْلَهُ مُرَّ الْجَنَسِي
 ثُمَّ سَاقُوا أَهْلَهُ سَوَاقَ الْإِمَا
 بُهْرَ السَّعْسَعِي وَعَثْرَاتِ الْخُطَا
 أَنَّهُ خَامِسُ أَصْحَابِ الْكَسَا
 وَبَدُورِ الْأَرْضِ نُورًا وَسَنَا
 سَبَبِ الْوَجْدِ طَوِيلًا وَالْبُكََا
 رُزْأَمٌ يُسَلَّى وَلَوْ طَالَ الْمَدَى

سبحان من رفع للحسين بقتله مكانا، ودمغ من عاداه، فعاد بعد العز مهانا،
 ما ضره حين الشهادة من أوسعه خذلانا ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ
 سُلْطَانًا﴾ هلك أهل الزينج والعناد، وكانهم ما ملكوا البلاد وعاد عليهم اللعن كما
 عاد على عاد، أين يزيد أين زياد، كأنها ما كانا لا كانا ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ
 سُلْطَانًا﴾.

تمتعوا أياماً يسيرة، ثم عادت أجنحة الملك كسيرة، وبقيت سيرة الحسين
 أحسن سيرة، ومن عزت عاقبته والسيرة فكان لم يلق هوانا ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ
 سُلْطَانًا﴾.

مُزَّقُوا وَاللَّهُ كُلَّ مُتَمَرِّقٍ، وتفرقوا بالشتات أي متفرق، وظنوا أنهم رفوا ما
 جَنَوْا فَتَحَرَّقَ، إن ناصر المظلوم لا يتوانى ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ سُلْطَانًا﴾.

تعزوا على [مثل] الحسين وطالوا، وظنوا بقاء الملك لهم بما احتالوا، وكيل
 لهم من الذم أضعاف ما كالوا، وعجل قلعهم من السلطة فزالوا سُلْطَانًا سُلْطَانًا
 ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ سُلْطَانًا﴾.

ويلهم لو دبروا أمرهم لرفعوا بطاعة الحسين قَدْرهم ، ملكوا أياماً ثم بقي
الخزري دَهْرهم ، اشتغلوا اليوم بتسييحكم ، ودعوا ذكرهم أهواناً ﴿ ومن قُتل
مظلوماً فقد جعلنا لولّيه سلطاناً ﴾ . وصلى الله على محمد ، وآله وصحبه وسلم .

المجلس الثاني

في ذكر رجب

الحمد لله الذي فلق النوى والحب، وخلق الفاكهة والأبّ، وأبغضَ وكرِه وأحَبَّ، وأمَرَضَ وداوَى وطَبَّ، أنشأ الحيوان بقدرته فدَبَّ، وبناه فأحسن تدبيره حين رَبَّ، فالعجب لمربوبٍ يَجِدُ الرب، عمَّ إنعامه فلم يَنسُ في البحر الحوت، وفي البر الضب، أحده على تبليغنا هذا الشهر الشريف الأصبّ، وأشكره على إيمان به في القلوب صَبَّ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً اجتمع بها مراد التوحيد واستتبَّ، وأن محمداً عبده ورسوله المسمّى الأمين صغيراً وما شب، ثم قهر الأعداء فألبسهم الزنار والقبَّ وأجيب عنه لكل من عابه وسبَّ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾^(١) وعلى صاحبه أبي بكر الذي خلُق صافياً في الصحبة ولب، وعلى عمر الذي قمع كلَّ جبارٍ على الكفر أكبَّ فكبَّ، وعلى عثمان المناجي طويلَ ليلته مناجاةً الصب، وعلى عليّ أشجع من حامى عن الإسلام ودَبَّ، وعلى عمه العباس الذي أتته السحاب لما ذكر اسمه وهبَّ.

اللهم بارك لنا في شهر رجب الأصمِّ واحفظنا فيه من موجبات السُّخْطِ والذم، وحُطْنا حياطةً نَنسَى بها لطف الأب والعم، عُمْنَا بأياديك يا خير من أعطى وعمَّ.

اعلموا إخواني أن شهركم هذا شهر محرم. وقد أخبرنا أبو علي بن محبوب،

(١) المسد ١.

أنبأنا طراد ابن محمد، أنبأنا الحسين بن عمر بن برهان، حدثني عثمان بن أحمد، حدثنا إسحاق ابن إبراهيم الحبلي، حدثنا الحسن بن علي بن يزيد الصدائبي، [قال] حدثنا أبي، عن هارون بن عنتر، عن أبيه عن علي بن أبي طالب، قال: قال رسول الله ﷺ « إن شهر رجب شهر عظيم من صام منه يوماً جزى [الله] له ألف سنة، ومن صام منه يومين جزى [الله] له ألفي سنة، ومن صام منه ثلاثة أيام جزى [الله] له [صوم] ثلاثة آلاف سنة، ومن صام من رجب سبعة أيام غُلقت عنه أبواب جهنم، ومن صام منه ثمانية أيام فتحت له أبواب الجنة الثمانية، فيدخل من أيها شاء، ومن صام منه خمسة عشر يوماً بدلت سيئاته حسناتٍ ونادى مناد من السماء قد غُفر لك فاستأنف العمل ».

وروي من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: « إن في الجنة نهراً يقال له رجب، من صام يوماً من رجب سقاه الله عز وجل من ذلك النهر ».

وروي من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: « رجب من الشهور الحرم، وأيامه مكتوبة على أبواب السماء السادسة، فإذا صام الرجل منه يوماً، وجرّد صومه لتقوى الله نطق الباب، ونطق اليوم وقالوا: يا رب اغفر له. وإذا لم يتم صومه بتقوى الله لم يستغفرا له، وقيل له: خذ حظ نفسك ».

وقد رويت أحاديث كثيرة في فضائله من هذا الجنس، غير أنها لا تثبت ولا تصح، فلذلك تجنبنا ذكرها.

[وما يروى فيه من صلاة الرغائب، فحديث لا أصل له، وإني لأغار لصلاة التراويح من صلاة الرغائب، وإنما يتهم بوضعها ابن جهضم].

وقد روي عن علي ابن أبي طالب أنه قال: يعجبني أن يفرّغ الرجل نفسه في أربع ليال: ليلة الفطر، وليلة الأضحى، وليلة النصف من شعبان، وأول ليلة من رجب.

وروي أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عدي بن أرطاة: إن عليك بأربع

ليال، فإن الله يُفرغ فيهن الرحمة إ فراغاً. فذكر هذه الليالي الأربع.

وقال قيس بن عبّاد: في اليوم العاشر من رجب يحو الله ما شاء ويثبت.

وقد أغري القُصّاص والمتزهدون بالتحريض على صومه، وإنما يصومه كلّ من يصوم السنة. قال حنبل سألت أبا عبد الله أحد بن حنبل عن صيام رجب فقال: من كان يصوم السنة، وإلا فلا يصمه متوالياً يكره له ذلك، ولا يشبه برمضان.

وقد كان عمر بن الخطاب يضرب أكفّ الناس في رجب حتى يضعوها في الطعام ويقول: كلوا فإنما هو شهر كانت الجاهلية تعظّمه.

ودخل أبو بكرّة على أهله فرأى عندهم سيلاً وكيزاناً فقال: ما هذا؟ قالوا: رجب نصومه. فقال: أ جعلتم رجباً كرمضان فألقى السلال والكيزان.

قال عمرو الزاهد: حدثنا ثعلبة، عن سلمة، عن الفراء، عن الأصمعي، وعن ابن الأعرابي، عن الفضل قال: كلّ العرب تقول: رجبت فلاناً أرجه رجباً ورجوباً، إذا عظّمته. قال ثعلب: وإنما سمّي رجباً لتعظيمه. قال سليمان الشاذّ كوفي: إنما سمّي الأصم، لأن العرب كانت لا يُغير بعضها على بعض فيه، ولا تحمل فيه السلاح، وكانوا لا يسمعون قعقة السلاح، فسمي أصمّ به. وأما تسميته برجب مضر، فلأنها كانت تعظّمه أشد من جميع العرب، فأضيف إليها.

وقد خصه خلق كثير من العوامّ بإخراج الزكاة فيه. وهذا جهل منهم، فإن الزكاة إنما تجب في المال إذا حال الحول عليه، فمتى ملك النصاب في المحرم مثلاً وجبت الزكاة في المحرم، فمى آخرها إلى صفر أئم، لأنها حقوق الفقراء فُرِضت لحاجتهم، فلا وجه للتأخير. وقد يروي القُصّاص في رجب من الفضائل وأفعال الطاعات أشياء كثيرة لا نرى ذكر شيء منها لعلمنا بعدم صحته، بل نقول: ينبغي للإنسان أن يبادر [إلى] فعل الخير على الدوام والله الموفق.

(الكلام على البسمة)

ألا يا غافلاً يُحصَى عليه
 يصاح به ويُذَر كلَّ يوم
 تَأهَّبَ للرحيل فقد تدافى
 وأنت رَخِيَّ بال في غرور
 ومِ ذَنْبٍ أُتِيتَ على بصيرة
 تحاذر أن تراك هناك عينٌ
 ومِ حاولتَ من أمرٍ عظيمٍ
 ومِ من مدَّخِل لو مِتَّ فيه
 وُقِيتِ السوءَ والمكروه فيه
 ومِ من نعمةٍ لله تُسمي
 من العمل الصغيرة والكبيرة
 وقد أنستَه غفلتَه مَصِيرَه
 وأنذرك الرحيلَ أخَّ وجيرَه
 كأن لم تقترفُ فيها صغِيرَه
 وعينُك بالذي تأتي قريره
 وإنَّ عليك لَللَّعِينُ البصيرة
 مُنعتَ برحمةٍ منه وخيرَه
 لكنتَ به نكالاً في العشيرَه
 ورُحمتَ بنعمةٍ فيه ستيرَه
 وتصبحَ ليس تعرفها كثيرَه

يا من بين يديه الموت والحساب، والتوبيخ الشديد والعتاب، وعليه بأفعاله
 وأقواله كتاب، وقد أذنب كثيراً غير أنه ما تاب، وكلما عوتب خرج من باب
 إلى باب، إلى متى هذا الجهل، وإلام هذا العاب، ما أظنك حاضراً عدوك فيمن
 غاب.

أَيَقْظَانُ أَنْتَ نَائِمٌ فكيف يطيق النومَ حيرانَ هائِمٌ

ألسنت الذي دُمت على الخطايا وعصيت، وبارزت بالقبيح وما استحيت،
 وعلمت تحريم الذنب ثم أتيت، وعرفت عظيم الجزاء وتناسيت، ستكف [منك]
 الخمس بعد الحركة واللمس، وسيذهب اليوم كما ذهب أمس، وسيبدل النطق
 بالسكوت والهمس، وستعدم نور القمر وضوء الشمس، وسيقلع البستان ويبيس
 الغرس، وقد قرب وقت الغمس في بحر الرمس، وسيُنسى ذو العالم الدرس
 [بالدرس]:

لا تلبس الدهرَ عل غيرة فما لموت الحيِّ من بُدِّ

ولا يخادعك طويلُ البقا فتحسب الطولَ من الخلدِ
يتفد ما كان له آخرٌ ما أقرب المهْد من اللحدِ

يا من يُنصح، وليس منه إلا الإيباء، أين الأجداد أين الآباء،
أين الإخوان أين الأقرباء، أدرك القوم بعد القهر السبأ، فبكى
لسوء مُنقلبهم الغرباء، تالله لقد قامت بالمواعظ الخطباء، ولقد أذنتُ برحيل
الجيش النُقباء، ولكن قد عمّت الغفلة والغباء، وكأن قد كفت عن الدواء
الأطباء، وهل مرض القلوب إلا حُبّ الدنيا، فعلى الدنيا العفاء:

أقلُّ قليلها يكفيك منها ولكن لست تقنع بالقليلِ
ومن هذا الذي يتقى وتبقى مضاربه بمدرجة السيولِ
ويحك أنت في القبر محصور إلى أن ينفخ في الصُور، ثم راكب، أو مجرور،
حزين أو مسرور، مُطلق أو مأسور، فما هذا اللهو والغرور. الحازم من تزود لما
به قبل أن يصير لمآبه.

إخواني: إنكم تغدون وترُوحون في آجال قد غيّبت عنكم، فانظروا
لخلاصكم قبل انقضاء أعماركم، الوحا الوحا، فالطالب حثيث، تذكروا تلك
الصرعة بين الأهل وهم لا يقدرُونَ على ضرّ ولا نفع، والله ما بات عاقل قط
إلا على فراش حذر، إنما هو دبيب من سُقم، ثم تؤخذون بالكظم، فإن زلت
القدم لم ينفع ندم، لا توبة تُنال، ولا عثرة تُقال، ولا فداء بمال.

أَغْفَلُ والدهر لا يَعْفَلُ وأنسى الذي شأنه أعْضَلُ
ويطمعني أنسي سـالمٌ وداء السلامة لي أقتلُ
ويمضي نهاري ويلي معاً بما غيره الأحسن الأجمَلُ
وأمّل أني أفوت الحمام أمان لعمرك لي ضلّلُ
وكيف يرى آخرُّ أنه سيقتى وقد هلك الأولُ
فحتى متى أنا لا أرعوي وكم ذا أقول، ولا أفعلُ
أيا ذاهلاً ونداء الحتوفِ في الناس توقظ من يذهلُ

ألا أين أهل النعم العزيز وأين الأجد والبزل
تناولهم من قلال القصور فأهلكهم مُزَعَجٌ مُعْجَلٌ

قل للذين أعرضوا عن الهدى فما تبعوا، وخوفوا يوم الردى فما ارتدعوا،
وسمعوا المواعظ فكأنهم ما سمعوا، تطلبوا كيف شئتم، وما شئتم فاصنعوا.

غداً توقى النفوس ما كسبت ويخصد الزارعون ما زرَعُوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساؤوا فبئس ما صنعُوا

لله در أقوام بادروا الأعمال واستدركوها، وجاهدوا النفوس حتى ملكوها،
وتأهبوا لسبيل التوبة، ثم سلكوها، وعرفوا عيوب العاجلة فتركوها، استعملهم
الأدب في جمادى كرجب.

يا هذا إذا هممت بخير، فبادر هواك لثلاث تغلب، وإذا هممت بشر فسوف
هواك لعلك تغلب.

الحكمة نور الفطرة، والصواب فرع الروية، والتدبير قيمة المهمة، والهوى ضد
الحزم، ثقّف نفسك بالآداب قبل صحبة الملوك، فإن سياسة الأخلاق مراقبي
المعالي.

قال بزرجهر: أخذت من كل شيء أحسن ما فيه، حتى من الكلب
والغراب والهرة. قيل: وما أخذت من الكلب؟ قال: ذبّه عن حرّيمه، وإلفه
لأهله. قيل: فمن الهرة؟ قال: رفقها عند المسألة، ولين صياحها. قيل: فمن
الغراب؟ قال: شدة حدّره.

يا هذا صنّ حياة عقلك عن مخالطة غوغاء نفسك، من طلب المعالي استقبل
العوالي، من لازم الرقاد فاته المراد، من دام كسله خاب أمله.

من صغرت نفسه فهمته أبلغ في قصده من المحن
وقل ما التذّ بالسرور فتى لم يجنّه من عواقب الحزن

لولا سخط نفس أبي بكر عليه لمفارقة هواها ما نال مرتبة «أنا عنك راضٍ»
لولا عري أوتيس ما لبس حلة «يشفع في مثل ربعة ومضر».

الكلام على قوله تعالى:

﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله﴾ (١)

قال المفسرون: نزلت هذه الآية من أجل النسيء الذي كانت العرب تفعله . والنسيء تأخير الشيء ، وكانت العرب تحرم الشهور الأربعة . هذا مما تمسكت به من ملة إبراهيم ، فربما احتاجوا إلى تحليل المحرم لحرب تكون بينهم ، فيؤخرون تحريم المحرم إلى صفر ، ثم يحتاجون إلى تأخير صفر ، ثم كذلك حتى تتدافع الشهور ، فيستدير التحريم على السنة . فكانوا يستنسئون الشهر الحرام ويستقرضونه .

قال الفراء: كانت العرب في الجاهلية إذا أرادوا الصدد من منى ، قام رجل من بني كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة ، وكان رئيس الموسم فيقول: أنا الذي لا أعاب ولا أحاب ولا يرد لي قضاء . فيقولون: أنسنا شهراً يريدون أخرجنا حرمة المحرم ، فاجعلها في صفر . فيفعل ذلك . وقال مجاهد: أول من أظهر النسيء جنادة بن عوف الكِنَاني ، فوافقت حجة أبي بكر الصديق ذا القعدة ، ثم حج النبي ﷺ في العام القابل في ذي الحجة ، فذلك حين قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» .

أخبرنا عبد الأول ، أنبأنا الداودي ، أنبأنا ابن أعين ، حدثنا القُرْبَري ، حدثنا البخاري ، حدثنا محمد بن سلام ، أخبرنا عبد الوهاب ، أنبأنا أيوب ، عن محمد بن أبي بكر ، عن النبي ﷺ أنه قال: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم ثلاثة متواليات : ذو

(١) التوبة ٣٦ .

القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر [الذي] بين جمادى وشعبان .

أخرجاه في الصحيحين .

قال العلماء: أعلم الله عز وجل بهذه الآية أن عدد شهور المسلمين التي يعدونها اثنا عشر شهراً على منازل القمر . وقوله: ﴿ في كتاب الله ﴾ أي في اللوح المحفوظ الذي كتبه الله يوم خلق السموات والأرض ﴿ منها أربعة حرم ﴾ وإنما سماها حُرماً لمعنيين: أحدهما: تحريم القتال فيها . والثاني: لتعظيم إنتهاك الحرمات فيها .

وقوله تعالى: ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ قال ابن قتيبة: يعني الحساب الصحيح ، والعدد المستوى .

﴿ فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ اختلفوا في هذه الكناية على قولين: أحدهما أنها تعود على الأثني عشر شهراً . قاله ابن عباس . فيكون المعنى: لا تجعلوا حرامها حلالاً ، ولا حلالها حراماً كفعل أهل النسيء .

والثاني: أنها ترجع إلى الأربعة الحرم ، وهو قول قتادة والفراء واحتج بأن العرب تقول لما بين الثلاثة إلى العشرة: لثلاث خلون ، وأيام خلون . فإذا جازت العشرة قالوا: خلّت ومضت . ويقولون: لما بين الثلاثة إلى العشرة هن وهؤلاء ، فإذا جزت العشرة قالوا: هي وهذه ، إرادة أن يُعرف اسم القليل من الكثير .

وفي المراد بهذا الظلم قولان: أحدهما: أنه خص النهي عن الظلم بهذه الأشهر ، لأن شأن المعاصي يُعظّم فيها أشد من تعظيمه في غيرها ، لفضلها على ما سواها كما عظّمت طاعة الحرم ومعصيته ، وإن كان العبد مأموراً بذلك في غيرها . هذا قول الأكثرين .

والثاني: أن المراد بالظلم فيهن فعل النسيء ، قاله ابن إسحاق .

واعلم أن تفضيل بعض الشهور على بعض ليكون الكف عن الهوى ذريعة إلى

استدامة الكف في غيرها، تدريجاً للنفس إلى فراق مألوفها المكروه شرعاً.

فبادروا في هذا الشهر من الخير كل مُمكن مادام الأمر يمكن، واعلموا أن العمر لا قيمة لأوقاته وزمان الصحة لا مثل لساعاته، فحاسبوا أنفسكم قبل الحساب، وأعدّوا للسؤال صحيحَ الجواب، واحفظوا بالتقوى هذه الأيام، واغسلوا عن الأجرام قبيح الإجمام، قبلَ ندم النفوس حين سيقاقها، قبل طمس شمس الحياة بعد إشراقها، قبل ذوق كأس مرّة في مذاقها، قبل أن تدور بدور السلامة في أفلاك محاقها، قبل أن تُجذب الأبدانُ إلى القبور بأطواقها، وتفتّرش في اللحود أخلاق أخلاقها، وتنفصل المفاصل بعد حُسن اتساقها، وتشدّد شدة الحشرات حاسرةً عن ساقها، وتظهر مُحبّات الدموع بسرعة اندلاقها، وتتقلب القلوبُ في ضنك ضيق خناقها، ويطول جزع من كان في عمره ناقهاً، وتبكي النفوس في أسرها على زمان إطلاقها:

ألا يا لقومي لحيّ ردي	وللمرء يجهل ما في غد
وللميت جمع أمواله	لآخر في الحيّ لم يجهّد
سئليك أهلك والحاملون	وأعضاء جسمك لم تبرّد
ويصبح مالك للوارثين	وأنت شقيت ولم تحمد

هذا حادي المات قد أسرع، هذه سيوف الملمات قد تقطع، هذه قصور الإخوان بلقّع، مال صاحب المال، فإذا المال يوزّع، أنفعه حرصه حين سلب ما جمع أجمع، إنما هذه الدنيا فخذ منها أودع، إن وصلتْ فعلى نية أن تقطع، وإن بذلت فبعزيمة أن تمنع، انتظر سلّبها يا مشغولاً بها: وتوقع أسفاً لكبّد على حبّها تتقطع، أتراها أنها ما علمت أنها تخدع، أفيها حيلة، أم في وصلها مطمّع، أين كسرى أين قيصر، أين تبّع، أين حاتم الجود أين من كان يجمع، أين قيس وسحبان أين ابن المقفّع، إنها لتمحو العين، ثم للأثر تقلّع، إن لك مقنعاً في وعظها لو كفاك المقنع، يا مفرقاً في البلى، قل لمن تجمع، إذا خلوت وخلّيت فكيف تصنع؟، أترى أنت عندنا، أو ما تسمع، يا أطروش الشقوة أما الحديث

معك أما التخويف لك ، واعجباً رجب الأصم أم أنت :

أدعني لفرقتكم في انهمالها سحُوبُ
مَسْمَعِي إِذ عَدَلُوا في صَبَابِي رَجَبُ
من مُبْلَغِ قَوْمِي عَلَى قَرْبِهِمْ وَبُعْدِ أَسْمَاعٍ مِنَ الْوَاعِظِينَ
هَبُّوا فَقَدْ طَالَتْ بِكُمْ نَوْمَةٌ وَانْتَبَهُوا مِنْ رَقْدَةِ الْغَافِلِينَ
حَثُّوا مَطَايَا الْجِدِّ تَرْفُلَ بِكُمْ نَاجِينَ فِي النَّاجِينَ أَوْ مُعْذِرِينَ
سَلُّوا قِيَابَ الْمَلِكِ عَيْنِ مَعْشَرٍ كَانُوا لَهَا مِنْ قَبْلِكُمْ مُبْتَنِينَ
تُخْبِرُكُمْ عَنْ زَمَنِ لَمْ يَزَلْ يَحْدُو لِقَوْمٍ مَضَوْا لِاعْيُنِ
قَدْ شَاحَ جَدُّ النَّاسِ فِي بَاطِلٍ وَضَرَبُوا فِي غَمْرَةِ حَائِرِينَ
وَأَطْبَقَ الشَّرُّ عَلَى جَمْعِهِمْ وَدَقَّ شَخْصُ الْحَقِّ فِي الْعَالَمِينَ
وَرَكُضُوا فِي الْجَوْرِ رَكُضًا فَمَا تَحْسَبُهُمْ تَقْوَى حَيَاءٍ وَدِينِ
تَسْرَهُمْ خِضَاءُ دَنِيَاهُمْ قَدْ أَمِنُوا الدَّهْرَ وَبِئْسَ الْقَرِينَ
فَإِنْ يَكُونُوا مِنْ أَنْاسِ دَرَوَا فَإِنِّي كُنْتُ مِنَ النَّاصِحِينَ
مَعْذِرَةٌ مِنِّي إِلَى حَاضِرٍ وَآثِرٌ فِي صَحْفِ الْغَابِرِينَ
يَا عَجَبًا مِنْ نَاصِحٍ لَمْ يُطْعَ كَمْ حَازِمٌ قَدْ ضَاعَ فِي الْجَاهِلِينَ

لله دَرَّ قَوْمٍ فَهَمُّوا مِنَ الْوُجُودِ ، وَتَأَمَّلُوا الْمَقْصُودَ ، وَاشْتَغَلُوا بِطَاعَةِ الْمَعْبُودِ ،
وَانْتَبَهُوا وَالْخَلْقَ رَقُودَ ، يَصِفُونَ الْأَقْدَامَ [يَنَاجُونَ الْمَلِكَ الْعَلَامَ] وَيَصِفُونَ الْهَمَمَ ،
وَيَصِفُونَ تَقْصِيرَهُمْ وَيَصِفُونَ الشُّكْرَ لِلنَّعْمِ ، تَحْمَلُوا تَعَبَ السَّهْرِ ، وَكَابَدُوا مَشَقَّةَ
الظَّهْمِ ، وَأَخْلَصُوا الْعَمَلَ فَزَادَ عَمَلُهُمْ وَتَمَّ ، وَجَرَى الْقَدَرُ فَرَضُوا ، وَلَمْ يَعْتَرِضُوا بَلَمَ
وَلَمَّا ، فَيَا حَسَنَ مُجْتَهِدِهِمْ يَذْكُرُ الذَّنْبَ فَيُبَكِّي نَدَمًا .

إخواني: اسلكوا جادة القوم ، لعل مشاعلهم تلوح لكم ، تعلقوا بغبارهم ،
لعل الحادي ينوه بكم ، صوّتوا بالقوم عسى يقف بعض الساقية لكم ، ابكوا على
تأخركم ، لعل عطف الرحمة تنعطف نحوكم .

أومض لي على الغويئر بارق فهاج من وميضه التأسفُ

لهفي على عيش مضى برامة
يا مالكي رِقَّ المحب قسماً
ويا حُدَاةَ الظُّعْنِ قد أسلمني
لعلني أن أشتفي بنظرةٍ
ففي الضلوع جَمْرَةٌ ما تنظفي
أوردَ مشتاقاً به تلهُفُ
عليكمُ بجهه تعطفوا
إلى الضَّنَا فِراقكم لي فقفوا
يبلُّ منها المستهامُ المدنَّفُ
وفي الشئون عبْرَةٌ ما تُنْزَفُ

إخواني: كأنكم بالحافظ الذي حرسكم وقد حصدكم بعد أن غرسكم،
وبعث الموت فسبب فرسكم وفرسكم، فلينوا إلى التقى في هذه الأشهر، وخلوا
شرسكم ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ (١).

هذه أوقات مُعْظَمَةٌ وساعات مكرّمة وقد صيرتم ضحايها بالذنوب عتمة،
فبيّضوا بالتوبة صحفكم المظلمة، فالملك يكتب خطاكم ونفسكم ﴿فلا تظلموا
فيهم أنفسكم﴾.

لقد ضيعتم مُعْظَمَ السَّنَةِ فدعوا من الآن هذه السَّنَةَ، واسمعوا المواعظ فقد
نطقت بالسنة، ودعوا الخطايا فيكفي ما قد وكسكم ﴿فلا تظلموا فيهم
أنفسكم﴾.

البدار البدار قبل القوت، الحذار الحذار فقد قرب الموت، اليقظة اليقظة فقد
أسمع الصوت، قبل أن يضيق الحساب محبسكم ﴿فلا تظلموا فيهم أنفسكم﴾
لا بد أن تنطق الجوارح وتشهد عليكم بالقبايح، فاملأوا الأوقات بالعمل
الصالح، فإنكم إذا نزلتم بطون الصفائح أنسكم ﴿فلا تظلموا فيهم أنفسكم﴾.

اعزموا اليوم على ترك الذنوب، واجتهدوا في إزالة العيوب، واحذروا سخط
علام الغيوب، واكتبوا على صفحات القلوب مجلسكم ﴿فلا تظلموا فيهم
أنفسكم﴾.

(١) التوبة ٣٦

المجلس الثالث

في ذكر المعراج

الحمد لله فالق الحَبِّ والنَّوى، وخالق العبد وما نوى، المَطَّلِع على باطن الضمير وما حوى، بمشيئته رَشَد من رَشَد، وغوى من غوى، ويارادته فسد ما فسد، واستوى ما استوى، صَرَف من شاء إلى الهدى وعطف من شاء إلى الهوى، قَرَّب موسى نَجِيًّا وقد كان مَطْوِيًّا من شدة الطوى، فمَنَحَه فَلَاحًا، وكَلَّمَه كِفَاحًا، وهو بالواد المقدس طُوًى، وعَرَجَ بِمُحَمَّدٍ إِلَيْهِ فَرَأَهُ بِعَيْنَيْهِ، ثم عاد وفراشه ما انطوى. فأخبر بقربه من ربه وحدث بما رأى وروى، فأقسم على تصديقه من حرسه بتوفيقه عن قُوًى ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ (١).

أحده على صَرَفِ الهمم والجوى، حمد من أناب وارعوى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فيما نَشَرَ وطوى، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله وعودُ الهدى قد ذوى، فسقاه ماءَ المِجَاهِدَةِ حتى ارتوى، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى أبي بكر الصديق صاحبه إن رحل، أو ثوى، وعلى الفاروق الذي وسم بجذّه، جبين كل جبار وكوى، وعلى ذي النورين الصابر على الشهادة ساكناً ما التوى، وعلى عليّ الذي زهد في الدنيا، فباعها وما احتوى، وعلى عمه العباس الذي منع الله به الخلافة عن غير نبيّه وزوى.

قال الله عز وجل: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾.

(١) سورة النجم ١ - ٢.

هذا قسم. وفي النجم خمسة أقوال:

أحدها: أنه الثريا. رواه العوفي عن ابن عباس. قال ابن قتيبة: والعرب تسمي الثريا، وهي ستة أنجم نجماً. وقال غيره: هي سبعة أنجم، فسته ظاهرة، وواحد خفي، يمتحن الناس به أبصارهم.

والثاني: الرجوم من النجوم، وهي ما يُرمَى به الشياطين. رواه عكرمة عن ابن عباس.

والثالث: أنه القرآن نزل نجوماً متفرقة. رواه عطاء عن ابن عباس. وقال مقاتل: كان ينزل نجوماً، ثلاث آيات وأربع آيات ونحو ذلك.

والرابع: نجوم السماء كلها. روي عن مجاهد. فعلى هذا هو اسم جنس.

والخامس: أنها الزهرة قاله السدي. فعلى قول من قال: النجم [هو] الثريا يكون «هوى» بمعنى غاب. ومن قال: هي الرجوم يكون هويها في رجم الشياطين ومن قال القرآن، يكون هوى نزل. ومن قال: نجوم السماء كلها، ففيه قولان:

أحدها: أن هويها حين تغيب. **والثاني:** أن تنتثر يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ هذا جواب القسم والمعنى: ما ضلّ عن طريق الهدى، والمراد به رسول الله ﷺ ﴿ وَمَا غَوَى ﴾.

قوله: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ أي ما يتكلم بالباطل. وقال أبو عبيدة: عن بمعنى الباء. وذلك أنهم قالوا: إنه يقول القرآن من تلقاء نفسه.

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي ما القرآن ﴿ إِلَّا وَحْيٌ ﴾ من الله ﴿ يُوحَىٰ عِلْمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ أي علم جبريل النبي ﷺ. وكان من قوته أنه قلع قرّيات قوم لوط وحملها على جناحه فقلبها عليهم. وصاح بشمود فأصبحوا خامدين.

﴿ فاستوى وهو بالأفق الأعلى ﴾ فيه قولان :

أحدهما : فاستوى جبريل : وهو يعني النبي ﷺ . والمعنى أنها استويا بالأفق الأعلى لما أسري برسول الله ﷺ . قاله الفراء .

والثاني : فاستوى جبريل وهو ، يعني جبريل ، بالأفق الأعلى على صورته الحقيقية ، لأنه كان يتمثل لرسول الله ﷺ إذا هبط عليه بالوحي في صورة رجل ، وأحب رسول الله ﷺ أن يراه على حقيقته فاستوى في أفق المشرق فملاً الأفق ، فيكون المعنى : فاستوى جبريل بالأفق الأعلى في صورته ، قاله الزجاج . والأفق الأعلى : مَطْلَع الشمس ، وإنما قيل له : الأعلى ، لأنه فوق جانب المغرب في صعيد الأرض ، لا في الهواء .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ قال الزجاج دنا : بمعنى قَرَّب . وتدلى : زاد في القُرْب ومعنى اللفظين واحد .

وفي المشار إليه بقوله : ﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الله . روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث شريك ابن أبي نمر عن أنس قال : « ثم دنا الجبار رب العزة » وقد قال الخطابي : هذا من غلط شريك راوي أنس .

قال ابن الجوزي : قلت : وإذا كان الدنو لا على ما يُعقل في الأجسام ، كان المراد به القُرْب المذكور في قوله تعالى : « من تقرب مني شيراً تقربت منه ذِراعاً » فإن قيل : كيف يصح هذا ، وقد حُصِرَ قَدْرُ المسافة ؟ قلنا : إنه مثل بأقرب الأشياء كما قال : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ (١) .

والثاني : ثم دنا محمد من ربه . قاله ابن عباس .

والثالث : أن جبريل دنا من محمد . قاله الحسن .

والقَابُ: القَدْرُ. وقال ابن فارس: القاب ما بين المَقْبُضِ والسَّيَّةِ، وهي ما عَطَفَ من طَرَفِي القَوْسِ. وقال ابن قتيبة: قَدْرٌ قَوْسِينَ. وقال الكسائي: أراد بالقوسين قوساً واحداً.

﴿أَوْ أَدْنَى﴾ بل أدنى. ﴿فَأَوْحَى﴾ الله عز وجل ﴿إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾. ما كَذَبَ الفُؤَادُ ما رَأَى﴾ قال ابن عباس: رأى ربه عز وجل، والمعنى: ما أوهمه فؤاده أنه رأى ولم ير.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ قال ابن عباس: رأى محمد ربه: وبيان هذا: أنه لما تردّد لأجل الصلوات رأى ربه مرة أخرى. وقال كعب: قسم الله عز وجل كلامه ورؤيته بين محمد وموسى، فرآه محمد مرتين، وكلمه موسى مرتين.

قوله تعالى: ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ السِّدْرَةُ: شجرة النَّبَقِ، وهي فوق السماء السابعة. وهو في الصحيحين من حديث مالك بن صعصعة. وقد روى مسلم في صحيحه عن ابن مسعود أنها في السماء السادسة. وإنما سميت بسدرة المنتهى، لأن إليها ينتهي ما يُصْعَدُ به من الأرض فيُقْبَضُ منها، وإليها ينتهي ما يُهْبَطُ به من فوقها، فيقبض منها، وإليها ينتهي علم الملائكة.

﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ قال ابن عباس: هي عن يمين العرش، وهي منزل الشهداء.

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ (١) قال ابن مسعود: غشيها فراش من ذهب ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ أي ما عدل بصر رسول الله ﷺ يميناً ولا شمالاً ﴿وَمَا طَغَى﴾ أي ما جاوز ما رأى.

وهذا كان في ليلة المعراج. واتفق العلماء على أن هذا المعراج كان بمكة قبل الهجرة، واختلفوا في المدة التي كانت بينها على أربعة أقوال.

أحدها: سنة. قاله ابن عباس.

(١) النجم ١٦.

والثاني: ستة أشهر. قاله السُّدي.

والثالث: ثمانية عشر شهراً. قاله الواقديّ. ذكر هذه الأقوال عنهم أبو حفص بن شاهين.

والرابع: ثمانية أشهر.

فأما الهجرة فإنها كانت في يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول، أعني اليوم الذي قدِم فيه رسولُ الله ﷺ المدينة. فعلى القول الأول يكون المعراج في ربيع الأول. وعلى الثاني والثالث، يكون في رمضان. وعلى الرابع يكون في رجب. وقد ذكر محمد بن سعد، عن الواقديّ عن أشياخ له قالوا: كان المعراج ليلة السبت لسبع عشرة ليلة خَلَّتْ من رمضان قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً. إلا أنه لما اشتهر ذكر المعراج برجب ذكرناه فيه.

أخبرنا هبة الله بن محمد بن الحصين، أنبأنا أبو علي الحسن بن علي التيمي، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا عفان، حدثنا همام بن يحيى، قال: سمعت قتادة يحدث عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة حدثه أن النبي ﷺ حدثهم عن ليلة أُسْرِي به قال: بينا أنا في الحطيم، وربما قال قتادة في الحجر مضطجع، إذ أتاني آتٍ، فجعل يقول لصاحبه: الأوسط بين الثلاثة. قال: فأتاني فقدتُ وسمعت قتادة يقول: فشَقَّ ما بيّن هذه إلى هذه. قال قتادة: فقلت للجارود، وهو إلى جنبي ما يعني؟ قال: من تُغْرَة نَحْرِهِ إلى شِعْرَتِهِ. وقد سمعته يقول من قصَّه إلى شعْرته، قال فاستخرج قلبي. قال: فأنتيت بطسَّت من ذهب مملوءة إيماناً وحِكْمَةً فغُسل قلبي، ثم حُشِي، ثم أعيد ثم أتيت بدابةً دون البغل، وفوق الحمار أبيض. فقال له الجارود: أهو البراق يا أبا حزة؟ قال: نعم. يقع خَطُّوهُ عند أقصى طَرْفِهِ.

قال: فَحَمِلَتْ عليه فانطلق بي جبريل، حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد بُعث إليه؟ قال: نعم، فقيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء. قال: ففُتِح له فلما خلصتُ إذا

فيها آدم قال: هذا أبوك آدم فسلم عليه. قال: فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم قيل: مرحباً به ونعم المجيء، جاء. قال: ففتح [لنا] فلما خلصت إذا بيحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما. قال: فسلمت عليهما فرداً السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ونعم المجيء جاء. قال: ففتح فلما خلصت إذا يوسف. قال: هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه فرداً السلام ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح، والنبى الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء، قال: ففتح فلما خلصت إذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلم عليه. فسلمت عليه فرداً السلام ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح، والنبى الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة، فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم قيل: مرحباً به، ونعم المجيء جاء. ففتح له، فلما خلصت إذا أنا بهارون قال: هذا هارون فسلم عليه. فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء السادسة فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء ففتح له فلما خلصت، إذا أنا بموسى، قال: هذا موسى فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح، والنبى الصالح. قال: فلما جاوزت بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بتعدى

يدخل الجنة من أمتة أكثر مما يدخلها من أمتي !.

قال: ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل .
قيل: ومن معك قال: محمد . قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم . قيل: مرحباً به
ونعم المجيء جاء . قال: ففتح فلما خلصت إذا إبراهيم قال: هذا إبراهيم فسلم
عليه، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالإبن الصالح والنبي الصالح .

قال: ثم رفعت إلى سِدْرَةِ المنتهى فإذا نَبَقُها مثل قِلَالٍ هَجَرٍ، وإذا ورقها مثل
أذان الفيلة، فقال: هذه سِدْرَةُ المنتهى . قال: وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان،
ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة،
وأما الظاهران فالنيل والفرات .

قال: ثم رفع لي البيت المعمور . قال قتادة: وحدثنا الحسن عن أبي هريرة، عن
النبي ﷺ أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا
يعودون فيه إلى يوم القيامة .

ثم رجع إلى حديث أنس . ثم أتيت بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من
عسل، قال: فأخذت اللبن قال: هذه الفطرة أنت عليها وأمتك .

قال: ثم فرضت عليّ الصلاة خمسين صلاة كل يوم وليلة، قال: فرجعت،
فمررت على موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: أمرت بخمسين صلاة كل يوم . قال:
إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة، وإني قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بني
إسرائيل أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك عز وجل فاسأله التخفيف لأمتك قال:
فرجعت فوضع عني عَشْرًا، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: بأربعين
صلاة كل يوم . قال: إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة [في] كل يوم، وإني
قد خبرت الناس قبلك [وعالجت بني إسرائيل أشدَّ المعالجة] فارجع إلى ربك
فاسأله التخفيف لأمتك . قال: فرجعت فوضع عني عَشْرًا آخر فرجعت إلى
موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: أمرت بثلاثين صلاة كل يوم قال: إن أمتك لا
تستطيع ثلاثين كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل

أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيفَ لأمتك. قال: فرجعت فوضع عني عَشْرًا آخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: بعشرين صلاة كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع عشرين صلاة كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيلَ أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيفَ لأمتك. قال: فرجعت فأمرت بعَشْرَ صلوات كل يوم قال: فرجعت إلى موسى قال: بم أمرت؟ قلت: بعشر صلوات كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع عشر صلوات كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيلَ أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك، فأسأله التخفيفَ لأمتك. قال: فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيلَ أشدَّ المعالجة، فإجع إلى ربك فأسأله التخفيفَ قال: قلت: قد استحييتُ من ربي، ولكني أرضى، وأسلمَ فلماجاوزت نادى منادٍ: قد أمضيتُ فريضتي وخففتُ عن عبادي.

أخرجاه في الصحيحين وليس لمالك بن صعصعة في الصحيح غيره.

وفي الصحيحين من حديث أبي ذر، عن رسول الله ﷺ أنه ذكر أنه مرَّ بآدم وعن يمينه أسودة، وعن يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكى، فقال: يا جبريل من هذا؟ قال آدم: وهذه الأسودة التي عن يمينه وشماله نسَمَ بنيه، عن يمينه أهل الجنة، وعن يساره أهل النار.

وفي أفراد مسلم من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: أتيت بالبراق فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فصلت ركعتين.

وقد روى حديث المعراج جماعة منهم علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وحذيفة وأبو ذر، وابن عباس وأبو سعيد، وأبو هريرة، وجابر، وأم هانسيء في آخرين.

الكلام على البسمة

يا صاح إن كنت لبيباً حازماً
 وإن أردت أن تفوز في غدي
 لا تهو دنياك، فإن حبهما
 غدارة فكل من حلت له
 وإنما تخدم من أهانها
 فكن بها مثل غريب مُصلح
 فإنما عمر الفتى سوق له
 يا عجباً لمعشر أتهم الد
 ولا شروا مع علمهم زوالها
 إياك والتسويق فالعاقل من
 وإنما الموت مُغير هائل
 والقبر إما روضة للمتقي
 يا لهفتي من اشتقاق حُفرتي
 وموقفي أسأل عما قد جنت
 وحين يأتيني كتابي فأرى
 فإن يناقشني فعبد هالك

فكن لأسباب الهوى مُراعياً
 فكن تقياً واهجر المحارماً
 رأس الخطايا يُكسب المآتما
 لا بد أن تذيقه العلقماً
 كما تُهين من أتاهها خادماً
 أزواده على الرحيل عازماً
 يروح عنها خاسراً وغنائماً
 نيا فلم يبنوا بها المكارماً
 بها جناناً ونعيماً دائماً
 يُنجز ما كان عليه عازماً
 أعظم به على النفوس حاجماً
 أو حفرة النار تصيب الظالماً
 ومحشري إلى الحساب راغماً
 يداي من سوء فأبقى واجماً
 فيه الذي أتته مكاتماً
 وإن عفا نجوت منها سالماً

إخواني: هذا شهر رجب قد رحل أكثره وبان، ونور شعبان قد لاح وبان، وقد سار إلى ديار الفوز رُكبان، وأقدم الشجاع، وولّى الجبان، هذا الشهر الأصم يُؤذنكم بإقلاعه، ويخبركم برحيله ووداعه، فأيكم ودّعه وقد أودّعه ما ينفعه غدا، وأيكم داوم المعاصي فلم يُقلع حتى غدا، ويل لمن ذهب عنه شهر رجب وانصّرم، وهو في عداد من هجر الهدى وصّرم، كيف يرجو الفضل والكرم من اجترم، وما احترم.

أكثر هذا الشهر قد مضى وتولى عنكم معرضاً، وبقية قد نادى للتوبة

مُعْرَضاً ، فاحذروا أن يفوتكم الغفران مع الرضا . أين من استدرك باقي ساعاته وقضى ، وطالب نفسه بالإجابة واقتضى ، أين من خاف لذب السعير وحرّ لظى ، فبادر إلى ما يُؤثّر من الخير ويُرْتَضَى ، أين من جرّد سيف التوبة على الخطايا وانتضى ، قبل أن يعود بعد التحريض حرّصاً .

آه لأوقات مضت من رجب ، لا سبيل إلى رجوعها ، وأهلاً بنفوس صبرت فيه على عطشها وجوعها ، ويأسفاً لأعمال ما يُقبّل شيء من مرفوعها ، ولأصوات رُدّت لعدم صيدق مسموعها .

إخواني : فارقوا خطاياكم قبل مفارقتة ، وسابقوا بالتوبة رحيله قبل مسابقتة ، واعلموا أن الأوقات عليكم شاهدة بما هي منكم مُشاهدة ، فالخذار الخذار أن يفوت وقت الاقتدار ، فما زالت الدنيا تُخدع وتغر ، ثم ترحل وتمرّ .

عَتَّتْكَ دِنْيَاكَ الْخَلُوبُ وَحَبَّهَا فِي الْكَفِّ عُوْدُ
أَمَا إِسَاءَتَهَا فَقَدْ كَانَتْ وَحُسْنَاهَا وَعُوْدُ

لغربان الموت على ديارنا نعيب ، ونحن نحرص على ما لطالبه نعيب ، الخلق بأسرهم في قبضة التلف أسرى ، وما يُعدّونه إرباحاً يعود غداً خُسرأً ، سيف المنون ما يَنبُو ولا يقنع ، وبطن الأرض يأكل الخلائق وما يشبع .

إخواني : لا للموت بالاستعداد تنتظرون ، ولا بالقلوب في الذكر تحضرون ، وكأنكم للتلف تأمنون ، أو بالوعيد ما تؤمنون ، أمّا علمتم أنكم ترحلون ، أما ترون الأقران أين ينقلبون ، كأننا والله بنا إذ قدمنا وقد ندّمنا ، ووضع الحساب وقدمنا ، وطلبنا ما يرضى من العمل فعَدِمْنَا ، وريح المتقون بالتقى وحرّمنا ، وأقمنا لقراءة الصحف ، فلما فهِمْنَا هِمْنَا ، فرحم الله عبداً استدرك بقية هذا الشهر ، فرمما لا يرى مثله في الدهر ، قبل أن يؤخذ بشدة القهر ، ويحاسب على فعل السر والجهر .

واعلموا أن اليوم السابع والعشرين منه يوم معظّم .

أخبرنا أبو الحسن الأنصاري، أنبأنا عبد الله بن علي الآبوسي، أنبأنا عبد الملك بن عمر البزّاز، أنبأنا أبو حفص بن شاهين، حدثنا أحمد بن عبد الله البزار، حدثنا علي بن سعيد الرّقي، حدثنا ضَمْرَة، عن ابن أبي شَوذْب، عن مطر الورّاق، عن شهر ابن خوْشَب، عن أبي هريرة قال: « من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب له صيام ستين شهراً ». وهو اليوم الذي نزل فيه جبريل على النبي ﷺ وأول يوم هبط فيه .

قوله تعالى

﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾^(١)

معنى التسييح: التنزيه عن كل سوء . واعلم أن الله تعالى سبح نفسه عند كل عظيم لما كان اختلاف الليل والنهار من عجائب الأمور، ومما لا يقدر عليه غيره، ثم ادعى المشركون وجود شريك معه نزّه نفسه عن ذلك فقال: ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تُصبحون﴾^(٢) ولما اختار عائشة لنبيه فقذفت سبح نفسه أن يختار للمختار إلا خيرة فقال: ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾^(٣) ولما أسرى بنبيه ﷺ فكذبه الكفار سبح نفسه، لأن قدرته لا تعجز . والمنعم عليه بذلك أهل فقال: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ .

وأسرى بمعنى سِرَّ عبده . ويقال: سرّيت وأسريت، إذا سرت ليلاً . وقد جاءت اللغتان في القرآن . قال تعالى: ﴿والليل إذا يسر﴾ .

والمراد بعبده ها هنا: محمد ﷺ .

قوله سبحانه وتعالى: ﴿من المسجد الحرام﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه من نفس المسجد قاله الحسن، وقتادة، ويؤيده ما ذكرنا في حديث مالك بن صعصعة: «بينا أنا في الحطيم أو في الحجر» .

(٣) سورة النور ١٦ .

(٢) سورة الروم ١٧ .

(١) الاسراء ١ .

الثاني: أنه أُسْرِيَ به من بيت أم هانئ. ذكره جماعة من المفسرين، فعلى هذا يعني بالمسجد الحَرَم، والحرم كله مسجد.

وأما المسجد الأَقْصَى، فهو بيت المقدس. وقيل له الأَقْصَى، لُبُعْد المسافة بين المسجدين. ومعنى ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أن الله تعالى أجرى الأنهار وأنبت الأشجار. وقيل: إنه مقرّ الأنبياء ومَهْبَط الملائكة. قال أبو هريرة: دخل بيت المقدس، وصَلَّى فيه بالأنبياء ثم عُرِجَ به إلى السماء.

واعلم أن الإسراء كان إلى بيت المقدس، والمعراج من هنالك إلى السماء، وإنما جعل كذلك لأربعة فوائد:

الفائدة الأولى: أنه لو أخبر بصعوده إلى السماء في بدء الحديث، لاشتد إنكارهم، ولو وصفها لهم لم يكن عنده عِلْمٌ بذلك، فلما أخبرهم بيت المقدس، ووصفهم لهم دلَّ صِدْقُهُ في ذلك على صدقه في حديث المعراج.

وفي الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ أنه قال: «لما كذَّبني قريش قمت في الحِجْر، فَجَلَا اللهُ لي بيتَ المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه». وروى عروة عن عائشة قالت: لما أُسْرِيَ برسول الله ﷺ أصبح يحدث الناس بذلك، فسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك في صاحبك يزعم أنه أُسْرِيَ به إلى بيت المقدس؟ قال: وقد قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: إن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: تصدقه أنه ذهب إلى الشام في ليلة، وجاء قبل أن يُصْبِح؟ قال: نعم إني لأصدقته في خبر السماء في غَدْوَة أوروحة. فلذلك سَمِّي أبو بكر الصديق.

الفائدة الثانية: أنه سَيَّرَه في الأرض يستأنس، ثم درج إلى الصعود إلى السماء، فهو نظير قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾^(١) فلما أنس بالخطاب حُمِّلَ الرسالة إلى فرعون.

(١) طه ١٧.

الفائدة الثالثة: أن الأنبياء جُمعوا هنالك، فصلى بهم، فبان فَضْلُهُ بالتقديم عليهم في دار التكليف. وكان ائتمامهم به مشيراً إلى نَسْخِ شرائعهم بَشْرَعِهِ.

الفائدة الرابعة: أنه مرَّ بالنواحي التي كَلَّمَ عندها موسى، ثم صعد، فكَلَّمَ في السموات ليظهر التفاوتُ بتقديمه.

ومذهب أهل السُّنَّة أنه رأى رَبَّهُ ليلة المعراج. وقد ذكرنا ذلك عن ابن عباس وكعب.

أخبرنا ابن المذْهَب، أخبرنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس.

قال: قال رسول الله ﷺ: « رأيت ربي تبارك وتعالى ».

وقد تعلق من أنكر ذلك بإنكار عائشة أن يكون رآه. والجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه رأيٌّ منها لا رواية، فلا يقاوم رواية من روى عن رسول الله ﷺ أنه قال « رأيت ربي ».

والثاني: أنها نفتت والعمل على الإثبات.

والثالث: أنها كانت في زمن المعراج صغيرة، ولم تكن عند رسول الله ﷺ، وقول الرجال العلماء من الصحابة مقدّم.

وقد زعم قوم أن المعراج كان مناماً. ويرد قولهم أن المشركين أنكروا عليه ما قال، ولو كان مناماً لم ينكره أحد.

وقد رأى تلك الليلة الجنة والنار.

أخبرنا هبة الله بن محمد، أنبأنا الحسن بن علي، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا وكيع، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن

زيد، عن أنس ابن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أُسري بي على قومٍ تُقرّص شفاههم بمقاريض من نار، قلت: من هؤلاء قال: خطباء أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبِر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون.

إخواني: قفوا ليلة المعراج على قدم الشكر، تارةً لما أنعم الله على نبيكم من إسرائه، وتارةً للإنعام عليكم بالإيمان بمِعْراجِه، والذي ناله المصطفى من الارتفاع والعلوِّ يحث أمته على التماس القرب والذنوّ، فالسعيد من تأهّب للقاء ربه بتأديب نفسه وتطهير قلبه.

بأيّ عينٍ تراني يا من بارزني وعصاني، بأيّ وجهٍ تلقاني، يا من نسي عظمة شأني، خاب المحجوبون عني، وهلك المبعدون مني:

يا من يحدث نفسه	بدخول جنات النعيم
إن كنت متقياً فأند	ت على الصراط المستقيم
لا ترجون سلامة	من غير ما قلب سليم
فاسلك طريق التقي	من وظنّ خيراً بالكرم
واذكر وقوفك خائفاً	والناس في أمرٍ عظيم
إمّا إلى ذل الشقا	وة أو إلى العز المقيم
فاجعل تقاك وقايةً	في الحشر من نار السّموم
واغنم حياتك واجتهد	وأنسب إلى الربّ الرحيم

سبحان من أسرى بعبدِه فأصبح الحُساد أسرى، قصرت دولته قيصر، وكسرت هيبتَه كِسرى، أقامه بالليل من وطائه ودثاره، ورفعَه فوق السموات بقوته واقتداره، وأراه ما في جنته، وما في ناره، وأوحى إليه ما أوحى من أسرارِه، ثم أعاده في الليل إلى مسكنه وقراره، وجاوز أفق الشمس والقمر، وعلا على الملائكة والبشر، وفاز بالتقريب والنظر، وما حضر أحد قط حيث حضر، ارتقى إلى مقام القرب بقدميه، والأملك تحفُّ به من جانيه، وجبريل يمشي

خادماً بين يديه، والرب قد أنعم بتقريبه إليه، وكشف له الحجاب حتى رآه بعينه، فحماه بالطفاه من الزَّيغ في طريقه، وأيّده بإسعافه وإسعاده وتوفيقه، وعضَّده في صدقه بتصديق صِدِّيقه، سبحان من رفعه فوق الأفلاك، وقَدَّمه على الأنبياء والأُملاك، وإنه والله أهلُّ لذاك، لأنه أطول القوم في جهاد أهل الإِشراك ذِيلاً ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ .

طَيَّبَهُ بِأَزْكَى الْخَلَائِقِ، ثُمَّ رَفَعَهُ [عَلَى أَزْكَى الْخَلَائِقِ] فَوْقَ السَّعِّ الشَّدَادِ الطَّرَائِقِ، فَيَا فَخْرَ ذَاكَ الْمَقْدَمِ السَّابِقِ رَجُلًا وَخَيْلًا ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ .

أَوْقَدَ لَهْدَايَةِ الْخَلْقِ سِرَاجَهُ، وَشَادَ قَوَاعِدَ دِينِهِ وَأَبْرَاجَهُ، وَقَوَّى دَلِيلَهُ وَأَظْهَرَ احْتِجَاجَهُ، فَالْخِزْيَ كُلَّ الْخِزْيِ لِمَنْ جَحَدَ مَعْرَاجَهُ، وَيَلًا لَهُ وَيَلًا ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ .

كَلَّمَهُ كِفَاحًا، وَمَنَحَهُ فَلَاحًا، وَسَقَاهُ مِنْ شَرَابِ الْمِحْبَةِ رَاحًا، يَمِيلُ بِأَعْطَافِهِ مَيْلًا ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ .

أَصْلَحَ بِتَدْبِيرِهِ طَبَاعَ الْمَرْضَى، وَجَعَلَ طَاعَتَهُ عَلَى الْخَقِّ قَرَضًا، وَضَمَّنَ أَنْ يُعْطِيَهُ حَتَّى يَرْضَى، كَيْلًا يُحْصِرُ مَا يُعْطَى وَزَنًا وَكَيْلًا ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ .

عَاشَ فِي الدُّنْيَا بِالقِنَاعَةِ، وَصَبَرَ عَلَى الْفَقْرِ وَالْمِجَاعَةِ، وَيَكْفِيهِ فِخْرًا شَرَفُ الشَّفَاعَةِ، وَشَغْلُهُ ذِكْرُ الْقِيَامَةِ وَالسَّاعَةِ أَنْ يَكُونَ مَلَكًا، أَوْ قَيْلًا ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ .

كَانَ يَجُوعُ فَيَشُدُّ الْحَجَرَ، وَيَفْتَقِرُ فَيَصَابِرُ الضَّرَرَ، رَاضِيًا بِالظُّمِّ وَقَطْرُ الْمَطْرِ مِنْ سَحَابِ الدُّنْيَا يَجْرِي سَيْلًا ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ .

سَبْحَانَ مَنْ شَرَّفَنَا بِهَذَا الرَّسُولِ، وَرَزَقَنَا مُوَافَقَةَ الْمَنْقُولِ، فَنَحْنُ أَهْلُ السَّنَةِ لَا أَهْلُ الْفُضُولِ، لَا نَزَالَ عَلَى الصَّرَاطِ وَلَا نَزُولُ، مَا نَعْرِفُ مَيْلًا ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ .

أسرى بعبدہ لیلاً ﴿﴾ .

فخر نبینا أجلّ وأعلیٰ ، ومناقبه من الشمس أجلیٰ ، وذكره فی قلوبنا ، والله
أحلی عند قیس من لیلی ﴿﴾ سبحان الذی أسرى بعبدہ لیلاً ﴿﴾ .

والحمد لله وحده .

المجلس الرابع

في ذكر فضائل شعبان

الحمد لله أحق من شكر، وأولى من حمد، وأكرم من تفضل، وأرحم من قصد، المعروف بالدليل، وبالذليل عبد، القديم لم يولد ولم يلد، أحاط علماً بالمعلومات وحواسها، وأنشأ المخلوقات بالقدره وبنائها، وأظهر الحكيم في الموجودات إذ براها، ومن يتلمح حكمها لما رآها، فلينظر بالفهم وليفتقد، تعرّف إلى خلقه بالبراهين الظاهرة، وأظهر في مصنوعاته العجائب الباهرة، وتفرّد في ملكه بالقدره القاهرة، ووعد المتقين الفوز في الآخرة، فالبشرى للموعود بما وعد. تعالى أن يشبه ما صنعه وأن يقاس بما جمعه، سبحانه لا وزير له ولا شريك معه، نادى موسى ليلة الطور فأسمعه، فاعلم هذا واعتقد، وتمسك بالكتاب والسنة ولا تمل عنها وسلم إليها، وتسلم العلم منها، ولا تنطق برأيك وظنك فيها، هذا مذهب أهل السنة لا تنقص ولا تزد.

أحدّه حمداً إذا قيل سعد، وأصلي على رسوله محمد خير مولود وولد.

عن أبي سلمة قال: «حدثني عائشة: قالت: ما كان رسول الله ﷺ يصوم من شهر من السنة أكثر من صيامه من شعبان، كان يصومه كله».

أخرجاه في الصحيحين.

وفيهما من حديث عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم، وما رأيت رسول الله ﷺ استكمل صيام شهر قط إلا شهر رمضان، وما رأيت في شهر أكثر منه صياماً في شعبان».

وفي لفظ انفراد به مسلم قالت: كان يصومه إلا قليلاً.

أخبرنا محمد ناصر بسنده عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم شعبان كله حتى يصليه برمضان، ولم يكن يصوم شهراً تاماً إلا شعبان، فإنه كان يصومه كله، فقلت: يا رسول الله إن شعبان لمن أحب الشهور إليك أن تصومه. فقال: «نعم يا عائشة، إنه ليس من نفس تموت في سنة إلا كُتِبَ أجلها في شعبان، فأحب أن يكتب أجلي، وأنا في عبادة ربي وعمل صالح».

وعن أسامة بن زيد، قال: قلت يا رسول الله رأيتك تصوم في شعبان صوماً لا تصومه في شيء من الشهور، إلا في شهر رمضان، قال: «ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب وشهر رمضان تُرْفَعُ فيه أعمالُ الناس، فأحب أن لا يُرْفَعَ عملي إلا وأنا صائم».

واعلم أن الأوقات التي يغفل الناس عنها معظمة القدر لاشتغال الناس بالعبادات والشهوات، فإذا تأبّر عليها طالبُ الفضل دلَّ على حرصه على الخير. ولهذا فضّل شهودُ الفجر في جماعة لغفلة كثير من الناس عن ذلك الوقت، وفضّل ما بين العشاءين، وفضل قيام نصف الليل ووقت السحر.

عن عائشة قالت: ذكر لرسول الله ﷺ ناسٌ يصومون رجياً فقال: «فأين هم عن صيام شعبان».

قالت لؤلؤة مولاة عمّار: كان عمّار يتهيأ لصوم شعبان، كما يتهيأ لصوم رمضان. وكان عمرو بن قيس الملائي إذا دخل شعبان أغلق حانوته، وتفرغ لقراءة القرآن في شعبان ورمضان.

وعن الحسن بن شهيل، قال: قال شعبان: يا رب جعلتني بين شهرين عظيمين فما لي؟ قال: جعلت فيك قراءة القرآن.

وقد ذكرنا في حديث أن الآجال تكتب في شعبان.

وعن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأحنس أن رسول الله ﷺ قال: «تقطع

الآجال من شعبان إلى شعبان، حتى إن الرجل ينكح، ويولد له، ولقد خرج اسمه في الموتى» .

فهذا الحديث، وحديث عائشة لم يعين فيها متى يكون ذلك من شعبان، وقد روي في حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: ليلة النصف من شعبان تنسخ فيها الآجال والأرزاق.

وقال أبو هريرة: إذا كان هلال شعبان دُفع إلى ملك الموت صحيفة يقبض من فيها إلى شعبان من قابل، فإن الرجل ليغرس الغرس ويبنى البنيان، وينكح ويولد له ويظلم ويفجر، وما له في السماء اسم، وما اسمه إلا في صحيفة الموتى إلى أن يأتي يومه الذي يقبض فيه أو ليلته.

فيا أيها الغافل تنبه لرحيلك ومسراك، واحذر أن تستلب على موافقة هোক، انتقل إلى الصلاح قبل أن تنتقل، وحاسب نفسك على ما تقول وتفعل، ولا تغفل عن التدارك الله الله لا تفعل.

الكلام على البسمة

قد آن بعد ظلام الجهل إبصاري	الشبُّ صُبْحُ يناجيني بإسفارِ
ليلُ الشبابِ قصيرٌ فاسرٍ مُبتدراً	إنَّ الصباحُ قُصَارَى المَدْلِجِ السَّارِي
كم اغتراري بالدينا وزُخرفها	أبني بناها على جُرْفِ لها هاري
ووعدِ زورٍ وعهدٍ لا وفاء له	تعلمُ الغَدَرَ منها كلُّ غَدَارِ
داراً مآثمها تبقى ولذتها	تفنى ألا قبحت هاتيك من دارِ
فليت إذ صقرت مما كسبت يدي	لم تعلق من خطاياها بأوزارِ
ليس السعيدُ الذي دنياه تُسعدُه	إنَّ السعيدُ الذي ينجو من النارِ

لقد بالغت المواعظ، وبلغت أيَّ إبلاغٍ، وأي بلوغٍ، وأنت تتلون هكذا وهكذا، ثم ترؤغ إياك وسور الهوى فسور الهوى ما يسوغ، وقد رأيت غيرك أفلا يتعظ الملدوغ، يا مُمَجِّلاً قد أجدب عامه، يا مُعْرِفاً قد أهلك قلبه سامه،

يا مقتول الهوى قد قطعه حُسامه، أما علمت أن الرامي لا تطيش سهامه، أين
الظَّبَاءُ الكُنَّس، أين الكَمِيّ الأَشْوَس، أين من تكبَّر وعبس تساوى في القبور
اللِّين والأَحْمَس، واعتدل في اللُّحود النَّطُوق والأُخْرَس، ورمى الكلَّ سَهْمُ المنون
فَقَرَطَس، وعرَوا في العراء من حُلَّهم فتأثَّل الملبَّس.

ونادَتنَا الرسومُ وهُنَّ صُمَّمٌ وَمَنْطِقُهَا المعاجِمُ والسِّطَارُ
وكان اليأسُ أَجَلَ فانصرفنا ودمعُ العينِ نَجْرَاهُ انحدارُ

زار عمرُ بن عبد العزيز قبورَ آبائه، ثم رجع وهو يبكي، فقال لأصحابه:
ناداني التراب: ألا تسألني عما صنعتُ بأحبابك؟ فقلت: ما فعلت؟ قال:
فصَلَّت الكفَّين من الساعدين والقدمين من الساقين، وفعلتُ وفعلت. فلما ولَّيت
ناداني: ألا أدلك على كفنٍ لا يبلى؟ قلت: بلى. قال: التقوى.

إخواني: سلُّوا المقابرَ بألسنة الفِكرِ تجبكم بكلامِ العِبَرِ:

عُوجُوا فحيُّوا لنعْمِ دِمْنَةِ الدارِ ماذا تُحيُّون من نُويِّ وأحجارِ
أفْوى وأقفر من نُعمٍ وغيرها هُوجُ الرياحِ بهاري التُّرْبِ مَوَارِ
وقفتُ فيها سَراةَ اليومِ أسألُها عن آلِ نُعمٍ أمُوناً عُبْرَ أسفارِ
فاستعجمتُ دارُ نُعمي ما تُكَلِّمنا والدارُ لو كلَّمتنا ذاتُ أخبارِ
فما وجدتُ بها شيئاً أعيجُ به إلا الثَّامُ وإلا مَوْقِدُ النارِ

أما يكفي العاقلَ تجاربه، أما أيقظ الفَظِنَ نوائبه، غلب الموتُ فمن ذا يغالبه،
قهر الخلقَ فمن ذا يجاربه، كأنكم به قد دبَّت عقاربه، قل للمفرطِ وقد حانت
مصائبه، القلبُ غائبٌ فكيف نعاتبه، لقد قتل الهوى آلةَ بلا آلة، فما لكم وماله،
خلوا له ماله، كم طالبُ مرادٍ ما ناله، كم لذة أفنيت وأبقتَ قاله، إياكم وإيا
الدنيا، فإنها محتالة.

ومكاسبُ الدنيا وإن كثُرت فما يبقى سوى تبعاتها والمأثمِ
فعليك بالفعل الجميلِ فإنه أنسُ المقيمِ غداً وزادُ المعُدمِ

كان حبيب العجمي إذا أصبح بكى، وإذا أمسى بكى، فسئلت زوجته عن بكائه، فقالت: يخاف والله إذا أمسى أن لا يصبح، وإذا أصبح أن لا يمسي، يقول لي: إن ميتاً فافعلي كذا، واصنعي كذا.

وكان شَمَيْطُ بن عَجْلان يقول: أيها المغترّ بصحته، أما رأيت ميتاً من غير سقم، أيها المغترّ بطول المهلة، أما رأيت مأخوذاً من غير علة؟!

كان شيخ متعبد في تيم الله يجتمع إليه فتیان الحي فيعظهم، فإذا أرادوا أن يتفرقوا قال: يا إخوانه قوموا قيام قومٍ قد يسئوا من المعاودة لمجلسهم خوفاً من ورطات الذنوب، وخوفاً من خطفات الموكّل بالنفوس فيبيكي. ويبكي.

وكان يزيد الرقاشي يقول: إلى متى تقول غداً أفعل كذا، وبعد غدٍ أفعل كذا أغفلت سفرك البعيد ونسيت الموت، أما علمت أن دون غدٍ ليلةٌ تُحترَم فيها أنفُسُ، أما رأيت صريعاً بين أحبابه، لا يقدر على ردّ جوابهم؟!!

مضى أناسٌ وأصبحنا على ثقة أنا سنُتبعُ بالأشجان تُعتلجُ إن أدلجوا وتخلّفنا وراءهم وما نسير فإننا سوف نَدلجُ

الكلام على قوله تعالى

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾^(١).

قام تميم الداري ليلةً إلى الصباح بهذه الآية، وكذلك الربيع بن خثيم قام بها ليلة لم يزد.

قال الحسن: لا يجعل الله عبداً أسرع إليه كعبدي أبطأ عنه.

وقال شَمَيْطُ بن عَجْلان: الناس ثلاثة: فرجل ابتكر الخير في حداثة سنه، ثم داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا المقرب. ورجل ابتكر عُمره بالذنوب

(١) الجائفة ٢١.

وطول الغفلة ثم راجع بتوبة، فهذا صاحب يمين، ورجل ابتكر الشرَّ في حادثة سنه، ثم لم يزل فيه حتى خرج من الدنيا، فهذا صاحب شمال.

إخواني: المعاصي تنكس الرأس، وما مخلَّط كمن كاس، ولا بان على رمل كمحكِّم الأساس، إن بينهما كما بين الطهارة والأنجاس، وعلى وجه الطائع نور طاعته وعلى وجه العاصي ظلام مخالفته، وعند الموت يُتلقى هذا بالبشارة، ويقع هذا في الخسارة، وفي القبر يفتش هذا مهَادَ الفلاح، ويُلقى ذاك على حسك القِيَّاح، وعند الحشر هذا يركب وذاك يُسحب، ثم يقال للعصاة: هلاَّ ذكركم وللطائعين: سلامٌ عليكم بما صبرتم. كم بين خَجَلٍ يَدِلُّ وبين طائعٍ يُدِلُّ. إياكم إياكم والذنوب، احذروا عواقب العيوب، لقد ورَّطت الذنوبُ أربابها، أيَّ إبطاء، وأسعطت أصحابها أيَّ إسعاط، وأبعدتهم عن أغراضهم أشواطاً بعد أشواط، وضربت عليهم سرادقاً من الندم بعد فُسطاط، هذا جنى الجناية فأين التقي المحتاط. تنبهوا لهذا يا أصحاب اللَّمَمِ السَّمَّاط، تيقظوا فهذا الموتُ بكم قد أحاط، إياكم والزلل، فكم من دم قد أشاط، أذيتم أنفسكم بالذنوب فمهلاً كم إفراط، هذا العدوُّ مرَّاصِدٌ فعليكم بالريِّاط، هذا الفتور، وإنما مَهْرُ الجِدَّةِ النشاط، سار الصالحون وقد سلكتهم غير الصراط، ما الذي شغلكم عن أهل المحبَّة؟ جَمَعَ الحَبَّةَ والقيراط، كانوا يصومون وأنتم مُفطرون، ويقومون وأنتم نائمون، ويبكون خوفاً، وأنتم تضحكون.

روي عن هشام، قال: بلغني أن منادياً ينادي من أول الليل: أين العابدون. فيقوم ناس فيصلون، ثم ينادي في وسط الليل: أين الفائزون فيقوم ناس فيصلون. ثم ينادي في السحر أين المستغفرون، فيقوم ناس فيصلون. فإذا أصبح قال: أين العافلون.

يا من إذا صلى خَفَّفَ، وإذا كال طَقَّفَ، وإذا دعي تخَلَّفَ، وإذا قيل له تَبُّ سَوَّفَ، ما يؤثِّرُ عنده قول من حدَّرَ وخوف، ثم يطمع في لحاق الصالحين، فما أنصف، جدَّ القومُ وأنت قاعد، وقربوا وأنت متباعد، كم بين راغب وزاهد، كم

بين ساهر وراقد، شغلهم حُبُّ مَوَلاهم عن لذات دنياهم، اسمع حديثهم إن كنت ما تراهم، خوْفهم الشديد قد أزعج وأقلق، وحذرهم العظيم قد أتلف وأحرق، وحادي جِدِّهم مُجدِّ ما يترَفَّق، كلما رأى طول الطريق نصَّ وأعَنَّق، وكيف يَحسُنُ الفتور، وأوقات السلامة تُسْرَق، دموعهم في أنهار الخدود تجري وتندفق، يكاد حزينهم لكثرة الذنوب يَشْرَق، يشتاقون إلى الحبيب والحبيب إليهم أشوق، يا حُسْنهم في الدجى ونورهم قد أشرق، والحياء فائض والرأس قد أطْرَق، والحنين، والأنين قد أخرسا الحمام المطوق، والأسير يبكي ويشكو، ويرجو أن يُعْتَق، فإذا جاء النهار دخلوا سُوراً من التَّقَى بعد خندق، تعرّفهم بسياهم وللصدق رَوْنَق، اسلك طريقهم، وسلِّ مُعينهم تُوَفَّق. احذر من الهوى، فالهوى عدوُّ أزرَق، يا من كلما أتهمَّ ناصحه أنجد، وكلما غرَّب شرَّق، قد بقي القليل، وهذا الرهن يغلِق.

أستغفر الله الذي بقضائه مطر السحاب وأخصب الأب
تَبّاً لقبومٍ أذهبوا أوقاتهم لعباً وأشهد أنهم تَبُّوا
وصبوا إلى الدنيا فكلهم بها كلف يُغرَّ بجهها صب
شئوا الحروب على حطام زائل وعلى فساد غرائز شبوا
رقدوا فما فقدت كرى أجفانهم حتى إذا حان الردى هبوا
لبوا وقد دعت الدعوة إلى الخنا فجميعهم خطئوا فما لبوا

يا قليل النظر في أمره، يا غافلاً عن ذكر قبره، أما نقل الموت واحداً واحداً، وها هو قد أضحي نحوك قاصداً، كم سلب ولداً وأخذ والداً، إلى متى تصبح جاهلاً وتُمسي مارداً، وتُحَثَّ على النهوض وما تبرح قاعداً، متى يذوب دمعٌ ما يزال جامداً، متى ينقص جهل ما يفتأ زائداً، يا من إذا قاربه النصح أضحي متباعداً، لقد نظرت لنفسك نظراً فاسداً، كم أشمت بك عدواً، وأفرحت حاسداً، يا نائماً عن خلاصه راقداً؛ يا مريضاً ما نرى له عائداً، كم نوضح الأمثال ونضرب حديداً بارداً، أترضى هذا الحال أن يكون زاد الارتحال، تذكّر عبث اليمين والشمال، إذا خابت جميع الآمال، ورأيت حسرة ما

جمعت من مال، وتيقنت فراق الأيتام والأطفال، وحملت همًّا خفت عنده
 الجبال، وبان لك أن حديث المنى مُحال، يا مؤثر الغي تأمل رشدك، يا راحلاً
 عن قليل تعرّف قِصْدك، أصلح بالتقى يومك، قبل أن تلقى غدك، إياك
 والهوى ودَع متعوّدك :

أصبحتَ عاديّت للصِّبا رُشدك جهلاً وأسلمت للهوى قَوْدك
 حتى متى لا تُفِيق من سِنّة ولا يداوي مُقنّد فنّدك
 تُعمل في صيّد كلّ صائدة ختلك طَوراً وتارة طَرْدك
 ترمي التي إن أصاب ظاهرها سهمك شكّت بجدّه كِبْدك

كان الحسن يقول: حادِثوا هذه القلوب، فإنها سريعة الدُّثور، وأفرعوا هذه
 الأنفس فإنها طُلّعة، وإنها تنازع إلى شر غاية، فتبصروا وتشدّدوا، فإنما هي أيام
 قلائل وإنما أنتم ركّب وقوف، يوشك أن يُدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت،
 فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم.

يا هذا زاحمٌ باجتهادك المتقين، وسِرٌّ في سرِّب أهل اليقين، هل القومُ إلا
 رجال طرَقوا بابَ التوفيق ففتح لهم، وما نياس لك من ذلك.

إذا أعجبتك خصالُ امريء فكُنّه يكن منك ما يُعجبك
 فليس على الجُودِ والمكرّمات إذا جئتها حاجبٌ يحجبك

لقد رضيت لنفسك الغيبة، وبعثت الدار الشريفة بالدار المهينة، وأعجبتك
 مع عقلك ما يعجب الأطفال من الزينة، أتراك ما علمت أن الدنيا صحبة
 سفينة، إن ذكر الصالحون فليست فيهم، وإن عدّ الأبرار، فما أنت معهم، وإن
 قام العبّاد لم ترّ بينهم، ويحك أتطمع في الحصاد، ولا بدّر لك، أترجو الأرباح
 ولا تجارة معك، تبني بلا أساس، ولا يثبت البناء، وتحمل على عسكر الهوى،
 بلا عزم فلا تصل إلى مراد، ويحك دُم على الحميّة يزل أثر التخليط، واستوثق
 من عقْد العزم خوفاً أن ينحلّ، فإن عرض تقصير يوهن فاستدرك تُعنّ:

إذا ما عقدت العقد ثم تركته
وما اليد لولا أختها بقوية
ولا كل محتاج إلى ما يشده
ترفع عن التعذير غير مذمم
ولم تثنه عقداً وهى ذلك العقد
ولا الرجل لولا الرجل تمشي ولا تعدو
فيعسف إلا والوهاء له وكد
إلى شرف الإعذار يخلص لك الحمد

ويحك ضاق الوقت، فمتى تتزود، تعب الرائض وما تترك المتعود.

عجبت للطالب الأمر البصير بما فيه
وللمكعب على مال يثمره
وللمداوي ضنى جسم عراه وقد
فذكر النفس هولاً أنت راكبه
لا تحقرن من الآثام محتقراً
إذا أتيت المعاصي فاخش غايتها
من الغي إذ يسعى له طلباً
وسوف يصبح منه المال منتهباً
دعا إلى نفسه الأوجاع والوصبا
وكربة سوف تلقى بعدها كرباً
كل امرئ سوف يجزى بالذي اكتسباً
من يزرع الشوك لا يحصد به عنباً

لتعظمن على أهل المخالفات الآفات، ولتقطعن أفئدة المفرطين بالزفرات،
وليشتهرن الفاجر في الخلوات بالجلوات، ولتمورن السوق يوم السوق، إلى سوق
المحاسبات، ولتسيلن الدماء بعد الدموع على الوجنات، وليتحسرن أهل
المعاصي، إذا لاحت درجات الجنات، ولينادين منادي الجزاء، يخبر بتفاوت
العطاء ووقوع السيئات ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين
آمنوا وعملوا الصالحات﴾.

المجلس الخامس

في ذكر ليلة النصف من شعبان

الحمد لله الذي لا ناقض لما بنّاه، ولا حافظ لما أفناه، ولا مانع لما أعطاه، ولا رادّ لما قضاه، ولا مظهر لما أخفاه، ولا ساتر لما أبداه، ولا مُضِلّ لمن هداه، ولا هادي لمن أعماه، أنشأ الكون بقدرته وما حواه، ورزق الصّون بمنته ومَنته من والاه، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (١). خلق آدم بيده وسوّاه، وأسكنه في حرم قُربهِ وحماه، وأمره كما شاء ونهاه، وأجرى القضاء بموافقتة هوّاه، فنزعت يدُ التفريط ما كساه، ثم تاب عليه فرحه واجتباها، وحالُه ينذر من يسعى فيما اشتهاه، وطرد إبليسَ وكانت السموات مأواه فأصممه بمخالفتة كما شاء وأعماه، وأبعده عن بابه للعصيان وأشقاه وفي قصته نذير لمن خالفه وعصاه. ألان الحديد لداود كما تمنّاه، يأمن لابسُه من يلقاه، ثم صرع صانعه بسهم قدر ألقاه، فلما تسوّر المحراب خصّماه، أظهر جدال التوبيخ فخصّماه ﴿وظنّ داودُ أنما فتنّاه﴾ (٢) وذهب ذو النون مغاضباً، فالتقمه الحوت وأخفاه، فندم إذ رأت عيناه ما جنت يدها، فلما أقلقه كُرب ظلامِ تغشّاه تضرع مستغيثاً ينادي مولاه: ﴿إني كنت من الظالمين، فاستجبنا له ونجّيناه﴾ (٣).

تعالى ربنا وسبحانه، وحاشاه أن يخيب راجيه وينسى من لا ينساه، أخذ موسى من أمه طفلاً وراعاه، وساقه إلى حجّر عدوه فربّاه، وجاد عليه بنعم لا تُحصَى وأعطاه، فمشى في البحر، وما ابتلت قدماه، وتبعه العدو فأدركه الغرق

(٣) الأنبياء ٨٧.

(١) الاسراء ٢٣

(٢) ص ٢٤

وواراه، فقال: آمنت: فإذا جبريل يسدّ فاه، وكان من غاية شرفه ومنتهاه أنه خرج يطلب ناراً فناداه: ﴿يا موسى إني أنا الله﴾ وشرف أمته شرفاً بيّناً أولاه ﴿وأني فضلتكم على العالمين﴾^(١) بكنتم خير أمة أخذناه.

خلق محمداً واختاره على الكلّ واصطفاه، وكشف له الحجاب عند قاب قوسين قرآه، وأوحى إليه من سيره المستور، ما أوحاه، ووعداه المقام المحمود وسيلغنه مناه.

فالحمد لله الذي دلنا بنبيه عليه وعرفناه، وأجلنا بالقرآن العظيم القديم وعلمناه، وهدانا إلى بابه بتوفيق أودعناه، حمداً لا ينقضي أولاه، ولا ينفد آخراه.

وصلى الله على محمد ما تحركت الألسن والشفاه، وعلى آله وصحبه صلاة دائمة تدوم بدوام ملك الله، وسلّم تسليماً.

عباد الله إن ليلتكم هذه النصف، عظيمة القدر وعجيبة الوصف، يطّلع الله فيها على العباد، فيغفر لكلّ ما خلا أهل العناد.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ذات ليلة فخرجت، فإذا هو بالبقيع رافع رأسه إلى السماء فقال: كنت تخافين أن يحيف الله عليك ورسوله؟ قلت: يا رسول الله، ظننت أنك أتيت بعض نساءك. فقال: «إن الله عز وجل ينزل ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا، فيغفر لأكثر من عدد شعير غنم كلبٍ».

وعنها أيضاً قالت: كانت ليلة النصف من شعبان ليلتي، فبات رسول الله ﷺ عندي، فلما كان في جوف الليل فقدته، فأخذني ما يأخذ النساء من الغيرة، فتلفعت بمرطبي، أمّا والله ما كأني مرطبي خزّاً ولا قرّاً، ولا حريراً، ولا ديباجاً، ولا قطناً، ولا كتّاناً. قيل: فممّ كان؟ قالت: كان سداه شعراً،

(١) البقرة ٤٧ - ١٢٢.

وَلَحْمَتَهُ مِنْ أُوْبَارِ الْإِبْلِ . قَالَتْ : فَطَلَبْتَهُ فِي حُجْرٍ نَسَّاهُ فَلَمْ أَجِدْهُ ، فَانصَرَفْتُ إِلَى حَجْرَتِي ، فَإِذَا بِهِ كَالثُوبِ السَّاقِطِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ سَاجِداً وَهُوَ يَقُولُ فِي سَجُودِهِ : سَجِدُ لَكَ سَوَادِي وَخِيَالِي ، وَآمَنُ بِكَ فُوَادِي ، هَذِهِ يَدَايِ وَمَا جَنَيْتُ بِهِمَا عَلَى نَفْسِي ، يَا عَظِيماً يُرْتَجَى لِكُلِّ عَظِيمٍ اغْفِرِ الذَّنْبَ الْعَظِيمَ ، أَقُولُ كَمَا قَالَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعْفَرَ وَجْهِي بِالْتَرَابِ لِسَيِّدِي ، وَحُقَّ لَهُ أَنْ يَسْجُدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ . ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ﷺ فَقَالَ : اللَّهُمَّ ارزُقْنِي قَلْباً نَقِيّاً مِنْ الشَّرِكِ لَا كَافِراً وَلَا شَقِيّاً . ثُمَّ سَجَدَ وَقَالَ : أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَأَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ مَعَاذَتِكَ ، لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ . قَالَتْ : ثُمَّ انصَرَفَ وَدَخَلَ مَعِيَ فِي الْخَمِيلَةِ وَلِي نَفْسٌ عَالٍ فَقَالَ : مَا هَذَا النَّفْسُ يَا حَمِيرَاءُ ؟ قَالَتْ : فَأَخْبَرْتَهُ فَطَفِقَ يَمْسَحُ بِيَدِهِ عَلَى رِكْبَتِي وَيَقُولُ : « وَيَحْ هَاتَيْنِ الرِّكْبَتَيْنِ مَاذَا لَقَيْتَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ ، إِنْ اللَّهُ تَعَالَى يَنْزِلُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيَغْفِرُ لِعِبَادِهِ إِلَّا لِلْمُشْرِكِ أَوْ مِشَاحِنٍ » .

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنْ عَائِشَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : يَا حَمِيرَاءُ أَمَا تَدْرِينَ مَا هَذِهِ اللَّيْلَةُ ؟ هَذِهِ لَيْلَةُ عِتْقَاءِ مِنَ النَّارِ بَعْدَ شَعْرِ غَمِّ كَلْبٍ . قُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، وَمَا بِالْغَمِّ كَلْبٌ ؟ قَالَ : لَيْسَ فِي الْعَرَبِ قَوْمٌ أَكْثَرَ غَمًّا مِنْهُمْ ، لَا أَقُولُ فِيهِمْ سِتَّةَ : مُدْمَنٌ خَمْرٍ وَلَا عَاقٌّ وَالِدِيهِ ، وَلَا مِصْرٌ عَلَى رَبِّهَا ، أَوْ زَنَاءٌ ، وَلَا مُصَارِمٌ وَلَا [مِصُورٌ] وَلَا قَتَاتٌ .

وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « يَطَّلِعُ اللَّهُ إِلَى خَلْقِهِ لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ ، فَيَغْفِرُ لِعِبَادِهِ إِلَّا لِإِثْنَيْنِ : مِشَاحِنٍ وَقَاتِلِ نَفْسٍ » .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ يَغْفِرُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ ، إِلَّا لِلْمُشْرِكِ ، أَوْ مِشَاحِنٍ ؟ » .

قُلْتُ : وَالظَّاهِرُ مِنَ الْمِشَاحِنِ أَنَّهُ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ عِدَاوَةٌ . وَقَدْ قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ : هُوَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ شَحْنَاءٌ لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَرَوَى عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : يُسْحُ اللَّهُ الْخَيْرَ فِي أَرْبَعِ

ليال سَحًا: الأضحى، والفطر، وليلة النصف من شعبان، تُنسخ فيها الآجال والأرزاق ويكتب فيها الحاج، وفي ليلة عرفة إلى الأذان.

وفي حديث عن أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: خمس ليالٍ لا يُردّ فيهن الدعاء. فذكر منهن ليلة النصف من شعبان.

وروى ابن كِرْدَوْس عن أبيه، عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحيا ليلتي العيدين، وليلة النصف من شعبان لم يمُت قلبه يوم تموت القلوب».

وعن عليّ أنه قال: «إذا كان ليلة النصف من شعبان قال الله تعالى: هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من مسترزق فأرزقه؟ حتى ينفجر الفجر. فأمرنا رسول الله ﷺ بقيام ليلتها، وصيام نهارها».

وقال حكيم بن كيسان: يطلع الله إلى خلقه في ليلة النصف من شعبان، فمن طهره في تلك الليلة زكاه إلى مثلها من قابل.

روي عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (١) قال: في النصف من شعبان يدبر الله أمر السنة ويُنسخ الأحياء من الأموات، ويكتب حاج بيت الله الحرام، فلا يزيد فيهم أحداً، ولا ينقص منهم أحداً.

واعلم أن الرواية بهذا عن عكرمة مضطربة، فتارة يروي هكذا، وتارة يروي أنها ليلة القدر كباقي المفسرين. وقد سبقت الأحاديث أن الآجال تكتب في شعبان، فجائز أن يختص شعبان بما يتعلق بالآجال، ويكون القدر العام في ليلة القدر.

وقد رويت لهذه الليلة خمس صلوات، ليس في أسانيدھا شيء صحيح، ولا فيها ما يثبت، فلذلك سكتنا عن ذكرها، فإن الحديث إذا لم يصح كان وجوده كالعدم.

(١) الدخان ٤.

الكلام على البسمة

سَهْمَ المنايا أبداً صائبٌ
بيننا الفتى في عَيْشه ناعِمٌ
وكلُّ يومٍ مرّاً من عُمره
والنَّفْسُ دَيْنُ الموتِ عندِ الورى
يا عجباً من عالمٍ آمِنٍ
أين الذين استَبَقُوا للنَّهْيِ
طوتهم الأجداثُ في ضيقها

أين الحبيب والخليل؟ ودِّعا، أين الرفيق؟ رحل عنكم ودعا، أبقى الموت لكم في الحياة مَطْمَعاً؟ أخذ الصغير والكبير معاً، صاح بالوالد والولد فأسرعا، جُزْ على القبور ترى القومَ خُشَعاً، أين الفهم والتدبر، أين أهل الجهل والتكبر، أين من فسح لنفسه في الزَّلَل، أين الفهم والتدبر، أين أهل الجهل والتكبر، أين من فسح لنفسه في الزَّلَل، أين من خانها بقبیح العمل، بيننا هو يَعمر في رباعها، وقد اشتراها وما باعها، يحفر فيها الأنهار، ويغرس فيها الأشجار، والممالك تدور حول الدار [والسراري بحسنها تسر، ونُحورها قد زانها الدرّ، والتُّخوت تملأ الصناديق، وركن العزّ في الدنيا وثيق، والمال يُجمَع فوق المال، والخيال تردي في الجلال، والمراكب من الحلي تصاغ، وقد مُنحت الصحة إلى الفراغ، ثم ساعد ساعد الشباب كفّ الهوى على الاستلاب، والعود قد رثّ ثم عاد، والبطش في الملك بطش عاد، وقد أسكرت من قبل شرب الخمر لذة النهي والأمر، صاحت بين البيّن أغربة البيّن، فمزقت العين وأسخت العين، تالله لقد استلب صاحب القصر بكف القسر، فصار بالقهر أجدوثة الدهر. ولقد كان على غاية المنى في أول الشهر، فواعجباً لجنة صارت كالصريم بعد الزهر].

نُسُودِي بصوتٍ أيّما صوتٍ
كأنّ أهل الغيِّ في غيِّهم
ما أقرب الحيّ من الموتِ
قد أخذوا أمناً من الفوتِ

كَمْ مُصْبِحٍ يَعْمُرُ بَيْتاً لَهُ لَمْ يُمَسِّ إِلَّا خَرِبَ الْبَيْتِ
هَذَا وَكَمْ حَيٍّ بِكَيْ مَيِّتاً فَأَصْبَحَ الْحَيُّ مَعَ الْمَيِّتِ

يا مشغولاً بما لديه عما بين يديه، يا غافلاً عن الموت وقد دنا إليه، يا ساعياً إلى ما يضره بقدميه، يا مختار المؤذي له من حالتيه، يأمن الدهر وقد رأى صرْفَيْهِ، كم عَيْنٌ مَيِّتاً لو اعتبر بعينه، إنما أغار على شبابه هاجم على قُودِيهِ، أينفعه يوم الرحيل دمع يملأ خديه؟ يا من يصير عن قليل إلى حُفْرَةٍ، تنبّه لنفسك من هذه السَّكْرَةِ، لو أنك تذكَّرت لحدك كيف تَبَيْتَ وحدك، ويباشر الترابُ خَدَّكَ، وتتقسَّم الديدان جلدك، ويضحك المحب بَعْدَكَ ناسياً عنه بَعْدَكَ، والأهلُ قد وجدوا المالَ، وما وجدوا فَعْدَكَ، إلى متى وحتى متى ترك رُشدَكَ، أما تُحْسِنُ أن تُحْسِنَ قَصْدَكَ، الأمرُ مُجَدِّ جِدّاً فالزم جِدَّكَ.

ذهب الأُحِبَّةُ بعد طُولِ تَوَدُّدٍ ونأى المزارُ فأسلموك وأقشعوا
خذلوك أفقر ما تكون لغيره لم يؤنسوك وكُربَةً لم يدفعوا
قُضِيَ القضاءُ وصرت صاحب حُفْرَةٍ عنك الأُحِبَّةُ أعرضوا وتصدَّعوا

إخواني: إنكم تَعْدُونَ وتروحون في آجالٍ قد غيَّبت عنكم، لا تدرون متى تهجم عليكم، فالوفا الوفا فالطالب حَيْثُ.

يَجِدُّ بنا صَرْفُ الزَّمانِ وَنَهْزُلُ وَنُوقِظُ بالأحداثِ فِيهِ وَنَعْفَلُ
وما الناس إلا ظاعينٌ أو مودِّعٌ وَمُسْتَلَبٌ مستعجلٌ أو مُوجَّلُ
وما هذه الأيام إلا مَنازِلُ إذا ما قَطَعْنَا منزلاً بانَ مَنْزِلُ
فَنَاءٌ مُلْحٌ ما يُعِيبُ جَمِيعَنَا إذا عاشَ منا آخِرُ ماتَ أوَّلُ
وكم صاحبٍ لي كنت أكره فقده تَسَلَّمَ مِنِّي الفَناءُ المَعجَلُ

اسمعوا عظة الزمان إن كنتم تسمعون، وتأملوا تقلب الأحوال إن كنتم تبصرون.

قال يحيى بن معاذ: لو سمع الخلائق صوت النياحة على الدنيا من السنة

الفناء ، لتساقطت القلوب منهم حُزناً ، ولو رأت العقول بعين الإيمان نزهة الجنة
لذابت النفوس شوقاً ، ولو أدركت القلوب كُنْه المحبة لخالقها ، مفاصلها ولها .
فسبحان من أغفل الخليفة عن كُنْه عين هذه الأشياء ، وألهام بالوصف عن
حقائق هذه الأنباء :

من نال من جوهر الأشياء بُغِيته يَأْسِي وَيَحْقِرُ قوماً حَظَّهُمُ عَرَضُ
إِنِّي لأعجب من قوم يَشْفَهُمُ حَبُّ الزخارف لا يَدْرُونَ ما الغرضُ
ألا عقولاً أَلَا أَحلامُ تَزْجُرُهُم بلى عقولٌ وأحلامٌ بها مَرَضُ

إخواني : من آثر قِناع القناعة حاطه من رداء الردى ، ومتى ساعد الفقر ساعد
الصبر قلع قلعة الحرص ، فاستنارت طريق الهدى بمصباح اليقظة ، ومتى تأججت
نيران الخوف أحرقت مواطن الهوى ، وطردت عنه الدنيا :

تزوّد من الدنيا فإنك هالك وتترك للأعداء ما أنت مالك
ووسّع طريقاً أنت سالكه غداً فلا بد من يوم تضيق المسالكُ

الكلام على قوله تعالى

﴿ حم والكتاب المبين ﴾

اختلف المفسرون في ﴿ حم ﴾ على قولين :

أحدهما : أنها من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه . وهذا مذهب جماعة من
المفسرين .

والثاني : أنها معروفة المعنى . ثم لهؤلاء فيها قولان : أحدهما : أنها حروف من
أسماء . ولهؤلاء فيها ثلاثة أقوال : أحدها : أنها من الرحمن . قال ابن عباس : الر ،
وحم ، ون ، اسم الرحمن على الهجاء .

والثاني : أن الحاء مفتاح اسمه حميد والميم مفتاح اسمه مجيد ، قاله أبو العالية .

والثالث: أن الحاء مفتاح كل اسم ابتدأه حاء مثل حكيم وحليم وحيّ. والميم مفتاح كل اسم ابتدأه ميم مثل ملك ومجيد. حكاه أبو سليمان الدمشقي.

والقول الثاني: أن معنى حم: قُضي ما هو كائن. زواه أبو صالح عن ابن عباس. كأنه يصير إلى حمّ الأمر.

قال المفسرون: حم قسم جوابه: ﴿إنا أنزلناه﴾ والهاء كناية عن الكتاب، وهو القرآن. ﴿في ليلة مباركة﴾ وفيها قولان: أحدهما أنها ليلة القدر. قاله الأكثرون.

والثاني: ليلة النصف من شعبان: وقد ذكرناه عن عكرمة. ﴿إنا كنا مُنذرين﴾ أي مخوفين عقابنا. ﴿فيها يُفَرَّق﴾ أي يُفصل ﴿كل أمر حكيم﴾ (١).

اجتهدوا الليلة في محو ذنوبكم واستغيثوا إلى مولاكم من عيوبكم، هذه ليلة الإنابة فيها تفتح أبواب الإجابة، أين اللأئذ بالجَناب، أين المتعرض بالباب، أين الباكي على ما جنى، أين المستغفر لامرٍ قد دنا، كم منقول في هذه الليلة من ديوان الأحياء مُثبت في صحف أهل التلّف والفنا، فهو عن قريب يفجأ بالممات، وهو مقيم على السيئات، ألا ربّ فرح بما يؤتى قد خرج اسمه مع الموتى، ألا ربّ غافل عن تدبير أمره قد انفصمت عرى عمّره، ألا ربّ معرّض عن سبيل رشده، قد آن أوان شقّ لحدّه، ألا ربّ رافلٍ في ثوب شبابه قد أزف فراقه لأحبابه، ألا ربّ مقيم على جهله قد قرب رحيله عن أهله، ألا ربّ مشغول بجمع ماله قد حانت خيبة أماله، ألا ربّ ساعٍ في جمع حطّامه قد دنا تشتيت عظامه، ألا ربّ مُجدّد في تحصيل لذاته قد آن خراب ذاته، أين من كان مثلاً هذه الأيام في منازله ينسأ في طمأنينته إزعاج منازله، مشغولاً بشهواته مغروراً بعاجله؟ أما أصاب مقاتله سهم مقاتله؟ أما ظهر خساره عند حساب معامله؟ أين المعتذر مما جنّاه فقد اطلع عليه مولاة؟ أين الباكي على تقصيره قبل تحسّره

(١) الدخان ٤.

في مَصِيرِهِ، يا مطروداً ما درى، تعاتب ولا تفهم ما جرى، متى تُرَى على الباب
ترى:

تعالوا كل من حضرا لنطرق بابَه سخرا
ونبكي كلنا أسفا على من بات قد هجرا

روي عن كعب الأحبار رضي الله عنه قال: إن أهل الجنة ليفرحون بدخول
شهر رمضان من الحور والخزنة والولدان، كما يفرح أهل النار من ذرية آدم
بدخول الجنة إذا سكنوها، وذلك أن الله عز وجل يبعث جبريل عليه السلام في
ليلة النصف من شعبان فيقول: السلام عليكم أيتها الجنان، أنا جبريل الأمين
رسول رب العالمين تزييني وتجددني وازدادني نوراً وتألثني، وافتحي أبواب
مقاصيرك المرجانية، وحجالك العبقرية التي بطائنها من إستبرق، وحشوها
أذقرتات المسك، وأخرجي متضمنات المخلوقات التي لم يطمثهن إنس قبلهم ولا
جان، فإن الله عز وجل قد أعتق في ليلتك هذه عدد نجوم السماء، وعدد أيام
الدنيا ولياليها، وعدد ورق الشجر وزنة الجبال، وعدد الرمال.

يا مضيعاً اليوم تضيعه أمس، تيقظ ويحك فقد قتلت النفس، وتنبه للسُّعود
فإلى كم نحس، واحفظ بقية العمر، فقد بعث الماضي بالبخس.

أطل جفوة الدنيا وتهوين شأنها
يرجى خلوداً معشر ضلّ ضلهم
وليس الأماني للبقاء وإن مضت
وما المفلتون أجمل الدهر فيهم
يسار بنا قصد المنون وإننا
غفلنا عن الأيام أطول غفلة
فما العاقل المغرور فيها بعامل
ودون الذي يرجون غول الغوائل
بها عادة إلا تعاليل باطل
بأكثر ممن في عداد الحبائل
لنسعف أحياناً بطي المراحل
وما جوبها المخشي منها بغافل

إخواني: حبال الأمل رثاث، وساحر الهوى نقاث، رحل الأقران إلى ظلام
الأحداث، لله ما صنعت الأحداث في الأحداث، أفسدتم بآههم، فإذا هم

بلاهم، أي والله وعاث، باتوا شيباعاً من الأمل، فإذا هم غرّاث وبان لهم أن ما كانوا فيه من الهوى أضغاث واستغاثوا بالخلاص، وقد فات الغياب، عجباً لهم مالهم صيرّ النَّوى مالهم في الميراث، فدبروا أنتم أحوالكم فغداً ترون أموالكم للورّاث، أسفاً لأجسامِ ذكورٍ وعقولِ إناث:

أكبّ بنو الدنيا عليها وإنها لتنهاهم الأيامُ عنها لو انتهوا
مضى قبلنا قديماً قرونٌ كثيرة ونحن وشيكاً ما سنمضي كما مضوا
سيكون حُزناً حول قبرك ساعةً ولا يبرحون القبرَ إلا وقد سلّوا
رأيتُ بني الدنيا إذا ما سمّوا بها هوتُ بهم الدنيا على قدر ما سمّوا

يا من يجول في المعاصي قلبه وهنمه، يا مؤثر الهوى على التقى لقد ضاع حزمه، يا معتقداً صحته فيما هو سقمه، يا من كلما زاد عمره زاد إثمه، يا طويل الأمل وقد رقّ عظمه، أما وعظك الزمان وزجرحك ملّمه، أين الشباب قل لي قد بان رَسْمه، أين زمان المرح، لم يبق إلا اسمه، أين اللذة ذهب المطعوم وطعمه، كيف يقاوى المقاوي، والموتُ خصمه، كيف خلاص من قد أغرق فيه سَهْمه، يالديغ الأمل قد بالغ فيه سُمّه، يا قليل العبر، وقد رحل أبوه وأمه، يا من سيجمعه اللحدُ عن قليل ويضمّه، كيف يوعظ من لا يعظه عقله ولا فهمه، كيف يُوقظ من نام قلبه لا عينه ولا جسمه.

إذا لم تكن دنياك دارَ إقامةٍ فما لك تبنيها بناءً مُقيمٍ
وما صحَّ ودّ الخللِ فيها وإنما يُعَرُّ بودٍ في الحياة سقيمٍ
وجدتُ بني الأيامِ في كل مَوطِنٍ يعدّون فيها شقوةً كنعيمٍ
تزيدك فقراً كلما ازددت ثروةً فتلقَى غنياً في ثيابِ عديمٍ

المجلس السادس

لاستفتاح شهر رمضان

الحمد لله اللطيف الرؤوف العظيم المتأن، الكبير القدير القديم الديان، الغنيّ العليّ القويّ السلطان، الحليم الكريم الرحيم الرحمن، الأول فالسبّوق لسبّقه، المنعم فما قام مخلوقٌ بحقه، الموالى بفضلِهِ على جميع خَلْقِهِ بشرائف المنائح على توالي الزمان، جلّ عن شريكٍ وولد، وعزّ عن الاحتياج إلى أحد، وتقدّس عن نظير وانفرد، وعلم ما يكون وأوجد ما كان. أنشأ المخلوقات بحكمته وصنّعها، وفرّق الأشياء بقدرته وجمّعها، ودحا الأرضَ على الماء وأوسعها ﴿والسمااءَ رَفَعَهَا ووضع الميزان﴾ (١).

سالت الجوامدُ لهيبته ولانت، وذلت الصّعاب لسطوته وهانت، وإذا بطش ﴿انشقت السمااءُ فكانت ورْدَةً كالدهان﴾ (٢).

يُعزّ ويذل، ويفقر ويغني، ويُسعد ويُسقي، ويبقي ويُفني، ويشين ويزين، وينقض ويبيّن ﴿كلّ يومٍ هو في شأن﴾ (٣).

قدّر التقدير فلا رادّ لحُكمه وعلم سرّ العبد وباطن عَزْمِهِ ﴿وما تحمّل من أنثى ولا تَضَعُ إلا بعلمه﴾ (٤)، ولا ينتقل قدمٌ من مكان.

مدّ الأرض فأوسعها بقدرته، وأجرى فيها أنهارها بصنّعته، وصبغ ألوان نباتها بحكمته، فمن يقدر على صبغ تلك الألوان. تبتها بالجبال الرواسي في

(٣) الرحمن ٢٩.

(٤) فصلت ٤٧.

(١) الرحمن: ٧.

(٢) الرحمن ٣٧.

نواحيها، وأرسل السحاب بمياه تُحْيِيها، وقضى بالفناء على جميع ساكنيها ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (١).

من خدَمه طامعاً في فضله نال، ومن لجأ إليه في رَفَع كربه زال، ومن عامله أربحه وقد قال: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ (٢).

إلهٌ يُثِيب عِبَادَه وَيُعاقِب، ويهب الفضائل وَيَمْنَح المناقب، فالفوز للمتقي والعِزُّ للمراقِب ﴿ولمن خاف مقامَ رَبه جَنَّتَان﴾ (٣).

أنعم على الأمة إحسانه، وعاد عليها بفضله وامتنانه، وجعل شهرها هذا خصوصاً بعميم غفرانه ﴿شهرُ رمضانَ الذي أنزِل فيه القرآن﴾ (٤).

أحمده على ما خصَّننا به فيه من الصيام والقيام، وأشكره على بلوغ الآمال وسُبُوغ الإنعام، وأشهد أنه الذي لا تحيط به العقول والأذهان، وأن محمداً أفضل خلقه وبريته، المقدّم على الأنبياء ببقاء معجزته، الذي انشق ليلة ولادته الإيوان، وعلى أبي بكر الصديق رفيقه في الغار، وعلى عمر فتّاح الأمصار، وعلى شهيد الدار عثمان، وعلى عليّ كاشف غمّه سيد الشجعان وعلى عمه العباس المطهر من الأرجاس، الذي دُعي به فسال من السحاب تهتان.

قال الله عز وجل: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾.

إنما سمّي الشهر شهراً لشهرته في دخوله وخروجه. قاله النحاس. وأما أسماء الشهور فذكر أبو منصور الأزهري عن المفضل قال: كانت العرب في الجاهلية تقول لرمضان ناتق، ولشوال وعيل، وللمحرم مؤتمر، ولصفر ناجر، ولربيع الأول خوآن، ولربيع الآخر بُصّان، ولجُمادى الأولى رُبّي، ولجُمادى الآخرة حنين، ولرجب الأصمّ، ولشعبان عادل. قال: وكانت عاد تسمي هذه الأشهر بهذا، فلما نقلت العرب أسماء هذه الأشهر سموها بما وقعت فيه من الزمان. قال ثعلب:

(٣) الرحمن ٤٦.

(٤) سورة البقرة ١٨٥.

(١) الرحمن ٢٦.

(٢) الرحمن ٦٠.

سمي رمضان لأن الإبل تَرْمُض فيه من الحرّ، وسمي شوال لأن الألبان كانت تَشْوُل فيه أي تذهب وتقلّ. وسمي ذو القعدة لأنهم كانوا يقعدون فيه. وذو الحجة لأنهم كانوا يحجّون فيه. والمحرمّ لتحرّم القتال فيه. وصفر لأنهم كانوا يطلبون القطر فيه، يقال صَفِرَ السَّقَاء إذا خَلَ. وربيع لأنهم كانوا يربعون فيها. وجمادى، لأن الماء يجمد فيها. ورجب من التعظيم، يقال رَجَبَهُ يَرْجَبُهُ إذا عظّمه. وقال شمر: ومنه سمي رجب. وشعبان، لأنهم يتفرقون ويتشعبون فيه. وقال قُطْرِب: سمي صفرًا لأنهم كانوا يخرجون إلى بلاد تسمى الصفرية يمتارون منها.

وقد أحدثت العرب لأسماء شهور الأعاجم أسماء. فنقلت من خط أبي بكر بن الأنباري في كتاب قد صنعه أبو محمد الصُّبْحِي قال: لَقَّبَت العرب شهور العجم بألقاب غير ما سمّتها به العجم: تشرين الأول أحد وثلاثون يوماً والعرب تسميه مُطْلَقاً، والثاني ثلاثون يوماً واسمه عند العرب طَلِيْق، وتسمي التَّشْرِينَيْنِ القَصَّابَيْنِ لفسو الموت فيهما، وكثرة من يموت، وكانون أحد وثلاثون يوماً، واسمه عند العرب مجدح، وكانون الآخر اسمه عند العرب حديج، وتسميها أيضاً شيبان، وملحان للثلج، وبياضه وشدة البرد قال الكُمَيْت:

وأصبحت الآفاق حُمْراً جُنُوبها بَشِيْبَانِ أَوْ مَلْحَانِ فَالْيَوْمِ أَشِيْبُ

ويقال لها أيضاً: الهزاز لشدة البرد. وشباط تسعة وعشرون يوماً، واسمه عند العرب فريح، وآذار أحد وثلاثون يوماً، واسمه عند العرب مسهل. ونيسان ثلاثون يوماً، واسمه عندهم صحان، وحزيران ثلاثون يوماً واسمه عندهم واقد، وتموز أحد وثلاثون يوماً، واسمه عندهم ضرام، وأيلول ثلاثون يوماً، واسمه عندهم طلق.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنَ﴾ (١) فيه أربعة أقوال:

(١) البقرة ١٨٥.

أحدها: أنه أنزل القرآن في شهر رمضان إلى السماء الدنيا جملة واحدة. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: أنزل القرآن في رمضان ليلة القدر إلى بيت العزة من سماء الدنيا جملة واحدة، ثم أنزل نجوماً.

والثاني: أنزل القرآن بفرض صيامه. قاله مجاهد والضحاك.

والثالث: أنزل في فضله القرآن. قاله سفيان بن عيينة.

والرابع: ابتدء فيه بإنزال القرآن. قاله ابن إسحاق وأبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿هُدًى للناس﴾ أي بياناً لهم. والبيّنات: الآيات الواضحات. والفرقان: المفرّق في الدين بين الضلالة والشبهة.

أخبرنا أبو القاسم بن الحصين بسنده عن نافع بن أويس أن أباه حدثه أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل رمضان فتحت أبواب الرحمة وغلقت أبواب جهنم وسُلسلت الشياطين».

وقد رويناه أيضاً عالياً عن أبي سهيل نافع بن مالك فذكره. وقال: فتحت أبواب الجنة. أخرجاه في الصحيحين. ونافع يكنى أبا سهيل، وهو من تابع التابعين، والزهري من التابعين، فقد روى الزهري عمّن هو دونه، فهو يخرج في رواية الأكاير عن الأصاغر. وقد روى جماعة من الصحابة عن التابعين فروى ابن عمر، وابن عمرو، وابن الزبير، وأنس وأبو هريرة كلهم عن كعب. وقد روى جماعة عن أولادهم، فروى أبو بكر الصديق عن عائشة حديثين، وروى العباس عن ابنه الفضل حديثاً وعن ابنه عبد الله حديثاً، وروى سليمان التيمي عن ابنه المعتمر حديثين، وروى أبو بكر ابن عيَّاش، عن ابنه ابراهيم حديثاً، وروى أبو داود السجستاني عن ابنه حديثين، في خلق يطول ذكرهم.

أخبرنا أبو منصور القرّاز بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليس بتاركٍ أحداً من المسلمين صبيحة أول يوم من رمضان إلا غفر له».

أخبرنا محمد بن أبي طاهر بسنده عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: « إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صُفِّدَت الشياطين ومردة الجن، وغُلِّقت أبواب جهنم فلا يفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنان، فلم يغلق منها باب وينادي منادٍ: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر، ولله عتقاء من النار، وذلك في كل ليلة ».

أخبرنا عبد الأول بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه ».

أخرجاه في الصحيحين.

وقد أخرجاه من حديث يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة ولفظه: « من قام رمضان إيماناً واحتساباً ».

أخبرنا أبو نصر أحمد بن منصور الهنائي بسنده عن علي بن أبي طالب قال: كان رسول الله ﷺ إذا استهلَّ شهرَ رمضان استقبل القبلة بوجهه، ثم قال: اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، والعافية والمحللة، والرزق الحسن، ودِّفاع الأَسقام والعَوْن على الصلاة والصيام، وتلاوة القرآن، اللهم سلِّمنا لرمضان وسلِّمنا منا حتى ينقضي وقد غفرت لنا، ورحمتنا، وعفوت عنا. ثم يُقبل على الناس بوجهه فيقول: يا أيها الناس إنه، إذا استهل شهر رمضان فُتِّحت أبواب السماء، وأبواب الرحمة وأبواب الجنان، وغُلِّقت أبواب النار، وسُئِلت الشياطين، وكان لله عز وجل عند كل فِطْر عَتقاء من النار، ونادى منادٍ كلَّ ليلة: اللهم أعطِ كلَّ ممسك تلفاً، وأعطِ كلَّ مُنفق خلفاً. فإذا استهل هلال شوال نودي المؤمنون أن اغدوا إلى جوائزكم، وأقلِّ ما يجازي به الرجل أن يُكتب له ألف ألف حسنة، ويُمحى عنه ألف ألف سيئة.

أخبرنا محمد بن منصور بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا كان أول ليلة من شهر رمضان نظر الله عز وجل إلى خلقه، وإذا نظر الله إلى عبْد لم يعدِّبه أبداً، ولله في كل ليلة ألف ألف عتيق من النار ».

قال أبو عمرو: فشككت في شيء من هذا الحديث، فكتبته من الحسن بن

يزيد ، وكنت سمعته أنا والحسن بن عبد الله بن الحكيم ، حدثنا القاسم بن الحكم العريبي ، عن الضحَّاک ، عن ابن عباس أنه سمع النبي ﷺ يقول : « إن الجنة لتتجد وتزيّن من الحول إلى الحول لدخول شهر رمضان . فإذا كانت أول ليلة من شهر رمضان هبت ريح من تحت العرش يقال لها : المثيرة فتصفق ورق أشجار الجنات ، وحلق المصاريح فيسمع لذلك طنين لم يسمع السامعون أحسن منه ، فيشرقن الحور العين حتى يقفن على شجر الجنة فينادين : هل من خاطب إلى الله عز وجل ، فيزوجه ؟ ثم يقلن : يا رضوان ما هذه الليلة ؟ فيجيبهن بالتلبية ، ثم يقول : يا خيرات حسان هذه أول ليلة من شهر رمضان فتفتح فيها أبواب الجنات للصائمين من أمة محمد ﷺ ، ويقول الله عز وجل : يا رضوان افتح ابواب الجنان ، يا مالك أغلق أبواب الجحيم عن الصائمين من أمة محمد ﷺ ، يا جبريل إهبط إلى الأرض ، فصعد مرّة الشياطين ، وغلّهم في الأغلال ، ثم أقذف بهم في لُجج البحار حتى لا يفسدوا على أمة حبيبي صيامهم . قال : ثم يقول الله عز وجل : في كل ليلة من شهر رمضان ثلاث مرات : هل من سائل فأعطيه سؤله ، هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ من يُقرض المليء المُعدم الوفي غير الظلوم ؟ » .

قال : والله عز وجل في كل ليلة من شهر رمضان عند الإفطار ألف ألف عتيق من النار ، فإذا كان ليلة الجمعة ، أو يوم الجمعة أعتق في كل ساعة ألف ألف عتيق من النار كلهم قد استوجب العذاب ، فإذا كان آخر ليلة من شهر رمضان أعتق الله عز وجل في ذلك اليوم بعدد ما أعتق من أول الشهر إلى آخره ، فإذا كانت ليلة القدر يأمر الله عز وجل جبريل فيهبط في كُتُبة من الملائكة معه لواء أخضر ، فيركز اللواء على ظهر الكعبة ، وله ستائة جناح منها جناحان لا ينشرهما إلا في ليلة القدر ، فينشرهما تلك الليلة ، فيجاوزان المشرق والمغرب قال : ويث جبريلُ الملائكة في هذه الأمة ، فيسلّمون على كل قائم وقاعد ومصلٍ وذاکر ، فيصافحونهم ويؤمّنون على دعائهم حتى يطلع الفجر ، فإذا طلع الفجر نادى جبريل : يا معشر الملائكة الرحيل الرحيل . فيقولون : يا جبريل ما صنع الله في حوائج المؤمنين من أمة محمد ﷺ ؟ فيقول : إن الله عز وجل نظر إليهم في هذه الليلة ، فعفى عنهم وغفر لهم إلا أربعة . قال رسول الله ﷺ : وهؤلاء الأربعة

مُدْمَن خمر، وعاقق لوالديه، وقاطع رَحِيم، ومشاحِن. فقيل: يا رسول الله وما المشاحِن؟ قال: هو المصارِم. فإذا كانت ليلة الفطر سميت ليلة الجائزة، فإذا كان غداة الفطر يبعث الله تعالى الملائكة في كل بلد، فيهبطون إلى الأرض، فيقومون على أفواه السكك، فينادون بصوت يسمعه جميع من خلق الله إلا الجن والإنس فيقولون: يا أمة محمد اخرجوا إلى رب كريم يغفر الذنوب العظيم. فإذا برزوا في مُصَلَّاهم يقول الله تعالى: يا ملائكتي ما جزاء الأجير إذا عمل عمله؟ فتقول الملائكة: إلهنا وسيدنا جزاؤه أن توفيه أجره. فيقول الله تعالى: أشهدكم يا ملائكتي أنني قد جعلت ثوابهم في صيامهم شهر رمضان وقيامهم رِضاي ومغفرتي فيقول الله عز وجل: سلوني فوعزتي وجلالي لا تسألوني اليوم شيئاً في جمَعكم هذا لأخرتكم، إلا أعطيتكموه، ولا لدنيا إلا نظرت لكم، وعزتي لأسترنَّ عليكم عثراتكم ما راقبتموني، وعزتي لا أخزیکم، ولا أفضحکم بين أصحاب الحدود، أو الحدود. شكَّ أبو عمرو. انصرفوا مغفوراً لكم قد أرضيتموني، ورضيت عنكم. قال فتفرح الملائكة، ويستبشرون بما يعطي الله عز وجل هذه الأمة إذا أفطروا.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت أمتي حسنَ خصال في شهر رمضان لم تُعطهن أمة قبلهم: خلُوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وتستغفر لهم الملائكة حتى يُفطروا، ويزين الله كلَّ يوم جنَّته، ثم يقول: يوشك عبادي الصالحون يُلْقوا عنهم المؤنة، أو الأذى، ويصيروا إليك. وتُصَفِّدُ مردةَ الشياطين فلا يَخْلُصون إلى ما كانوا يخلصون إليه في غيره، ويُغْفِر لهم في آخر ليلة. قيل: يا رسول الله أهي ليلة القدر؟ قال: لا ولكن العامل يوقى أجره إذا قضى عمله.

وعن ابن عباس وعائشة قالا: كان رسول الله ﷺ إذا دخل شهر رمضان أطلق كلَّ أسير، وأعطى كل سائل.

وذكر أبو جعفر بن أبي شيبة في كتاب العرش، عن كعب قال: قال الله تعالى: يا موسى بن عمران إني أمر حملة العرش أن يُمسكوا عن العبادة، إذا دخل شهر رمضان، وأن يقولوا كلما دعا صائم رمضان: آمين. فإني آليت على

نفسى أن لا أردّ دعوة صائم رمضان .

الكلام على البسمة

مَنْ ناله داءٌ دَوِّ بذنوبه فليأت في رمضان بابَ طبيبه
فخلُوف هذا الصوم يا قوم اعلموا أشهى من المسلك السَّحيق وطيبه
أو ليس هذا القولُ قولَ مَلِيككم الصومُ لي وأنا الذي أجزي به

أين من كان معكم في رمضان الماضي ؟ أما أفنته آفات المنون القواضي ، أين من كان يتردد إلى المساجد في الظلم ؟ سافر عن داره منذ زمان ولم ، أين من صبر على مشقة الجوع والظما ، غاب فما آبَ ومضى فما ، أين الذين ارتفعت أصواتهم بالأدعية خرجت تلك الجواهر من تلك الأوعية ، أين من جمع مالا ووفرا ، وأغلق من ظفّره بالمراد ظفرا ، ومشى إلى أغراضه جمزا وطفرا ، أما أخرج الموت كفه صفرا ؟ أما أعاد دياره بالخراب قفرا ؟ كانت تلاحظه عيون الأجداد خزرا وتلمحه وهو في لذاته شزرا ، فنقلته وهو أنقل بالوزر أزرا ، ثم طال عذابه وإنما نال نزرا ، وأوطأته جمرا لا يشبه جمرا فبان في أسره أذلّ الأسرى .

سَلِ الأيَّامَ ما فَعَلتْ بِكِسرى وقَيِّصِرِ والقصورَ وساكنيها
أما استدعتهم للموت طُرا فلم تَدَعِ الحليمَ ولا السَّفيها
دنت نحو الدَّيِّ بِسَهمِ خَطب فأصمته وواجهتِ الوجيها
أما لو بيعت الدنيا بفلس أنفَتُ لعاقِل أن يشتريها

إخواني: تفكروا لماذا خلقتم فالتفكر عبادة ، وامثلوا أمر الإله فقد أمر عباده ، والتفتوا عن أسباب الشقاء إلى أسباب السعادة ، واعلموا أنكم في نقص من الأعمار لا في زيادة .

آه لنفسٍ أقبلت على العدو وقيلت ، وبادرت ما يؤذيها من الخطايا وعجلت ، من لها إذا نُوقشت على أفعالها وسئلت ، وقررت بقبائحها يوم الحشر

فخجلت، وقيدت بقيود الندم على التفريط وكبتت، وشاهدت يومَ الجزاء قُبْح ما كانت عملت، وسلَّ عليها سيفُ العتاب يومَ الحساب فقتلت.

أيها الغافل عن فضيلة هذا الشهر، اعرف زمانك، يا كثير الحديث فيما يؤذي احفظ لسانك، يا مسؤولاً عن أعماله اعقل شانك، يا متلوتاً بالزلل اغسل بالتوبة ما شانك، يا مكتوباً عليه كلُّ قبيح تصفَّح ديوانك.

أَقْلِيلُ كَلَامِكَ واحترز من شرِّه إنَّ البلاءَ ببعضه مقرونُ
وَكُلُّ فَوَادِكٍ باللسان وقل له إنَّ الكلامَ عليكما موزونُ
فَزِنَاهُ فَلَئِكَ مُحَكَّمًا فِي قِلَّةِ إنَّ البلاغةَ في القليل تكونُ

يا من أكثر عمره قد مضى، يا من نفسه مع اللحظات تقتضى، يا من قد أنذرته سلب القرين معرضاً، كيف يحترس العريان من سيفٍ مُنتَضَى، إن كان ما فرط يوجب السخط فاطلب في هذا الشهر الرضاً، يا كثير القبائح غداً تنطق الجوارح، أين الدموع السوافح على تلك القبائح، ياذا الداء الشديد الفاضح، ما أعسر مرض الجوانح، هذا الشيب دليلٌ واضح، وهو في المعنى عدولٌ ناصح، جائحته لا تشبه الجوانح، يُضعف الأركان الصحائح، يسدُّ أبوابَ اللهو والممازح، والموتُ في خِلاله مُبين لائح، أين زادك يا أيها الرائح، أين ما حصلت هل أنت رايح، يا أسفي لهذا النازح، كيف حاله في الضرائح، من له إذا أوثقه الذابح، من له إذا قام النَّائح، واستوى لديه العائب والمادح، ولم ينفعه في بطون الصفائح، إلا عملٌ إن كان له صالح، أتراه يعتقد أن النصيح مازح، ضاعت المواعظ، إلا أن الموعوظ سكرانٌ طافح.

يا من قد سارت بالمعاصي أخباره، يا من قد قُبْح إعلانه وإسراره، يا فقيراً من الهدى أهلكه إعساره، أتؤثر الخُسْران قل لي، أو تختاره؟ يا كثير الذنوب وقد دنا إحضاره، يا أسيراً في حبس الطرد لا ينفعه إحضاره، نقدك بهرج إذا حكَّ معياره، كم ردَّ على مثلك درهمه وديناره، يا مُحترقاً بنار الحِرْص حتى متى تخبو ناره، المذكرون بينكم قد أصبحوا كالسَّهار، وأنتم قد جعلتم المواعظ مثلاً

الأسهار، وكان القرآن عندكم صوتٌ مِزْمَارٌ، وقد ضاعت في هذه الأمور
الأعهار، فأين يكون لهذا الغرس إثمار:

مَضَى زَمَانِي وَتَقَضَّى الْمَدَى فليتني وفقت هذا الزمَيْن
أرْزَمْتَ النَّارَ وَعَارَضْتَهَا فليعجب السامعُ للمُرْزَمَيْن
ليت دموعي بمنى سبَّلت ليثرب الحجاج من زمين

الكلام على قوله تعالى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾^(١)

كتب: بمعنى فُرِضَ. أخبرنا أبو بكر بن حبيب، أنبأنا أبو سعيد بن أبي
صادق، أخبرنا أبو عبد الله بن باكوية، قال سمعت حسان بن أحمد الهاشمي
يقول. سأل المأمون علي بن موسى الرضا: أي شيء فائدة الصوم في الحكمة؟
فقال: عَلِمَ اللهُ ما ينال الفقيرَ من شدة الجوع، فأدخل على الغني الصوم ليذوق
طعم الجوع ضرورةً، حتى لا ينسى الفقير من [شدة] الجوع. فقال المأمون: أقسم
بالله لا كتبت هذا إلا بيدي!

وللصوم آداب يجمعها: حفظ الجوارح الظاهرة، وحراسة الخواطر الباطنة،
فينبغي أن يتلقى رمضان بتوبة صادقة، وعزيمة موافقة. وينبغي تقديم النية وهي
لازمة في كل ليلة، ولا بد من ملازمة الصمت عن الكلام الفاحش والغيبة فإنه
ما صام من ظلَّ يأكل لحوم الناس، وكفُّ البصر عن النظر إلى الحرام، ويلزم
الحذر من تكرار النظر إلى الحلال.

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « من لم
يدع قول الزور والعمل به والجهل، فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه. »

إنفرد بإخراجه البخاري.

(١) البقرة ١٨٣.

وفي الصحيحين من حديث سَهْل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يزال الناس بخير ما عَجَّلُوا الفِطْرَ » .

وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: يقول الله عز وجل: « إن أحبَّ عبادي إليَّ أَعَجَّلَهُمْ فِطْرًا » .

وفي حديث سليمان بن عامر عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا أفطر أحدكم فليُفطر على تمر ، فإن لم يجد فليُفطر على ماء ، فإنه له طَهُورٌ » .

وفي حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا قُرَّبَ إلى أحدكم طعامه وهو صائم فليقل: بسم الله ، والحمد لله ، اللهم لك صُمت ، وعلى رزقك أفطرت ، وعلىك توكلت ، سبحانك اللهم وبحمدك ، إنك أنت السميع العليم » .
ويستحب السحور وتأخيره :

وفي الصحيحين من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: « تسحَّروا فإن في السحور بركة » .

وينبغي للصائم أن يتشاغل طوله نهاره بالذكر والتلاوة ، وكان الشافعي رضي الله عنه يختم في رمضان ستين ختمة .

أخبرنا الكروخي بسنده عن الزُّهري قال: تسبيحة في رمضان خير من ألف تسبيحة في غيره .

حقُّ شهر الصيام شيان إن كنت من الموجبين حقَّ الصيام
تقطع الصوم في نهارك بالذِّكْر وتُفني ظلامه بالقيام

أخبرنا أبو القاسم الجريري بسنده عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ذاكر الله عز وجل في رمضان مغفور له ، وسائل الله عز وجل فيه لا يجيب » .

وعن قيس الجُهني قال: إن كل يوم يصومه العبد من رمضان يجيء يوم

القيامة في عمامة من نور في تلك العمامة قصر من دُرّ له سبعون ألف باب، كل باب ياقوتة حمراء؟

ويستحب للصائم أن يُفطر الصوَّام إذا أمكنه.

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن زيد بن خالد الجهني، عن النبي ﷺ قال: «من فطر صائماً كان له، أو كُتِبَ له مثل أجر الصائم من غير أن ينقص من أجر الصائم شيئاً، ومن جهَّز غازياً في سبيل الله كان له، أو كُتِبَ له مثل أجر الغازي في سبيل الله، غير أنه لا ينقص من أجر الغازي شيئاً».

فبادروا إخواني شهركم بأفعال الخير، وأفردوها عن الخطايا لتكون وحدها لا غير، واعلموا أن شهركم هذا شهر إنعام ومير، تعرف حرمة الملائكة والجن والطير، واهأ لأوقاته من زواهر ما أشرفها، ولساعاته التي كالجواهر ما أظرفها، أشرقت لياليها بصلاة التراويح، وأنارت أيامها بالصلاة والتسبيح، حليتها الإخلاص والصدق، وثمرتها الخلاص والعِتق.

تَيْقِظْ يا غافل وانهض ببدارك، فمالك لأهلك، وأنت ضيفٌ بدارك، واستدركٌ قديمك وأصلح بالتقى حديثك، وامنع لسانك اللغو واجعل الذكر حديثك، وصحح بمجانبة الهوى إيمانك ويقينك، وتدرَّع كلماتي هذه في حرب الغرور يقينك، إلى متى في حب البطالة منكمش، وبلذات الكسل جدلان دهِش، وإذا فات الهوى بيت من الحزن ترتعش، أما رأيت ذا مالٍ وأملٍ لم يعيش، أما شغلك الموت عن زخرفٍ قد نُقش، أما تعلم أنك للموت في القبر تفتersh، أما تحذر يوماً لا تجد الماء من العطش، عجباً لموقن بالقيامة، لم يجع ولم يعطش.

كان أصحاب أبو هريرة يعتكفون في رمضان، ويقولون: نُظَهَّرَ صيامنا.

واعتكف أبو محمد الجريدي في الحرم سنة لم يمدّ رجله، ولم يضطجع، فقيل له: كيف قدرت على هذا؟ فقال: عِلِمَ صِدْقَ باطني فأعاني على ظاهري.

إخواني: هذا شهر التيقُّظ، هذا أولن التحفُّظ، إخواني بين أيديكم سفر، والأعمارُ فيها قصر، وكلكم والله على خطر، كونوا على خوف من القدر، واعرفوا قدر من قدر، وتذكروا كيف عصيتم وستر، وأيم الله لو قمتم على البصر، وسجدتم شكراً على الإبر وما وفيتم بشكر نعيم محتقر، أما طوى القبيح والجميل نشر، أما بعضُ نعمه السمعُ والبصر.

إخواني: آن الرحيلُ وما عندكم خبر، إلى كم توعظون ولا تتعظون، وتوقظون ولا تتيقظون، وتتعجبون الناصح ولا تقبلون، ويكفي في البيان رؤية الأقران يرحلون ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾^(١) أكلفتم ما لا تطيقون، أكلفتم بما لا تفهمون، ما لكم من مآلكم معرضون، ما هذا الفتور وأنتم سالمون، ما هذا الرقاد وأنتم مُنتهبون:

أَقْضِيَ الدَّهْرَ مِنْ فِطْرٍ وَصَوْمٍ وَأَخَذُ بُلْغَةً يَوْمًا بِيَوْمٍ
وَأَعْلَمُ أَنْ غَايَتِي الْمُنَايَا فَصَبْرًا تِلْكَ غَايَةَ كُلِّ قَوْمٍ
فَإِنْ تَقَفَ الْحَوَادِثُ دُونَ نَفْسِي فَهَا يَتْرَكُنْ إِشْمَامِي وَرَوْمِي

كم مؤمل إدراك شهرٍ ما أدركه، فاجأه الموتُ بغتةً فأهلكه، كم ناظر إلى يوم صومه بعين الأمل طمسها بالمات كفُّ الأجل، كم طامع أن يلقاه بين أترابه ألقاه الموت في عُقر تراه.

استغفر الله بقلب مُنيب يعلم أن الموت منه قريبُ
مأخوذُ مالٍ حريباً يشتكي وعادِمُ الدين الأخذُ الحريبُ
والإنس جنسٌ كلُّه ظالم والمنصف العادلُ فيهم قريبُ
والعيشُ محبوبٌ أتاك الأذى منه فواهاً للبغيض الحبيبُ
اصبر إذا العام سطا جَدُّبه فطالما جاءك عامٌ خصيبُ
خاطبت أقواماً فلم يسمعوا فهل تشبهت بهم يا خطيبُ
تغسل كفيك من الزهم ألا

(١) الطور ١٥.

أيها المجتهد هذا ربيع جدك، أيها الطالب هذه أوقات رُفدك، تيقظ أيها الغافل من سِنَّة البطالة، تحفظ أيها الجاهل من شُبّه الضلالة، اغتم سلامتك في شهرك قبل أن تُرْتَمَنَ في قبرك، قبل انقراض مدتك وعدم عُدَّتِكَ وازماع قُوَّتِكَ وانقطاع صوتك، وعثور قدَمك وظهور ندمك، فإن العمر ساعات تذهب وأوقات تُنهب. وكلها معدود عليك والموت يدنو كل لحظة إليك.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب العامري بسنده عن محمد بن علي الحرّبي، قال: سمعت أحد ابن المغلس، قال: سمعت سريّاً السقطي يقول: السنّة شجرة، والشهور فروعها، والأيام أغصانها، والساعات أوراقها وأنفاس العباد ثمرتها، ف شهر رجب أيام توريقها، وشعبان أيام تفريعها، ورمضان أيام قطفها، والمؤمنون قُطّافها. هذه الأشهر الثلاثة المعظّمة كالجمرات الثلاث، فرجب كأول جَمْرَةٍ تَحْمَى بها العزائم، وشعبان كالثانية تَذُوب فيها مياه العيون، ورمضان كالثالثة تُورِق فيها أشجارُ المجاهدات، وأي شجرة لم تورق في الربيع قُطعت للحطب! فيامن قد ذهب عنه هذه الأشهر، وما تغيّر أحسن الله عزاءك!

إخواني: إنما شرع الصوم ليقع التقلل، فأما من أوثق الرّزمة فما له نية في البيع، إذا استوفيت العشاء تكدّر الليل بالنوم، وإذا استوفيت السحور تجبّط النهار بالكسل، وإنما شرع السحور ليتقوى المتقلل من العشاء، ولينتبه الغافل، وما أرى رمضان إلا زادك شيباً وغفلة.

واعجباً لو عرض عليك أن تشرب شربة ماء في رمضان لما شربت، ولو ضربت، وأنت فيه تغشّ في البيع، وتطفّف في الميزان، فإذا خرج شربت الخمر في شوال، أما كان الناهي عن هذا هو الناهي عن ذلك ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾ (١).

تالله لو قيل لأهل القبور: تمنّوا لتمنوا يوماً من رمضان، إلى متى أنت في ثياب

(١) البقرة ٨٥.

البَطْرَ أما تعلم مصير الصَّوْرَ، عجباً لك تَوْمنَ، وتَأمنَ الغيرَ، أما ينفعك ما ترى من العيَرِ، أَصمَّ السَّمعَ، أم غُشيَ البصرَ، تالله إنك لعلَى خطرٍ، آن الرحيلُ ودنا السَّفَرِ، وعند المماتِ يأتيك الخبرُ، كلما خرجت من ذنوب دخلتَ في آخرَ، يا قليل الصفا، إلى كم هذا الكَدَرُ، أنت في رمضان كما كنت في صفر، إذا خسرت في هذا الشهر، فمتى تَرَبِّحَ، وإذا لم تسافر فيه نحو الفوائد فمتى تَبْرَحَ، يا من إذا تاب نقضَ، يا من إذا عاهد غدرَ، يا من إذا قال كَذِبَ، كم سترناك على معصية، كم غطيناك على مُخْزِية .

يا عامراً ما يَقْطُنُ	يا هالكاً ما يَفْطُنُ
يا ساكن الحُجرات ما	لك غير قَبْرِكَ مَسْكُنُ
أحدث لربك توبةً	وسيلُها لك مُمَكِّنُ
فكأن شخصك لم يكنُ	في الناس ساعة تُدْفِنُ
وكان أهلك قد بكَوا	سِراً عليك وأعلَنُوا
فإذا مضت بك ليلةُ	فكأنهم لم يَحْزَنُوا
النَّاسُ في غَفلاتهم	ورحَى المنيّة تطحَنُ
ما دون دائرة الردى	حِصْنُ لمن يتحصَّنُ
مالي رأيتك تطمئنّ	إلى الحياة وتَرْكَنُ
وجعّت ما لا ينبغي	وبنيتَ مالا تَسْكُنُ
وسلكت فيما أنت في الـ	دنيا به متيقِّنُ
أظننت أن حوادث الـ	أيام لا تتمكِّنُ

المجلس السابع

لانتصاف شهر رمضان

الحمد لله الأحديّ الذات، العليّ الصفات. الجليّ الآيات الوفيّ العِدّات، رافع السموات وسامع الأصوات، عالم الخفّيات ومحيي الأموات، تنزّه عن الآلات، وتقدّس عن الكيفيّات، وتعظّم عن مشابهة المخلوقات، جلّ عن الآباء والأمّهات والبنات، ثبّت الأرض بالأطواد الراسيات، وأحيّاها بعد موتها بالسُّحب المطرات، فإذا أرخت عزّاليها ضحك باخضاراه النبات، وقالت المبتدعات بألسن الإشارات: ﴿اعلموا أن الله يُحيي الأرض بعد موتها قد بيّنا لكم الآيات﴾ (١).

إذا بسط بساط الدّل تزلزلت أقدام أهل الثّبات، وإذا نشر رداء الفضل غمر الذنوب الموبقات، ﴿يقبل التوبة عن عبّاده ويعفو عن السيئات﴾ (٢).

حيّ بحياة تنزّهت عن طارق الممات، عالم بعلم واحد جميع المعلومات، قادر بقدرة واحدة على جميع المقدورات، أراد فلانت لهيبته صعب المراتد، وسمع فلم يعزّب عن سمعه خفيّ الأصوات، وأبصر سواد العين في أشد الظلمات، استوى على العرش لا كاستواء المخلوقات، وينزل إلى سماء الدنيا مرويّ بنقل عن الثقات، ويراه المؤمنون في الجنة بالعيون الناظرات، نصّفه بالنقل المبين بصحته سقيم الشبهات، من غير تكييف في الأوصاف، ولا تشبيه في الذوات، فهل علينا ملام، أم هو طريق النجاة، أحده على جميع الحالات حدّاً يدوم بدوام الأوقات، وأقرّ بوحدانيته كافرّاً باللات، وأشهد أن محمداً عبده

(١) الحديد: ١٧.

(٢) الشورى: ٢٥.

ورسوله أرسله بالأدلة الواضحات، ﷺ، وعلى صاحبه أبي بكر الناهض يوم الرّدة على أقدام الثبات، القائم بنصر الإسلام وقد قعد أهل العزّات، القائل: أقاتلهم ولو لم أجد غير البنات، وعلى عمر العادل في القضايا، كان إذا مشى فرّق الشيطان من تلك الخطوات، وعلى عثمان المتهدج بالقرآن في الظلمات، الصابر على الشهادة بأيدي العداة، وعلى عليّ ذي المناقب العاليات، المخصوص بأخوة الرسول دون ذوي القرابات، وعلى عمه العباس الذي بالسؤال به سالت عزالي السحب الماطرات.

أيها الناس: إن شهركم هذا قد انتصف، فهل فيكم من قهر نفسه وانتصف، وهل فيكم من قام فيه بما عرف، وهل تشوّقت هممكم إلى نيل الشرف، أيها المحسن فيما مضى منه دم، وأيها المسيء وبّخ نفسك على التفریط ولم، إذا خسرت في هذا الشهر متى تريح، وإذا لم تسافر فيه نحو الفوائد فمتى تبرح. كان قتادة يقول: كان يقال من لم يُغفر له في رمضان فلن يُغفر له!

أخبرنا أبو بكر بن أبي طاهر البزار بسنده عن سلمة بن وردان قال: سمعت أنس بن مالك يقول: ارتقى سيدنا رسول الله ﷺ المنبر فقال: آمين، ثم ارتقى ثانية فقال آمين. ثم استوى عليه، فقال آمين. فقال أصحابه: علام أمنت يا رسول الله؟ فقال: أتاني جبريل فقال: يا محمد رَغِمَ أنف امرئ أدرك والديه، أو أحدهما، فلم يُدْخلاه الجنة. فقلت: آمين. ثم قال: رَغِمَ أنف امرئ أدرك شهرَ رمضان، فلم يُغفر له. فقلت: آمين.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «هذا رمضان قد جاء، تفتح فيه أبواب الجنات وتغلق فيه أبواب النار، وتغلّ فيه الشياطين بعد امرؤ أدرك رمضان لم يغفر له، إذا لم يغفر له فمتى؟!».

وبالإسناد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: رَغِمَ أنف رجل دخل عليه رمضان، ثم انسلخ قبل أن يُغفر له.

إذا الروضُ أمسى مُجذباً في ربيعهِ ففسي أيّ حينٍ يَسْتَنيرُ ويُخْصِبُ

أخبرنا عبد الله بن علي المقرئ بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « إن أمتي لن يجزوا أبداً ما أقاموا شهر رمضان. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله وما خزيهم؟ قال: من إضاعتهم شهر رمضان بانتهاك المحارم، فمن عمل سوءاً، أو زنى، أو سرق، فلن يقبل منه شهر رمضان، ولعنه الله عز وجل والملائكة إلى مثلها من الحول، فإن مات قبل شهر رمضان فليستبشر بالنار، فاتقوا شهر رمضان، فإن الحسنات تضاعف فيه، وكذلك السيئات. »

عباد الله إن شهركم هذا لا قيمة له، ولا يمكن استدراك ما ضاع بالتفريط.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي بسنده عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: « من أفطر يوماً من رمضان من غير مرض، ولا رخصة لم يقض عنه صيام الدهر كله وإن صامه. »

قال يحيى بن معين: أبو المطوس اسمه عبد الله بن المطوس ثقة.

وذكر أبو بكر الآجري في كتاب النصيحة أن مذهب إبراهيم النخعي أن من شرب الخمر في رمضان كان عليه صوم ثلاثة آلاف يوم.

قال: وقال سعيد بن المسيب: عليه صوم شهر متتابع. وقال الربيع ابن أبي ربيعة بن عبد الرحمن: عليه صيام إثني عشر يوماً، لأن الله أوجب صيام شهر من إثني عشر شهر.

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: كل عمل ابن آدم يضاعف: الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضِعْف إلى ما شاء الله، يقول الله عز وجل: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشهوته من أجلي، وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخُلُوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك. « الصوم جنة. »

أخرجاه في الصحيحين.

عباد الله: فرحة الحِسِّ عند الإفطار تناول الطعام، وفرحة الايمان بالتوفيق

يا هذا قدّم دستور الحساب قبل الغروب، فإن وجدت خللاً فأرّقه برقة استغفار، فإذا جاء السحر فاعقد عقْد الزُّهد في الدنيا عند نية الصوم، وتجرّع جرّعة دمة في إناء ركعة لعلك تطلّع على خبايا خفايا ما أعد للصائمين من مستور ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قُرّة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ (١).

الكلام على البسمة

قل للمؤمّل إن الموت في أترك وليس يخفى عليك الأمر من نظرك
 فيمن مضى لك إن فكّرت معتبر ومن يمّت كل يوم فهو من نُذرك
 دارّ تسافر عنها من غدٍ سفيراً فلا تؤوب إذا سافرت من سفرك
 تُضحى غداً سمرّاً للذاكرين كما كان الذين مضوا بالأمس من سمرِك

يا مضيع الزمان فيما ينقص الإيمان، ما أراك في رمضان إلا كجأدى وشعبان، أما يشوقك إلى الخير ما يشوق، أما يعوقك عن الضيّر ما يعوق، متى تصير سابقاً يا مسبوق، إلى متى سوق الشوق إلى سوق الفسوق، أول الهوى سهل، ثم تتخرق الخروق، كلما حصد نباته بمنجل الصبر أخرجت العروق، وإن لذيذ شربه فشربه شجى في الخلق، وإنما لذات الدنيا كخطف البروق، ميّز بين ما يفنى وما يبقى ترّ الفروق، خلّ التواني إن شئت أن تفوق، عليك حافظ وضابط، ليس بناسٍ ولا غالط، يكتب الكلمات السواقط، وأنت في ليل الحدّث خابط، تتعرض في الصباح والمساء للمساخط، يا من قد شاب إلى كم تغالط، لا بد لليل من فجر منير كاشط، كيف ينهض للعب واللهو الأشاميط، ماذا بقي، وهذا الشيبُ واخط، أما تستحي وأنت في الإثم وارط، ياقاعداً عند التقي وهو في الهوى ناشط، كلما رفعت لم تردّ إلا المهابط، تيقظ لنفسك فقد مضى الفارط، وابك على ذنبك ويكفي الفارط، أصلح ما بقي، وأقبل من الوسائط،

جاهدُ هواك في الدنيا فالفخر للمرابط، انظر لمن تعاشر واعرف لمن تخالط، احذر جزاء القِسْط عليك يا قاسِط، لا تغترر بالسلامة، فرما قبض الباسط، في لنا بالشروط ونحن نفى بالشرائط، ذكر نفسك بالموت ذاك الشديد الضاغط، إذا تحيَّرت في الأمور وزال الجأش الرابط، لا تنفع الأقارب، ولا تدفع الأراهِط، ونفس النَّفس يخرج من سَمِّ إبرة خائط.

باع قومٌ جاريةً قبيل رمضان، فلما حصلت عند المشتري قال لها: هيئي لنا ما يصلح للصوم. فقالت: لقد كنت قبلكم لقوم كل زمانهم رمضان!

لله در أقوام تفكروا فأبصروا، ولاحت لهم الغاية فما قصَّروا، وجعلوا الليل رَوْحَ قلوبهم والصيام غذاء أبدانهم، والصدِّق عادة ألسنتهم والموت نُصَبَ أعينهم.

كتب رجل إلى داود الطائي: عِظْني. فكتب إليه: أمّا بعد فاجعل الدنيا كيومٍ صُمِّتته عن شهوتك، واجعل فطرك الموت، فكأن قد صرت إليه. فكتب إليه: زدني. فكتب إليه: أمّا بعد فارض من الدنيا باليسير مع سلامة دينك، كما رضي أقوامٌ بالكثير مع ذهاب دينهم. والسلام.

كان داود الطائي قد ورث من أبيه عشرين ديناراً، فأنفقها في عشرين سنة. وكان جالساً في داره، فإذا وقع سقفٌ تقدّم إلى موضع آخر إلى أن بقي دهليز الدار، فهات فيه، وتحت رأسه لينة، فدخل عليه ابن السماك فقال: اليوم ترى ثواب ما كنت تعمل!

ورآه بعض أصحابه في المنام فقال له: أوصني. فقال: داوِ قُروح باطنك بالجوع، واقطع مَقاوِرَ الدنيا بالأحزان، وآثر حُبَّ الله على هواك ولا تبال متي تلقاه.

طوبى لعبدٍ بالغٍ في حِذاره، واحتقر بكفِّ فِكْره قَبْره قبل احتفاره، وانتهبَ زمانه بأيدي بِدّاره، وأعدّر في الأمر قبل شَيْب عِذاره، ولم يرض في زاده

بتقليله واختصاره، ورأى عَيْبَ الهوى فلم يَصْطَلْ بناه، ودافع الشهواتِ وصابر
 المكاره، إنْ بحث عنه رأيتَه صائِمَ نهاره، وإن سألت عن ليله فقائم أسحاره،
 وإن تلمَّحْتَه فالزفير في إصعاده والدمع في انحداره، ولا يتناول من الدنيا إلا
 قَدْر اضطراره، باعها فاشترى بها ما يبقى باختياره، هل فيكم متشبهٌ بهذا أو
 على نِجَارِه؟

ياحُسْنُه ومصابيح النجوم تُزهر والناس قد ناموا، وهو في الخير يَسْهَر، غسل
 وجهه من ماء عينه وعَيْنَ العَيْنِ أَطهر، فلما قَضَى وِرْدَ الدَّجَى، جلس يتفكَّر،
 فخطر على قلبه كيف يموت وكيف يُفبر، وتصور صحائفه كيف تُطوى وكيف
 تُنشر، فهام قلبه في بَوَادِي القلق وتخيَّر، فطلَّق الدنيا ثلاثاً، وهل يُستوطن
 مَعَبَر.

طوى مُدَّةً من دهره دار زخرفٍ إلى أبدٍ ذي سُندسٍ وحريِرٍ
 ألا تلكم الدار التي حلَّ أهلُها بناءً عن الخطبِ المخوفِ شطيرٍ
 لهم ما اشتهوا فيها مسوقاً إليهم مقوداً إذا شاءوا بغير جَريرٍ

الكلام على قوله تعالى:

﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ (١)

إخواني: استدركوا باقي الشهر، فإنه أشرف أوقات الدهر، واحصروا
 النفوسَ عن هواها بالقَهْر، وقد سمعت بالحُور العين فاهتموا بالمَهْر.

أخبرنا أبو منصور القزَّاز بسنده عن ثابت، عن أنس بن مالك عن النبي
 ﷺ قال: «أفضلُ الصدقةِ صدقةُ رمضان».

عباد الله: اعلّموا أن النصف الأخير أفضل من الأول، لأن فيه العشرَ وليلة
 القدر، والأعمال تُضاعف بشرف وقتها ومكانها.

(١) البقرة ١٨٥.

قد بَلَغَ الشَّهْرُ إِلَى نِصْفِهِ وليس عَنِّي الشَّهْرُ بِالرَّاضِي
ظَلَمْتُ صَوْمَ الشَّهْرِ فِي حَقِّهِ يا وَيْلَتَا إِنْ عَدَلَ الْقَاضِي
أَتْرَى صَحَّ لَكَ صَوْمَ يَوْمٍ، أَتْرَى تَسَلَّمُ فِي شَهْرِكَ مِنْ لَوْمٍ، أَتْرَى لِفَيْكَ
خَلُوقَ أُمَّ فَيْكَ خَلَّاقٍ، مِنْ فَطَّرَ صَائِماً فَلَهُ أَجْرٌ صَائِماً، فَاجْتَهِدْ أَنْ تَصُونَ
رَمَضَانَ سِتِينَ يَوْماً.

أَيُّهَا الرَّاقِدُ عَنْ نُهْزَتِهِ مَا يَرُوعُ السَّيْفُ حَتَّى يُشْهَرَا
وَأَبِي الْمَجْدِ لَقَدْ فَازَ بِهِ سَالِكٌ فِيهِ الطَّرِيقَ الْأَوْعَرَا
إِنَّمَا أَنْتَ ضَيْفٌ أَصْبَحْتَ فِي مَتْرَكٍ، وَمَا فِي يَدَيْكَ وَدِيعَةٌ عِنْدَكَ، وَيُوشِكُ
الضَيْفُ أَنْ يَرْتَحِلَ، وَالْوَدِيعَةُ أَنْ تُرَدَّ. إِيَّاكَ عَلَى نَفْسِكَ أَيَّامَ الْحَيَاةِ بَكَاءٍ مِنْ وَدَّعِ
الدُّنْيَا:

قَدْ كَشَفَ الدَّهْرُ عَنِّي قِنَاعَ شَكِّي فِي كُلِّ شَيْءٍ
لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَحُلَّ مَوْتٌ عَقْدَةَ نَفْسِي مِنْ كُلِّ حَيٍّ

مَتَى تَتَّبِعُ أَوْصَافَ الْإِنْصَافِ، إِلَى مَتَى تَرَضِعُ أَخْلَافَ الْخِلَافِ، أَيَقْظُكُ
الدَّهْرُ وَأُرْشِدُكَ الْوَعْظَ فَهَمَّتْ، وَحَدَّثَكَ الْمَوْتَ فَمَا فَهَمَّتْ، أَلَبَّ حَبَّ الدُّنْيَا
بُلْبُكُ، وَأَقْلَبَ هَوَاهَا مُسْتَقِيمَ قَلْبِكَ، كَمْ نَوَقِظُ عَقْلَكَ سَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ. وَهُوَ لَا
يَزْدَادُ إِلَّا رُقَادًا، وَسِنَةٌ، كَمْ نَرْمِي هَدَفَ سَمْعِكَ بَرَشَقِ كَلَامٍ لَمْ يَلْدَعْ أَصْلَ قَلْبِكَ
بِحَبِّهِ مَلَامٌ:

عَيْنُ الْمَنِيَةِ يَقْظِي غَيْرَ مُطْرَقَةٍ وَطَرْفُ مَطْلُوبِهَا مُذْ كَانَ وَسْنَانُ
جَهْلًا تَمَكَّنَ مِنْهُ حِينَ مَوْلَيْدِهِ وَالنُّطْقُ صَاحٍ وَلُبُّ الْمَرْءِ سَكْرَانُ

لَقِيَ رَاهِبٌ رَاهِبًا فَقَالَ: أَتَرْضَى حَالَتِكَ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا لِلْمَوْتِ؟ قَالَ: لَا.
قَالَ: فَهَلْ عَزَمْتَ عَلَى تَوْبَةٍ مِنْ غَيْرِ تَسْوِيفٍ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَهَلْ تَعْلَمُ دَارًا تَعْمَلُ
فِيهَا سِوَى هَذِهِ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَهَلْ لِلْإِنْسَانِ نَفْسَانُ إِذَا مَاتَتْ وَاحِدَةً عَمِلَ
بِالْآخَرَى؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَهَلْ تَأْمَنُ هَجُومَ الْمَوْتِ عَلَى حَالَتِكَ هَذِهِ؟ قَالَ: لَا.

قال: فما أقام على ما أنت عليه عاقل!

صعد عمر بن عبد العزيز المنبر فقال: إن كنتم على يقين فأنتم حمقى، وإن كنتم في شك فأنتم هلكى. ثم نزل.

ودخل عليه رجل متغير اللون فقال: ما بك؟ قال: أمراض وأعلال. قال: لتصدقني قال: ذقت حلاوة الدنيا مرةً.

وهبني كتمت الحق إذ قلت غيره أتخفى على أهل العقول السرائر
أيا ذلك إن السر في الوجه ناطق وإن ضمير القلب في العين ظاهر

قال صالح المري: كان عطاء السلمي قد اجتهد حتى انقطع، فقلت له يوماً: إني مكرمك بكرامة فلا تردّ كرامتي. فبعثت إليه شربة من سويق مع ولدي، وقلت له: لا تبرح حتى يشربها. فجاء فقال: قد شربها. فبعثت له في اليوم الثاني مثلاً، فجاء فقال: ما شربها. فأتيت إليه فلمته وقلت: ردّدت عليّ كرامتي، وهذا يقويك على العبادة. فقال: يا أبا بشر لقد شربتها في أول يوم، واجتهدت في اليوم الثاني فلم أقدر، كلما هممت بشربها ذكرت قوله تعالى: ﴿وطعاماً ذاغصة﴾^(١) قال: فقلت: أنا في وادٍ، وأنت في وادٍ!

أطلت وعنفتني يا عدّول بليت فدعني حديثي طويل
هواي هوى باطن ظاهر قديم حديث لطيف جليل
ألا مالذا الليل لا ينقضي كذا ليل كلّ محبّ طويل
أبيت أساهر نجم الدجى إلى الصبح وحدي ودمعي يسيل

لله درّ تلك القلوب الطاهرة، أنوارها في ظلام الدجى ظاهرة، رفضت حلية الدنيا وإن كانت فاخرة، كم تركت شهوةً وهي عليها قادرة، باتت عيونها والناس نيام ساهرة، زفرات الخوف تثير سحابّ الأجفان الماطرة، يتدّبون على الذنوب، وإن كانت نادرة، كم بينك وبينهم يا بائع الآخرة، شيب وعيب أمثال

(١) المزمّل ١٣.

سائرة، أملّ مع هَرَم هذه نادرة، كم أقوام أمَلّوا هذا الشهر فخاب الأمل، أين هم خلّوا في الأُلحاد بالعمل، تالله إن نسيان النّقل في العقل خلل، أما يكفي زَجَر المقيم بمن رحل :

كُلُّ حَيٍّ فَقْصَارَاهُ الْأَجَلُ	ليس للخلق بهذا الموت قبل
نُوبٌ قُلْنِ لِعَادِ قَبْلُنَا	آن من ذات العباد المرتحل
وَاسْتَوَى مِنْ ذَلِكَ الشَّرْبُ الَّذِي	صار علّاً لسواهم ونهل
أَلْبَسَتْ نَاساً سِوَاهُمْ حَلِيهِمْ	ثم بزّته فراحوا بالعطل
فَكَأَنَّ الدَّهْرَ لَمْ يَجْمَعْ لَهُمْ	رغدة العيش وإعزاز الدؤل
فَسَأَلَ الْإِيوَانَ عَنْ أَرْبَابِهِ	كيف حلّت بهم تلك الرحل
نَقَلْتَهُمْ عَنْ فِضَاءٍ وَاسِعٍ	يسرح الطرفُ به حتى يملّ
نَحْنُ أَعْرَاضُ خُطُوبٍ إِنْ رَمَتْ	عادت الأذراع لينا كالحلّل
وَإِذَا مَا اخْتَلَفَتْ أَسْهُمُهَا	فأصابت بطلّ القوم بطلّ

يا من عمره قد وهى في سلك الهوى فهو متهافت، متى تستدرك في هذه البقية بالتقية الفائت، متى يشبع النوم فتجتمع الموم الشتائت، أيها المريض البالي وما يبالي بوصف ناعت، إلى متى أنت بالعيوب إلى علام الغيوب متماقت، متعرض صباحاً للساخط ومساء للماقت، وتعمل بالأغراض في الإعراض عمل العفارت، يا متكلماً في ضرّه فأما في نفعه فساكت، كلما نقص أجله زاد أمله، وهذا متفاوت، أما رأيت المنايا تحصد المنى في المنابت، كم مقهقه رجع القهقري إلى حزن باكت، كأنك بالموت إذ ثوى قد فزّع الثوابت، ونزل بك إذ نزل بك إلى حيرة باهت، يا جاهلاً قد عُرّ، لقد سرّ بفعلك الشامت :

كَأَنَّكَ بِالْمَاضِيِّ إِلَى سَبِيلِكَ	وقد جدّ المجهز في رحيلك
وَجِيءٌ بِغَسَائِلٍ فَاسْتَعْجَلُوهُ	بقولهم له افرغ من غسيلك
وَلَمْ تَحْمَلْ سِوَى خِرْقٍ وَقُطْنٍ	إلهم من كثيرك، أو قليلك
وَقَدْ مَدَّ الرِّجَالَ إِلَيْكَ نَعْشاً	فأنت عليه مُمتدّاً بطولك

وَصَلُّوا ثُمَّ إِنَّهُمْ تَدَاعَوْا
فَلَمَّا أَسْلَكُوكَ نَزَلَتْ قَبْرًا
أَعَانِكَ يَوْمَ تَدْخُلُهُ رَحِيمٌ
فَسَوْفَ تَجَاوِرُ الْمَوْتَى طَوِيلًا
أَخِي إِنِّي نَصَحْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِي
أَلَسْتَ تَرَى الْمَنَائِمَا كُلَّ يَوْمٍ
بِحَمْلِكَ فِي بُكُورِكَ أَوْ أُصَيْلِكَ
وَمَنْ لَكَ بِالسَّلَامَةِ فِي نُزُولِكَ
رُءُوفًا بِالْعِبَادِ عَلَى دُخُولِكَ
فَدَعْنِي مِنْ قَصِيرِكَ أَوْ طَوِيلِكَ
وَبِاللَّهِ اسْتَعْنْتُ عَلَى قَبُولِكَ
تُصَيِّبُكَ فِي أَخِيكَ وَفِي خَلِيلِكَ

إخواني: هذه أيام تُصَان، هي كالتاج على رأس الزمان، وصل توقيع القِدَم من الرحيم الرحمن ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾.

ياله من وقت عظيم الشأن تجب حراسته، مما إذا حَلَّ شان، كأنكم به قد رحل، وبأن ووجه الصَّلح ما بان ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾.

من اللازم فيه أن تُحرس العينان، ومن الواجب أن يحفظ اللسان، ومن المتعين أن تُمنع من الخطى في الخطأ القدمان ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾.

زِنُوا أفعالكم في هذا الشهر بميزان، واشتروا خلاصكم بما عَزَّ وهان، فإن عجزتم فسَلُّوا المَعِين وقد أعان ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾.

قد ذهب نصف البضاعة في التفريط والإضاعة، والتسويق يَمُحِق ساعةً بعد ساعة، والشمس والقمر بحسبان ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾.

يا واقفًا في مقام التحير هل أنت على عَزْم التغيير؟ إلى متى ترضى بالنزول في منزل الهوان. هل مضى من يومك يومٌ صالح سلِمْتَ فيه من جرائم القبائح، تالله لقد سبق المتقي الرابع وأنت راضٍ بالخسران. عينك مُطلقة في الحرام، ولسانك منبسط في الآثام، ولأقدامك على الذنوب إقدام، والكلُّ مُثبِت في الديوان. قلبك غائب في صلواتك وفكرك ينقضي في شهواتك، فإن رَكَن إليك معاملٌ في معاملاتك دخلت به خانَ من خان أكثر كلامك لغو وهذر، والوقت بالتفريط شذَر مَذَر،

وإن اغتبت مسلماً لم تُبْق ولم تَدْر، الأمان منك الأمان. تالله لو عقلت
حالك، أو ذكرت ارتحالك، أو تصوّرت أعمالك لبنيت بيت الأحزان. سيشهد
رمضان عليك بنطق لسانك ونظر عينيك، وسيشار يوم الجمع إليك شقي فلان،
وسعد فلان. في كل لحظة تُقَرَّب من قبرك، فانظر لنفسك في تدبير أمرك، وما
أراك إلا كأول شهرك، الأول والآخر سيّان، قد ذهب من الشهر النصف وما
أرى من عمك النصف، فإن كان في الماضي قد قبّح الوصف، فقم الآن.

والحمد لله وحده.

المجلس الثامن

في ذكر العَشرِ و ليلة القدر

الحمد لله عالم السر والجهر، وقاصم الجبابرة بالعز والقهر، مُحْصِي قطرات الماء وهو يجري في النهر، فضَّل بعض المخلوقات على بعض حتى أوقات الدهر ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (١). فهو المتفرد بإيجاد خلقه المتوحد بإدراار رزقه، القديم فالسَّبْق لسببه، الكريم فما قام مخلوقٌ بحقه، عالم بسر العبد و سامع نطقه، ومقدّر علمه وعمله وعمره، وفعله، وخلقُه، ومجازيه على عيبه وذنبه وكذبه وصدقه، المالك القهَّار، فالكل في أسر رقه، الحليم الستار، فالخلق في ظل رفقهِ، أرسل السحاب تُخاف صواعقه ويُطمع في ودِّقهِ، يزعج القلوب رَواعده ويكاد سنا بَرِّقهِ، جعل الشمس سراجاً والقمر نوراً بين غربه وشرقه.

أحمده على الهدى وتسهيل طرقه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في رتقهِ وفتقه، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله والضلال عامٌ فمحاها بمحقه، صلى الله عليه وعلى آله وصاحبه أبي بكر السابق بصدقه، وعلى عمر كاسر كِسْرَى بتدبيره وحذقه، وعلى عثمان جامع القرآن بعد تبديده في رتقهِ، وعلى عليّ واعدرونا في عشقه، وعلى عبيد العباس مشاركته في أصله وعرقه.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (٢). الهاء في ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ كناية عن القرآن، وذلك أنه أنزل جملة في تلك الليلة إلى بيت العزة، وهو بيت في السماء الدنيا.

(٢) القدر ١.

(١) القدر ٣

وفي تسميتها بليلة القدر خمسة أقوال :

أحدها: أنها ليلة العظيمة، يقال: لفلان قَدْر. قاله الزُّهْرِيُّ. ويشهد له: ﴿وما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (١).

والثاني: أنه الضيق. أي هي ليلة تضيق فيها الأرض عن الملائكة الذين ينزلون. قاله الخليل بن أحمد ويشهد له: ﴿ومن قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ (٢).

والثالث: أن القدر الحُكْمُ كأن الأشياء تقدر فيها. قاله ابن قتيبة.

والرابع: لأن من لم يكن له قَدْرٌ صار بمراعاتها ذا قَدْرٍ. قاله أبو بكر الورَّاق.

والخامس: لأنه نزل فيها كتاب ذو قَدْرٍ، وينزل فيها رحمة ذات قَدْرٍ، وملائكة ذوو قَدْرٍ. حكاها شيخنا علي بن عبيد الله.

قوله تعالى: ﴿وما أدراك ما ليلةُ القدر﴾ (٣) هذا على سبيل التعظيم لها والتشويق إلى خبرها.

في قوله تعالى: ﴿ليلةُ القدرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ قولان:

أحدهما: أنها من زمان بني إسرائيل، ثم في ذلك قولان: **أحدهما:** ما رواه عطاء، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ ذكر له رجل من بني إسرائيل حمل السلاح على عاتقه ألف شهر، فعجب رسول الله ﷺ لذلك وتمنى أن يكون ذلك في أمته، فأعطاه الله تعالى ليلة القدر، وقال: هي خير من ألف شهر التي حمل فيها الإسرائيلي السلاح في سبيل الله،

والثاني: أن الرجل كان فيما مضى لا يستحق أن يقال له عابد حتى يعبد الله ألف شهر، فجعل الله ليلة القدر خيراً من ألف شهر التي كانوا يعبدون فيها.

(٣) القدر ٢.

(١) سورة الزمر ٦٧.

(٢) سورة الطلاق ٧.

والقول الثاني: أن الألف شهر من هذا الزمان. قال مجاهد: قيامها والعمل فيها خير من قيام ألف شهر من هذا الزمان وصيامها ليس فيها ليلة القدر. وهذا قول قتادة واختيار الفراء وابن قتيبة والزجاج.

قوله تعالى: ﴿تَنْزَلَ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحَ﴾^(١) قال أبو هريرة: الملائكة ليلة القدر في الأرض أكثر من عدد الحصى.

وفي الروح ثلاثة أقوال: أحدها: أنه جبريل. قاله الأكثرون. وفي حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل في كُتُبِكَة من الملائكة يصلون ويسلمون على كل عبد قائم، أو قاعد يذكر الله عز وجل.

والثاني: أن الروح طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة، إلا تلك الليلة، ينزلون من لَدُنْ غروب الشمس إلى طلوع الفجر. قاله كعب ومقاتل بن حيان.

والثالث أنه ملك عظيم من الملائكة. قاله الواقدي.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ أي في ليلة القدر. قوله عز وجل: ﴿يَاذُنْ رَبِّهِمْ﴾ أي بأمر ربهم والمعنى: ما أمر به وقضاه. ﴿من كل أمر﴾ قال ابن قتيبة: أي بكل أمر. قال المفسرون: ينزلون بكل أمر قضاه الله تعالى في تلك السنة إلى قابل.

قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ أي ليلة القدر سَلَامٌ. وفي معنى السلام قولان: أحدهما: أنه لا يحدث فيها داء، ولا يُرْسَل فيها شيطان. قاله مجاهد.

والثاني: أن معنى السلام الخير والبركة. قاله قتادة.

واعلم أن ليلة القدر باقية إلى يوم القيامة. قال أبو ذر رضي الله عنه: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أخبرني عن ليلة القدر في رمضان هي، أو في غيره؟ قال: بل هي في رمضان. قلت: تكون مع الأنبياء ما كانوا، فإذا قُبِضُوا رفعت، أم هي إلى يوم القيامة؟ قال: بل هي إلى يوم القيامة. قلت: في

(١) القدر ٤.

أي رمضان هي؟ قال: التمسوها في العشر الأول، والعشر الآخر. قلت: في أيّ العشرين هي؟ قال: ابتغوها في العشر الأواخر، لا تسألني عن شيء بعد. ثم حدثت وحدثت فقلت: يا رسول الله أقسمت عليك بحقّي عليك لما أخبرتني في أيّ العشر هي؟ فغضب عليّ غضباً لم يغضب علي مثله قال: « التمسوها في السبع الأواخر، لا تسألني عن شيء بعدها ».

وقد ذهب قوم إلى أنها ليلة سبع عشرة من رمضان.

أنبأنا عبد الوهاب بن المبارك بسنده عن زيد بن أرقم أنه سُئِلَ عن ليلة القدر فقال: هي ليلة سبع عشرة لا شك فيها. ثم قال: ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان.

واعلم أن الجمهور على أنها في العشر الأواخر، وأنها تختص بالأفراد، واختلفوا في الأخص بها، فذهب الشافعي رحمه الله إلى ليلة إحدى وعشرين، ويدل عليه حديث أبي سعيد، وهو في الصحيحين قال: أري رسول الله ﷺ ليلة القدر، ثم أنسيها قال: أراني أسجد في ماء وطين. فوالذي أكرمه لرأيته يصلي بنا صلاة المغرب ليلة إحدى وعشرين، وإن جبهته وأرنبة أنفه لفي الماء والطين.

والثاني: ليلة ثلاث وعشرين. وروى مسلم في أفراده من حديث عبد الله بن أنس، عن النبي ﷺ أنه قال: « أراني صبيحتها أسجد في ماء وطين » فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين، فصلى بنا رسول الله ﷺ، وإن أثر الماء والطين على جبهته وأنفه.

وأخبرنا ابن الحصين بسنده عن عكرمة قال: قال ابن عباس: أتيت وأنا نائم فقيل لي: إن الليلة ليلة القدر. فقمتم، وأنا ناعس فتعلقت ببعض أطناب فسُطِط رسول الله ﷺ، فأتيت رسول الله ﷺ، فإذا هو يصلي فنظرت في تلك الليلة، فإذا هي ليلة ثلاث وعشرين.

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان ينضح الماء في وجوه نسائه ليلة ثلاث وعشرين من رمضان.

تفرد بإخراجه أبو بجر .

والثالث: ليلة خمس وعشرين، وروى هذا المعنى أبو بكر، عن رسول الله

ﷺ .

والرابع: ليلة سبع وعشرين أخبرنا ابن الحصين بسنده عن ابن عمر رضي

الله عنها قال: قال رسول الله ﷺ: « من كان متحرراً فليتحربها ليلة سبع وعشرين . أو قال: تحربوها ليلة سبع وعشرين .

انفرد بإخراجه مسلم .

أخبرنا ابن ناصر بسنده عن زرّ بن حبيش قال: أخبرنا أبي بن كعب عن ليلة القدر، فحلف لا يستثني أنها ليلة سبع وعشرين . فقلت: بم تقول ذلك يا أبا المنذر؟ فقال: بالآية، أو بالعلامة التي قال رسول الله ﷺ: أنها تصبح من ذلك اليوم تطلع الشمس وليس لها شعاع . أخبرنا ابن الحصين بسنده عن عاصم عن زرّ قال: قلت لأبي بن كعب: أبا المنذر أخبرني عن ليلة القدر . قال: صاحبنا يعني ابن مسعود رضي الله عنه كان إذا سُئِلَ عنها قال: من يقيم الحول يصبها . فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن، أما والله لقد علم أنها في رمضان، ولكن أحب أن لا تتكلموا وأنها ليلة سبع وعشرين لم يستثن قلت: أبا المنذر أتى أعلم ذلك؟ قال: بالآية التي قال لنا رسول الله ﷺ: صبيحة ليلة القدر تطلع الشمس، لا شعاع لها كأنها طست حتى ترتفع .

لفظ المقدمي . قال ابن ناصر: عالٍ صحيح .

أخبرنا علي بن عبيد الله بسنده عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً أتى نبي الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني شيخ كبير يشقّ علي القيام فمرّني بليلة لعل الله عز وجل أن يوفقني فيها لليلة القدر: فقال: عليك بالسابعة .

أخبرنا أبو منصور القزاز بسنده عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: « ليلة القدر ليلة سبع وعشرين » .

وهذا مذهب عليّ عليه السلام، وابن عباس رضي الله عنهما. وقد روي عن ابن عباس أنه استدل على ذلك بشيئين:

أحدهما: أن السبعة تتكرر في المخلوقات، فالأرض سبع.

والثاني: أن قوله «هي» هي الكلمة السابعة والعشرون. وقال عبدة بن أبي لبابة: دُقَّتْ ماء البحر ليلة سبع وعشرين فوجدته عَذْبًا.

واستدل بعضهم بأن ليلة القدر تكررت في هذه السورة ثلاث مرات وهي تسعة أحرف، والتسعة إذا كُرِّرَتْ ثلاثاً كانت سبعة وعشرين.

والخامس: مشكوك فيه. أخبرنا ابن الحصين بسنده عن أنس، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وهو يريد أن يخبرنا بليلة القدر فتلاحي رجلان، فقال رسول الله ﷺ: «خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحي رجلان فرُفِعَتْ، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة، أو السابعة، أو الخامسة».

انفرد بإخراجه البخاري.

قال أحمد: وحدثنا حيوة، عن ابن شريح، عن بقيقة، عن بجير بن معدان، عن عبادة بن الصامت، أن رسول الله ﷺ قال: ليلة القدر في العشر البواقي من قامهن ابتغاء حسبتهن، فإن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهي ليلة وتر تسع أو سبع، أو خامسة، أو ثالثة، أو آخر ليلة.

وقال رسول الله ﷺ: «إن أماراة ليلة القدر أنها صافية كأن فيها قمراً ساطعاً ساكنة صاحية لا برّد فيها، ولا حرّ، ولا يجلّ لكوكب أن يرمتي به حتى يُصْبِح، وإن أمارتها أن صبيحتها تخرج مُستوية ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر، لا يجلّ للشيطان أن يخرج معها يومئذ».

قال أحمد: وأخبرنا سليمان بن داود، عن عمران القَطَّان عن قتادة عن أبي ميمونة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر إنها

ليلة سابعة، أو تاسعة وعشرين، إن الملائكة تلك الليلة أكثر من عدد الحصى.

أخبرنا محمد بن عبد الله القاضي، ويحيى بن علي المديري بسندهما عن حميد عن الحسن أن رسول الله ﷺ قال: «اطلبوا ليلة القدر في العشر الأواخر التاسعة والسابعة والخامسة وآخر ليلة، وهي ليلة بلجة لا حارة ولا باردة، ولا يُرمى فيها بنجم ولا ينبج فيها كلب».

أخبرنا الكروخي بسنده عن ابن عيينة بن عبد الرحمن قال: حدثني أبي قال: ذكرت ليلة القدر عند أبي بكره فقال: ما أنا بملتسمها لشيء سمعته من رسول الله ﷺ، إلا في العشر الأواخر، فإني سمعته يقول: «التمسوها في تسع بقين أو سبع بقين، أو خمس بقين، أو ثلاث بقين أو آخر ليلة».

قال الترمذي: وأخبرنا عبد بن حميد، عن عبد الرزاق عن معمر، عن أيوب، عن أبي قلابة أنه قال: ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر.

وقد روي عن مجاهد قال: ليلة القدر ليلة أربع وعشرين أخذه من حديث واثلة بن الأسقع، عن النبي ﷺ قال: أنزلت التوراة لست مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل الفرقان لأربع وعشرين خلت من رمضان.

وقال سعيد بن جبير: كنا مع ابن عباس في المسجد الحرام، فخفق رأسه خفقة فقال: أي ليلة هذه؟ قلنا ليلة أربع وعشرين. قال: الليلة ليلة القدر، لأن الملائكة نزلوا من السماء، وعليهم ثياب بيض.

قلت: والحكمة في إخفائها أن يتحقق اجتهاد الطالب، كما أخفيت ساعة الليل وساعة الجمعة. وقد كان النبي ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره كان يسهر ليلة ويحمل كفه فيشد مئزره ويقوم الليل كله.

وقد أخبرنا أبو عبد الله السلال بسنده عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر».

أخبرنا محمد بن عبد الباقي البزار بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت :
كان رسول الله ﷺ في العشر الأواخر من رمضان يُحْيِي الليل كله ، ويوقظ
أهله ويشد المِئزرَ .

أخرجاه في الصحيحين .

وفي أفراد مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ
يُجْتَهِد في العَشر ما لا يُجْتَهِد في غيره .

وفي الصحيحين من حديثها قالت : كان رسول الله ﷺ يعتكف العَشر
الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل . وأخرجاه من حديث ابن عمر
أيضاً قال : اعتكف رسول الله ﷺ العَشر الأول من رمضان ، فأتاه جبريل عليه
السلام فقال : إن الذي تطلب أمامك .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « من قام ليلة
القدر إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه » .

وكذلك في حديث عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ : « غُفِرَ له ما
تقدم من ذنبه وما تأخر » .

قالت عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله إذا وافقت ليلة القدر فما أدعو ؟
فقال : « قولي : اللهم إنك عفوٌ تحب العفو فاعف عني » .

وقد كان السلف يتأهبون لها . فكان لَتَمِيمِ الدارِي حَلَّةٌ بألف درهم يلبسها في
الليلة التي يُرْجَى أنها ليلة القدر . وكان ثابت وحميد يغتسلان ويتطيبان ويلبسان
أحسن ثيابهما ، ويتطيبان مساجدهما في الليلة التي تُرْجَى فيها ليلة القدر .

إخواني : والله ما يَعلُو في طلبها عَشر ، لا والله ولا شَهر ، لا والله ولا دَهر .
فاجتهدوا في الطلب ، فرب مجتهد أصاب .

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن قتادة ، عن أنس رضي الله عنها قال : لما

دخل رمضان قال رسول الله ﷺ « إن هذا الشهر قد دخل عليكم فيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرّمها فقد حرم الخير كله، ولا يحرم خيرها إلا كل محروم ».

الكلام على البسملة

أَكْذَحَ لِنَفْسِكَ قَبْلَ الْمَوْتِ فِي مَهْلٍ
 إِنْ الْمَتِيَّةُ مَوْرُودٌ مِنْ أَهْلِهَا
 وَفِي اللَّيَالِي وَفِي الْأَيَّامِ تَجْرِبَةٌ
 بَعْدَ الشَّبَابِ يَصِيرُ الصُّلْبُ مُنْحَنِيًّا
 يُفْنِي النُّفُوسَ وَلَا يُبْقِي عَلَى أَحَدٍ
 لِمَسْتَقْبَرٍ وَمِيقَاتٍ مَقْدَرَةٌ
 وَمَنْ تَعَاقَرَهُ الْأَيَّامُ تُبَدِّلُهُ
 خَلَّوْا بِرُوجًا وَأَوْطَانًا مَشِيدَةً
 فَيَا لِهَ سَفَرًا بُعْدًا وَمَعْتَرِبًا
 بِمَوْحَشٍ ضَيِّقٍ نَاءٍ مَحَلَّتَهُ
 كَمْ مِنْ مَهِيْبٍ عَظِيمِ الْمَلِكِ مُتَّخِذٍ
 أَضْحَى ذَلِيلًا صَغِيرِ الشَّانِ مَنْفَرِدًا
 وَقَبْلَكَ النَّاسُ قَدْ عَاشَوْا وَقَدْ هَلَكُوا
 يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ النَّاسِي لِمَصْرَعِهِ
 أَكْذَحَ لِنَفْسِكَ مِنْ دَارٍ تُزَايِلُهَا
 وَلَا تَكُنْ جَاهِلًا فِي الْحَقِّ مُرْتَابًا
 لَا بَدَ مِنْهَا وَلَوْ عُمِّرْتَ أَحْقَابًا
 يَزْدَادُ فِيهَا أَوْلُو الْأَبَابِ أَلْبَابًا
 وَالشَّعْرُ بَعْدَ سَوَادٍ كَانَ قَدْ شَابَا
 لَيْلٌ سَرِيْعٌ وَشَمْسٌ كَرَّهَا دَابَا
 حَتَّى يَعُوْدُ شُهُودُ النَّاسِ غِيَابًا
 بِالْجَارِ جَارًا وَبِالْأَصْحَابِ أَصْحَابَا
 وَمُؤْنِسِينَ وَأَصْهَارًا وَأَنْسَابَا
 كُسَيْتَ مِنْهُ لَطَوْلُ النَّأْيِ أَثْوَابَا
 وَلَيْسَ مِنْ حَلَّةٍ مِنْ غِيْبَةٍ آبَا
 دُونَ السُّرَادِقِ حُرَّاسًا وَحُجَّابَا
 وَمَا يَرَى عِنْدَهُ فِي الْقَبْرِ بَوَّابَا
 فَأَضْرَبَ الْحَيُّ عَنِ ذِي النَّأْيِ إِضْرَابَا
 أَصْبَحْتَ مِمَّا سَتَلَقَى النَّفْسُ هَرَّابَا
 وَلَا تَكُنْ لِلذِّي يُؤْذِيكَ طَلَّابَا

يا من أمله إلى أجله يقوده، أنت على يقين من نيل ما تريده، كم من غصن غَضٍ كسر عوده، كم ملك عاتٍ تفرقت جنوده، لقد طرق الموتُ الغَيْلَ فهلكت أسوده، كم هدَّ الموتُ من جبل، كم رحَّلَ إلى القبور ونقل، فرغ المنازل وأخلى

الحلّل وأعرى في العراء أصحاب الحلّل، ونقض بمعول التلف ركن الأمل، ومحا
من كتاب اللهو سطور الجدّل، وصاح بصوته الهائل: جاء الأجل، لقد غرك من
الأماني لموعها وإنّ أشقى النفوس طمّوعها، إنها الدنيا قد صرّت ضرّوعها، وم
جرّ جريرة ما جنّى جرّوعها، طوبى لنفس طال عنها جوعها، وُصِفَتْ لها الجنة
فاشْتد نُزوعها، تفكرت في تقصيرها فسالت دموعها، ما عندك خبّر مما تحوي
ضلوعها:

أرأيت من داء الصّبابة عائدًا ووجدت في شكوى الغرام مُساعدًا
هيهات ما تَرِد المطالب نائماً عنها ولا تصيل الكواكب قاعدًا
إن جواهر الأشياء يظهرها سبّكها، وإن قلوب الموقنين قد زال شكّها. ياذا
الكسل هذا زمان النشاط، ياذا الأنفة إنّ للتوبيخ ألم السيّاط.

إخواني: راعوا حقّ هذه الأيام مها أمكنكم، واشكروا الذي وهب لكم
السلام ومكّنكم، فكم مؤمّل لم يبلغ ما أمّل، وإن شككت فتلمح جيرانك
وتأمّل، كم من أناس صلوا معكم في أول الشهر التراويح، وأوقدوا في المساجد
طلباً للأجر المصابيح، اقتنصهم قبلّ تمامه الصائد فقهروا، وأسرتهم المصايد
فأسروا، وغمّسهم التلف في بحره فمقلّوا، ولم ينفعهم المال والآمال لما نُقلّوا،
أدارت عليهم المنون رحاها، وحكّ وجوههم الثرى فمحاها، فأعدمتهم صوماً
وفطراً، وزودتهم من الحنوط عطراً، وأصبح كل منهم في اللحد سَطراً، هذا
حالك يا من لا يعقل أمراً، كم تحرّض وما ينفع التحريض، ونعرض لك باللوم
وما يُجدي التعريض، يا من لا ينتبه بالتصريح ولا بالتعريض، يا متعوّصاً ما
يفنى عما يبقى بسّس التعويض، يا مسوداً صحائفه متى يكون التبييض، قد
أمهلناك في الزمان الطويل العريض، كم يقال لك، ولا تقبل، والحرّ تكفيه
الملامة، أمارّة الخير ما تخفى، طرّف الفتى يُخبر عن ضميره، تالله إنّ رائضك
لمتّقّف يَضَع الهناء مواضع النّقب، لو ارعويت لاستويت، لو صحّ منك الهوى
أرشدت للحيل، زايم التائبين وادخل في حزب البكّائين.

وكلّ غريب للغريب نسيب

قال يحيى بن معاذ: يا بن آدم طلبت الدنيا طلب من لا بد له منها، وطلب الآخرة طلب من لا حاجة له إليها، والدنيا قد كُفِّيتُها، وإن لم تطلبها، والآخرة بالطلب منك تنالها، فاعقل شأنك يا بن آدم. حُقَّتِ الجنة بالمكاره، وأنت تكرهها، وحُقَّتِ النار بالشهوات، وأنت تطلبها، فما أنت إلا كالمريض الشديد الداء، إن صبرتْ نفسه على مريض الدواء اكتسبت بالصبر عافية الشفاء، وإن جزعت نفسه مما يلقي طالت به علته:

وفي الشيب ما ينهي الحكيم عن الصِّبَا إذا استوقدت نيرانه في عذاره
وأَيُّ امرئٍ يرجو من العيش غِبْطَةً إذا اصفرَّ منه العودُ بعد اخضراره
ولله في عَرْضِ السمواتِ جَنَّةٍ ولكنها مَحْفُوفَةٌ بالمكاره
أمت نفسك حتى تحيها، فعاقبة الصبر حلوة.

كم صبرَ بشر عن مُشْتَهَى حتى سمع: كُلُّ يا من لم يأكل.

ما مُدَّ سِجَافُ: ﴿نِعَمَ الْعَبْدُ﴾ على قَبَّةِ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾ حتى جُرِّبَ في أمانة ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾.

إن الألم لِيَحْمَدُ إذا كان طريقاً إلى الصحة، وإن الصحة لتُذَمَّ إذا كانت سبيلاً إلى المرض، أي فائدة في لذة ساعة أوقعت غمّاً طويلاً، ما فهم مواعظَ الزمان من أحسن الظنِّ بالايام، إياك أن تسمع كلام الأمل، فإنه غرور محض:

أما ترى الدهر لا يَبْقَى على حال طوراً بأمنٍ وطوراً جا بأوجال
متى بان الفتى قالوا دنا أجلُّ يا هل أرى في الليالي غير آجال
بذلُّ يؤول إلى منع وعافية تجرّ داءً ونكسٌ بعد إبلال
وما سُرِّرتْ بأيام الكمال فما تناقص الشيء إلا عند إقبال
تلقى المخاوف في الدنيا ونأمنها ونطلب العِزَّ في الدنيا بإذلال
وتستذمُّ إلينا كلَّ شارقةٍ وما لها مُبْغِضٌ فينا ولا قالي
لذّاذة لم تُنَلَّ إلا بمؤلة وصحة لم تدم إلا بإعلال

إذا استوطنت السلامة فتذكر العَطَب، وإذا طاب لك الأمن فتفكر في
المخاوف، وإذا لذت لك العافية فلا تنسِ قُرْب السقم، وإن كنت محباً لنفسك
فلا تسيئ إليه بالزلل، إن طالب الدنيا لا ينال منها حظاً إلا بقوت نصيب من
الآخرة.

هل العُمُر إلا ثلاثة أيام: يومٌ انقضى بما فيه، ذهبت لذته وبقيت تبعته،
ويومٌ مُنتظرٌ ليس منه إلا الأمل، ويومٌ أنت فيه قد صاح بك مؤذناً بالرحيل
فاصبر فيه عن الهوى، فإن الصبر إذا وصل إلى المحبوب سهل.

الكلام على قوله تعالى

﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾^(١)

إخواني: إن شهر رمضان قد قُرِبَ رحيله وأزِفَ تحويله، وهو ذاهب عنكم
بأفعالكم وقادِمٌ عليكم غداً بأعمالكم، فياليت شعري ماذا أودعتموه وبأي
الأعمال ودَّعتموه؟ أتراه يرحل حامداً صنيعكم، أو ذامناً تَضْييعكم؟ ما كان
أعظم بركات ساعاته، وما كان أحلى جميع طاعاته، كانت ليالي عتقٍ ومباهاة،
وأوقاته أوقات خدم ومناجاة، ونهاره زمان قُرْبَة ومصافاة، وساعاته أحيان
اجتهاد ومعاناة، فبادروا البقية بالتقية قبل فوات البرِّ، ونزول البرِّية، وتخلَّى
عنك جميع البرِّية.

أين المخلص المتعبد، أين الراهب المتزهد، أين المنقطع المتفرّد، أين العامل
المجوّد، هيهات بقي عبْد الدنيا، ومات السيد، وهلك من خطؤه خطأ وعاش
المتعمّد، وصار مكان الخاشعين كلُّ منافق متمرّد، رحل عنك شهرُ الصيام،
وودَّعك زمان القيام، ولحَّ النصيح وقد لام، أفتشرق شمس الإيقاظ وتنام،
فاستدرك ما قد بقي من الأيام، قد رأيتك توائمت في الأولى والثانية والثالثة، فما
بعد أن دنا الصباح.

(١) القدر ٥.

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال: قال رسول الله ﷺ : « إذا كان آخر يوم من شهر رمضان أعتق فيه مثل جميع ما أعتق » .

أنبأنا زاهر بن طاهر بسنده عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ : « إن لله في كل ليلة من شهر رمضان ستمائة ألف عتيق من النار ، فإذا كان آخر ليلة أعتق بعدد من مضى » .

وقد روينا في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « إذا كانت آخر ليلة من رمضان أعتق الله عز وجل في ذلك اليوم بعدد ما أعتق من أول الشهر إلى آخره » .

وقد كان عبد الرحمن بن الأسود يُحيي ليلة الفطر ويقول: هي ليلة غفلة .
وقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال: « من أحيا ليلتي العيد ، وليلة النصف من شعبان لم يميت قلبه يوم تموت القلوب » .

وكان جعفر الصادق يدعو في آخر رمضان فيقول: اللهم رب رمضان ، منزل القرآن هذا شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن وقد تصَّرم ، أي رب فأعوذ بوجهك الكريم أن يطلع الفجر من ليلتي هذه ، أو يخرج رمضان ولك عندي ذنب تريد أن تعذبني يوم ألقاك .

ومن المتعلق بالصيام إخراج زكاة الفطر ، حدثنا أبو القاسم بن الحصين بسنده عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ : « إن شهر رمضان معلق بين السماء والأرض لا يرفع إلا بزكاة الفطر » .

وينبغي أن يكون الاجتهاد في أواخر الشهر أكثر من أوله لشيئين :
أحدهما: لشرف هذا العشر ، وطلب ليلة القدر . فقد روينا فيما تقدم :
« اطلبوها في خمس بقين ، أو ثلاث ، أو آخر ليلة » .

والثاني: لوداع شهر لا يُدرى هل يلقى مثله، أم لا .

إخواني: ليلة القدر ليلة يُفتح فيها الباب، ويقرب فيها الأحاب، ويُسمع الخطاب، ويردّ الجواب، ويُسنّى للعاملين عظيم الأجر ﴿سلامٌ هي حتى مطلع الفجر﴾ .

يسعد به المواصيل، ويتوفر فيها الحاصل، ويُقبل فيها المجامل، فيا ربح العامل في البحر ﴿سلامٌ هي حتى مطلع الفجر﴾ .

ليلة تتقى فيها الوفود، ويحصل لهم المقصود بالقبول والفوز والسعود، أترى ما يؤلمك أيها المطرود هذا الهجر ﴿سلامٌ هي حتى مطلع الفجر﴾ أخلصوا وما أخلصت قصدك، وبلغوا المراد وما بلغت أشدك، وكلما جئت بلا نية ردك، أو ليس ما يؤثر عندك شديد هذا الزجر ﴿سلامٌ هي حتى مطلع الفجر﴾ .

أيقظ نفسك لما بين يديها، وانتظر ما سيأتي عن قليل إليها، وأسمعها المواعظ فقد حضرت لديها، واقبل نصحي وخذ عليها ضرب الحجر ﴿سلامٌ هي حتى مطلع الفجر﴾ . هذه أوقات يربح فيها من فهم ودرى، ويصل إلى مراده كل من جدّ وسرى، ويُنكّ فيها العابي وتُطلق الأسرى، تقدّم القوم وأنت راجع إلى ورا، أو ليس كل هذا قد جرى وكأنه لم يجر ﴿سلامٌ هي حتى مطلع الفجر﴾ .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

المجلس التاسع في ذكر عيد الفطر

الحمد لله موَفِّر الثواب للأحباب ومكْمِّل الأجر، وباعث ظلام الليل
يَنسُخه نور الفجر، المحيط علماً بجائنة، الأعين وخافية الصَدْر، ومعلِّم الإنسان ما
لم يعلم به ولم يَدْر، المتعالي عن دَرَك خواطر النفس وهو اجس الفِكْر، الموالي
رزقه فلم يَنسُ النمل في الرمل، والفرخ في الوكْر، جلَّ أن تناله أيدي الحوادث
على مرور الدهر، وتقدَّس أن يخفى عليه باطن السرِّ وظاهر الجهر، مِنَّه تيجان
الرؤوس، وقلائد النحر ﴿هو الذي يسيرٌم في البرِّ والبحر﴾ (١) أحصى عدَّة
الرمل في الفيافي، والنمل في القفر، وشاء فأجرى كما شاء تقدير الإيمان
والكفر، أغنى وأفقر فيآرادته وقوع الغناء والفقر، وأصمَّ وأسمع فبمشيئته أدرك
السمع ومنع الوقْر، أبصَرَ فلم يَخْف عليه دَيِّب الذرِّ في البر، وسمع فلم يَعْزب عن
سمعه دعاء المضطر في السرِّ، وقَدَّر فلم يَحْتج إلى معين يمده بالنصر، وأجرى
الأقدار كما شاء في ساعات العصر، فهو الذي هدانا إليه بواضح الدليل وسليم
السر، وخصنا من بين الأمم بشهر الصيام والصبر، وغسل به ذنوب الصائمين
كغسل الثوب بماء القطر، فله الحمد إذ رزقنا إتمامه، وأرانا عيد الفطر.

أحمده حمداً لا منتهى لعدده، وأشهد بتوحيده شهادة مُخلص في معتقده،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي نبع الماء من بين أصابع يده، صلى الله عليه
وعلى صاحبه أبي بكر الصديق رفيقه في شدائده، وعلى عمر كهف الإسلام
وعضده، وعلى عثمان جامع القرآن فسقياً لمتبذده، وعلى عليٍّ كافي الحروب

(١) يونس ٢٢.

وشجعانها بمفرده، والمضطجع ليلة خروجه على مرّقه، وعلى عمه العباس مقدّم بيت هاشم وسيّده.

عباد الله: إن يومكم هذا العيد قد ميّز فيه الشقي والسعيد، فكم فرح بهذا اليوم مسرور وهو مطرود مهجور.

وقد روينا في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: إذا كانت غداة الفطر بعث الله تعالى ملائكة في كل بلد، فيهبطون إلى الأرض، فيقومون على أفواه السكك، فينادون بصوت يسمعه جميع من خلق الله إلا الجن والإنس فيقولون: يا أمة محمد اخرجوا إلى رب كريم يغفر الذنب العظيم. فإذا برزوا في مصلاهم يقول الله عز وجل: يا ملائكتي ما جزاء الأجير إذا عمل عمله؟ فيقولون: إلهنا وسيدنا جزاؤه أن توفيه أجره. فيقول الله تعالى: يا ملائكتي أشهدكم أنني قد جعلت ثوابهم في صيامهم شهر رمضان وقيامهم رضائي ومغفرتي. ويقول الله عز وجل: سلّوني فوعزتي وجلالي لا تسألوني اليوم شيئاً في جمّعكم هذا لآخرتكم إلا أعطيتكموه، ولا لدنيا إلا نظرت لكم. انصرفوا مغفوراً لكم قد أرضيتموني ورضيت عنكم».

وقد سبق هذا الحديث بإسناده فيما تقدم.

وأول وظيفة تختص بالعيد الغسل، ثم البكور والخروج على أحسن هيئة، إلا أن يكون معتكفاً فيخرج في ثياب اعتكافه، ويخرج معه زكاة فطره، فإن كان قد أخرجها قبل ذلك بيوم، أو يومين جاز، وإن صلى العيد ولم يخرجها أخرجها بعد ذلك على وجه القضاء، فإذا مشى في الطريق غضّ بصره.

قال بعض أصحاب سفیان الثوري: خرجت معه يوم عيد فقال: إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا غضّ البصر. ورجع حسّان بن أبي سنان من عيده فقالت امرأته: كم من امرأة حسناء قد رأيت؟ فقال: ما نظرت إلا في إبهامي منذ خرجت إلى أن رجعت!

ويستحب أن يأكل قبل الصلاة، بخلاف الأضحى. وفي حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يأكل سبع تمرات يوم الفطر قبل أن يخرج إلى المصلى.

أنبأنا زاهر بن طاهر بسنده عن سعيد بن المسيّب قال: كان المسلمون يأكلون يوم الفطر قبل الصلاة، ولا يفعلون ذلك يوم النحر. وإذا صلى العيد رجع في غير الطريق.

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يأخذ يوم العيد في طريق، ويرجع في غيره. وهذا يحتمل أشياء منها: أنا قد روينا أن الملائكة تقف على أفواه السكك يوم العيد، فيقولون للناس: اخرجوا إلى رب كرم يغفر الذنب العظيم. فيكون الاستحباب في تغيير الطريق أن يمر على ملاً منهم لم يمر عليهم ليحصل له البركة بدعائهم. ويحتمل أن يكون ليُلقَى قوماً من المسلمين ما لقيهم، فيدعو لهم ويدعون له. ويحتمل أن يكون للتفاؤل بتغيير الحال، كأنه خرج وعليه ذنب، ورجع مغفوراً له.

ولا يُسنّ التطوع قبل صلاة العيد، ولا بعدها في موضع صلاة العيد. وقد رويت صلاة لليلة وليوم العيد ليس فيها شيء يثبت، ولا يصح، فلهذا تنكّبنا ذكرها. وينبغي لمن وسّع عليه أن يوسع على الفقراء في هذا اليوم، ويتطوع بإطعام من قدر.

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا يوم الفطر أن نُفطرَ الفقراء من إخواننا، وكان يقول: «من فطر واحداً يُعتق من النار، ومن فطر اثنين كتب له براءة من الشرك وبراءة من النفاق، ومن فطر ثلاثة وجبت له الجنة وزوجه الله من الحور العين». قال: وكان يأمرنا أن نطعم الخبز واللحم والخبز، والزيت، والخبز واللبن. وكان يقول: «آدموا طعامكم، يُؤدّم لكم عيشكم». يقول: يلبّته.

ويستحب إتباع رمضان بست من شوال؛ أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن

أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « من صام رمضان وأتبعه بستّ من شوال كان كمن صام الدهر ».

انفرد بإخراجه مسلم.

وقد ذكر العلماء أن السر في هذا أن أيام السنّة ثلاثمائة وستون يوماً، وهذه الستة مع رمضان ستة وثلاثون، والحسنة بعشر أمثالها فمن دام على هذا فكأنه كمن صام الدهر. وقد روي نحو هذا مرفوعاً.

أخبرنا علي بن عبيد الله بسنده عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: « صيام رمضان بعشرة أشهر، وصيام ستة أيام شهرين، فذلك صيام سنة ».

أخبرنا حماد بن سلمة بسنده عن الأزرق بن قيس، عن رجل من بني تميم قال: كنا عند باب معاوية، ووضعت الموائد، فجعل أبو ذر يأكل، وجعلت أنظر إليه فقال: ما شأنك يا أحمَر؟ أتريد أن تشغلني عن طعامي؟ فقلت: ألم تزعم على الباب أنك صائم. فقال أبو ذر: بلى. ثم قال: قرأت من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها سمعت رسول الله ﷺ يقول: « صومُ شهر الصبر وثلاثة من كل شهر صوم الدهر » وقد صممت ثلاثة أيام من الشهر، فأنا صائم الشهر كله.

وبالإسناد، حدثنا حمّاد بن سلمة، عن ثابت بن أبي عثمان النهدي أن أبا هريرة رضي الله عنه كان في سفر فلما نزل ووضعت السّفرة بعثوا إليه، وهو يصلي فقال: إني صائم، فلما كادوا أن يفرغوا جاء فجعل يأكل، فنظر القوم إلى رسولهم فقال: ما تنظرون؟ قد والله أخبرني أنه صائم. فقال أبو هريرة: صدق، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « صومُ شهر الصبر، وثلاثة أيام من كل شهر صوم الدهر ». وقد صممت ثلاثة أيام من أول الشهر، وأنا مُفطر في تخفيف الله، وصائم في تضعيف الله عز وجل ».

الكلام على البسملة

عيدي مقيم وعيد الناس مُصيرفٌ والقلبُ مني من اللذات مُنحرفٌ

ولي قرينان مالي منها خلفٌ طولُ الحنين، وعين دَمْعُهَا يَكِيفُ
يا من يفرح في العيد بتحسين لباسه، ويوقن بالموت وما استعد لبأسه، ويغترّ
بإخوانه وأقرانه وجَلَّاسِهِ، وكأنه قد أمِن سرعةً اختلاسه، كيف تقرّ بالعيد،
عينٌ مطرود عن الصلاح، كيف يضحك سِنَّ مَرْدُودٍ عن الفلاح، كيف يُسرّ من
يُصرّ على الأفعال القَبِيحَةِ، كيف لا يبكي من قد فاته جزيلاً الأرباح، النَّوْحُ
أحقُّ بك من السرور يا مغرور، والحزن أجدر بك من جميع الأمور، والجِدُّ أولى
بك من التواني والفُتُور، كيف يُسرّ بعيده من تاب ثم عاد، كيف يفرح بالسلامة
من آثامه في ازدياد.

أخبرنا محمد بن أبي منصور بسنده عن أبي ثابت الخطّاب قال: سمعت إبراهيم
بن موسى يقول: رأيت فتحة الموصلي يوم عيد، وقد رأى على الناس الطيّاليس
والعمائم فقال لي: يا إبراهيم أما ترى ثوباً يتبلى، وجسداً يأكله الدود غداً؟ هؤلاء
قوم قد أنفقوا خزائنتهم على بطونهم وظهورهم ويقدمون على ربّهم مفاليس.

أخبرنا عمر بن ظُفر بسنده عن أبي بكر الشَّقَّاق قال: سمعت أحد بن عيسى
يقول: نظر بعض العلماء يوم الفطر إلى الناس وشغلهم بما هم فيه من الأكل
والشراب واللباس فقال: لئن كانوا هؤلاء قد أنبأهم الله عز وجل أنه قد تقبّل
منهم صيامهم وقيامهم، لقد كان ينبغي لهم أن يكونوا أصبحوا مشاغليلاً بأداء
الشكر، ولئن كان يخافون أنه لم يقبل منهم، فقد كان ينبغي لهم أن يكونوا
أشغل وأشغل.

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بسنده عن عبد الله الصوفي سمعت مظفر بن
سهل قال: قال أبو بكر المروزي: دخلت على أبي بكر بن مُسَلِّم صاحب قنطرة
بردان يوم عيد فوجدته وعليه قميص مرقوع مطبق، وقدامه قليلُ خرنوب
يقْرِضُه فقلت: يا أبا بكر اليوم يوم عيد الفطر تأكل الخرنوب؟ فقال لي: لا
تنظر إلى هذا، ولكن انظر إن سألتني من أين لك هذا؟ أي شيء أقول!

أخبرنا أبو بكر الصوفي بسنده عن أبي الربيع النَّهْدي قال: أخبرني إدريس بن

يجي قال: دخلت على أبي عباد الخوَّاص يوم عيد فاستأذنت عليه، فخرج إلي وهو يبكي ويَنُوح على نفسه قال: فدخلت معه فقال: إني ذكرت اليوم تنعم الناس، وما هم فيه من الذات، فأحببت أن أتنعم بما ترى.

وكان صالح بن عبد الجليل إذا انصرف يوم العيد جمع عياله، وجلس يبكي فيقول له إخوانه: هذا يوم سرور. فيقول: صدقتم، ولكنني عبدٌ أمرني سيدي أن أعمل له عملاً فعملته، فلا أدري أقبله مني أم لا؟ فالأولى بي طول الحزن!

أخبرنا محمد بن عبد الباقي عن هناد بن إبراهيم قال: سمعت محمد بن القاسم يقول: كان الشَّبلي يوم العيد ينوح ويصيح، ويصرخ وعليه ثياب سود وزرق، فاجتمع الناس إليه فسألوه عن نوحه وبكائه فقال:

تزيّن الناسُ يومَ العيد للعيد وقد لبثتُ ثيابَ الزُّرقِ والسُّودِ
وأصبح الناسُ مسروراً بعيدهم ورُحْتُ فيك إلى نوحٍ وتعيدِ
فالناسُ في فرحٍ والقلبُ في ترحٍ شتان بيني وبين الناس في العيدِ

وخرج الشَّبلي يوم العيد وهو يقول:

للناسِ فِطْرٌ وعيدٌ إني فريدٌ وحيدٌ
يا غيائي ومُنْاي أتمَّ لي ما أريدُ

واجتمع الناس إليه فسألوه الدعاء، فمدَّ القوم أيديهم فجعل يدعو فكان من دعائه: اضربهم بسياط الخوف، أقبل بهم بأزمة الشوق، أعنهم بملاحظات الفُهوم، كن لهم كما كنت لمن لم تكن له بأن صرت كلاً له.

وقيل له يوم عيد: يا أبا بكر اليوم يوم عيد. فقال:

الناسُ بالعيد قد سرُّوا وقد فرحوا وما فرحتُ به والواحد الأحدِ
لما تيقنتُ أني لا أعينكم غمّضتُ عيني فلم أنظر إلى أحدِ

ورئي يوم عيد خارجاً وهو يقول:

إذا ما كنتَ لي عيداً فما أصنع بالعيدِ
جرى حبك في قلبي كجرى الماء في العودِ

والله ما عيد يعقوب إلا لقاء يوسف، ولا أيام تشريق الصديق إلا الغار. يا من عزم على المعاصي في شوال أالشهر احترمت، أم لرب الشهر، ويحك! رب الشهرين واحد. تقول أصلح رمضان، وأفسد غيره، وعزمك في رمضان على الزلل في شوال أفسدت رمضان، إذا طالبت نفسك في شوال بشرب الخمر فذكرها سيلان العين على الخد في اللحد، وعمل البلى في المفاصل، لعل الكف يكف.

هيئات ليس المحب من غيره البعد والهجر، ولا المخلص من حرّكه الثواب والأجر، لكنه من تساوى عنده الوصل والصدّة، وإلفه على كل حال الجِدّة والكدّة.

يا راكباً تطوي المهامة عيسه فتريه رَضْرَاصَ الحصى مُتْرَضْرَاصَا
بلغ رعاك الله سگان العضى مني التحية إن عرضت معرضاً
وقل انقضى زمن الوصال وودنا باقٍ على مرّ الليالي ما انقضى

الكلام على قوله تعالى

﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (١)

أخبرنا عبد الأول بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعته الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن

(١) يونس ٦٢.

استعاذني لأعيدنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله، ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت، وأنا أكره مساءته» .

وفي حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ، عن جبريل عليه السلام عن ربه عز وجل قال: « من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وإني لأسرع شيء إلى نصرته أوليائي وإنني لأغضب لهم أشد من غضب الليث الحرب »

أخبرنا محمد بن أبي طاهر عن حميد، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » .

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار قال: قال موسى عليه السلام: (يا رب من أهلك الذين هم أهلك الذين تظلمهم في ظل عرشك؟ قال: هم البريئة أيديهم الطاهرة قلوبهم الذين يتحابون بجلاي، الذين إذا ذكرت ذكروا بي، وإذا ذكروا ذكرت بذكرهم، الذين يُسبغون الوضوء في المكاره، ويُنيبون إلى ذكري، كما تنيب النُّسور إلى وكورها ويكلفون بجي، كما يكلف الصبي بحب الناس ويغضبون لمحارمي إذا استُحلت، كما يغضب النمر إذا حُرِب).

أخبرنا ابن ناصر بسنده عن وهب بن منبه قال: قال الحواريون: يا عيسى من أولياء الله الذين لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون؟ فقال عيسى عليه السلام: الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، والذين نظروا إلى آجل الدنيا، حين نظر الناس إلى عاجلها فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا ما علموا أن سيتركهم، فصار استكثارهم منها استقلالاً وذكُرهم إياها فواتاً، وفرحهم بما أصابوه منها حُزناً، فما عارضهم من نائلها رفضوه، أو من رفعتها بغير الحق وضعوه، خلقت الدنيا عندهم فليسوا يجددونها، وخربت بينهم فليسوا يعمرونها، وماتت في صدورهم، فليسوا يُحيونها، يهدمونها فينون بها آخرتهم ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم، رفضوها، فكانوا برفضها فرحين، وباعوها فكانوا يبيعها راجحين، نظروا إلى أهلها صرعى قد حلت بهم المثلات،

فأحيوا ذُكِر الموت، وأماتوا ذكر الحياة، يحبون الله، ويحبون ذِكره، ويستضيئون بنوره، لهم خبر عجيب، وعندهم الخبر العجيب، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب، وبه نطقوا، وبهم عم الكتاب، وبه علموا، ليسوا يرون نائلاً، ولا أماناً دون ما يَرجون، ولا خوفاً دون ما يَحذون.

وقد روى ذكر عدد الأولياء في أحاديث لا تصح.

أخبرنا أبو الحسن الأنصاري بسنده عن عطاء، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الأبدال أربعون رجلاً، وأربعون امرأة، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً، وكلما ماتت امرأة أبدل الله مكانها امرأة».

أخبرنا محمد بن عبد الباقي بسنده عن الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد، عن كعب رضي الله عنه قال: «لم يزل في الأرض بعد نوح عليه السلام أربعة عشر يُدفع بهم العذاب».

أخبرنا ابن ناصر بسنده عن سفيان بن عيينة قال: قال أبو الزناد: لما ذهبت النبوة وكانوا أوتاد الأرض أخلف الله مكانهم أربعين رجلاً من أمة محمد ﷺ يقال لهم الأبدال، لا يموت الرجل منهم حتى ينشئ الله مكانه آخر يخلفه، وهم أوتاد الأرض، لم يفضلوا الناس بكثرة الصيام، ولا بكثرة القيام، ولا بحسن التخشع، ولا بحسن الحلية، بل بصدق الورع وحسن النية، وسلامة القلوب والنصيحة لجميع المسلمين، وعلامة ذلك أنهم لا يعلنون شيئاً، ولا يؤذنون أحداً، ولا يتناولون على أحد تحتهم، ولا يحقرونه، ولا يحسدون أحداً فوقهم، ليسوا بمتخشين ولا متهاوتين، ولا بمعجبين، ولا يحبون الدنيا، ليسوا اليوم في خشية وغداً في غفلة.

رمضان القوم دائم، شواهم كذلك صائم، وأعيادهم سرور القوم بالمحبوب، وأفراحهم بكمال التقى وترك الذنوب، إذا جنَّ عليهم الليل عادت القلوب بالمنجاة جُداً، وإذا جاء النهار سلكوا من الجدِّ جدداً، يجمعون هممهم فيما

أهمهم إذا بات هم الغافل بدداً، جزموا على ما عزموا، وما انهزموا، أبداً
 أعيادهم بقرب القلوب إلى المحبوب دائمة، وأقدامهم في الدجى على باب اللجأ
 قائمة، وأرواحهم بالاشتياق إلى الملك الخلاق هائمة، قرَّبهم مولاهم وأدنى،
 فالنفوس عن الفاني الأذنى صائمة، تزَيَّنت لهم لذات الدنيا معاً، فما وجدت في
 قلوبهم لها موضعاً، لما وجدوا كسرةً وخلقاً أُنْعَمًا.

قالوا غدا العيدُ ماذا لابسهُ فقلت خِلقَةُ ساقِ حَبِّهِ جُرْعَا
 فقرَّ وصَبَّرَهما ثوبانِ تحتها قلبٌ يرى إلفه الأعيادَ والجمْعَا
 أحرى الملابس أن يُلقَى الحبيب بها يومَ التزاورِ في الثوب الذي خلَعَا
 الدهر لي مآتم إن غيبت يا أملي والعيد ما كنت لي مدًّا ومُسْتَمِعَا

إخواني: ليس العيد ثوباً يميز الخيلاء جره، ولا تناول مطعم بكف شره لا
 يؤمن شره، إنما العيد لبس توبة عاصٍ تائب يسرّ بقدم قلبٍ غائب.

أخبرنا أبو بكر الصوفي بسنده عن الحيري، عن ابن باكوية الشيرازي قال:
 أنشدني أبو الحسن الخنظلي قال: سمعت الشبلي ينشد يوم العيد:

ليس عيدُ المحب قصد المصلَى وانتظار الخطيب والسلطانِ
 إنما العيد أن تكون لدى الـ حباً كريماً مقرباً في أمانِ

يا من وقى رمضان على أحسن حال، لا تتغير بعده في شوال، يا من رأى
 العيد ووصل إليه، متى تشكر المنعم. وتثني عليه، كم من صحيح هياً طيب عيده،
 صار ذاك الطيب في تلحيده، سلبتهم والله أيدي المنون، فأنزلتهم فقراً ليس
 بمسكون، فهم في القبور بعد البيان خرسون، ومن نيل آمالهم، أو بعضها
 آيسون، وهكذا أنتم عن قريب تكونون، وقد دلَّهم على صدق قولي ما تعملون،
 أما ترون الأتراب كيف يتقلبون، أترى ضلَّت الأفهام، أم عميت العيون،
 أفسحرو هذا، أم أنتم لا تبصرون.

إلى متى ترضون من العمل بالفساد، ومن السلع بالكاسد، وتنسون الختف

الرابض المستأسد، لقد أَسْمَتُمْ بكم كلَّ حاسد، يا مظهرون ضد ما به الكتاب وارد، إلى متى تُبْهَرَجُونَ والبصيرُ ناقد، كيف يكون حالكم وهو عليكم شاهد:

عجبتُ من مستيقظٍ والقلبُ منه راقِدُ
مضيِّعٍ لدينِه وللذنوبِ زائِدُ
كأنه على مَدَا ه مُهْمَلٌ وخالِدُ
فأحسنوا أعمالكم فهي لكم قلائدُ
ولا تُضيعوا واجباً واجتهدوا وجاهِدُوا

لله در أقوام تلمَّحوا العواقب فعملوا عمل مراقِب، وجاوزوا الفرائض إلى طلب المناقب، علَّتْ هِمَمَهُم عن الدنيا وارتفعت، وكفَّت الأُكْف عن الأذايا وامتنعت، ووسَّعت خَطَاها إلى الفضائل وسعت، من يجبَ العِزَّ يدأب إليه، وكذا من طَلَب الدرَّ غاصَ عليه، كانوا إذا ابتلاهم مولاهم يصبرون، وإذا أعطاهم مُنَاهم يشكرون، وإذا استراح البطَّالون يدأبون، فلو رأيتهم يوم يقول: ﴿هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ (١) ﴿لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (٢).

زال الخوف عنهم واندفع، فأفادهم حزنهم في الدنيا ونفع، وتمَّ السرور لهم واجتمع، وزال الحِجَاب بينهم وبينه وارتفع، فهم إلى وجه الكريم ينظرون ﴿لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ (٣).

قطعوا بوحدانيته، واجتمعوا على طاعته، وامتنعوا من مخالفته وارتبضوا في رياض معرفته، واضطبعوا بأردية خِدْمته، واطلعوا بالعلوم على هَيْبته، فيا بُشراهم يوم يحضرون ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

امتلوا ما أمرهم به مولاهم، واجتنبوا ما عنه نهاهم، فإذا أخرجهم من الدنيا

(٣) يونس ٦٣

(١) الأنبياء ١٠٣.

(٢) يونس ٦٢.

وتوفاهم استقبلوا الرُّوحَ والريحانَ وتلقاهم، فإذا حضروا لديه أكرم مشواهم، وكشف الحجاب فأشهدهم وأراهم، وهذا غاية ما كانوا يأملون ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ .

كانوا يتقون الشُّركَ والمعاصي، ويجمعون على الأمر بالخير والتواصي، ويحذرون يوم الأخذ بالأقدام والتواصي، فاجتهد في لحاقهم أيها العاصي، قبل أن تَبْعْتَكَ المنون ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ .

قوله تعالى

﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾^(١)

روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «هي الرؤيا الصالحة يراها العبد أو تُرى له» .

كانت قلوبهم في خدمته حاضرة، ونفوسهم في طاعته مثابرة، وألسنتهم على الدوام ذاكرة، وهممهم إلى ما يرضيه مُبَادِرَةٌ ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ .

منازلهم عنده عظيمة، وأنفسهم عليه كريمة، كانت قلوبهم من الشكِّ سليمة، ساروا إلى الجهاد على خَيْلِ العزيمة، فإذا وَقَعَتْهم للعدوِّ كاسرة ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ .

زَمُّوا مطايا الصَّدق وساروا، وجالوا حولَ دارِ الكرمِ وداروا، ونهضوا إلى مرضيه وثاروا، وطلبوا عدوَّهم فأوقعوا به وأغاروا، فبها حسنهم إذا توجهوا إلى الصلاة واستداروا، والدموع في محاربتهم ماطرة ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ .

أقبل القوم فقبلوا، وعرفوا لماذا خُلِقوا فعملوا، إذا رجع الناس إلى لذاتهم

(١) يونس ٦٤ .

عادوا إلى عباداتهم، وإذا سكن الخلق إلى أوطانهم سكنوا إلى حُرقات أشجانهم،
وإذا أقبل التجار على أموالهم أقبلوا على تفقد أحوالهم، وإذا التذ الغافلون بالمنام
على جنوبهم تلذذوا في القيام بكلام محبوبهم، فلو ذقت كؤوس المناجاة الدائرة
في خيمة الدجى الدائرة ﴿لم البشرى في الحياة الدنيا، وفي الآخرة﴾ .

نصّبوا الآخرة بين أيديهم وجدّوا، ومثّلوا المنادي يناديهم فاستعدوا،
وتضرّعوا في طلب الإعانة فأمدّوا، وأقبلوا إلى الباب صادقين فما ردّوا، ففازوا
بالأرباح الجمّة الوافرة ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ .

أقلقهم ذِكر الذنوب فما ناموا، وشوقهم رجاء المطلوب فقاموا، وذكروا
العرض يوم تبديل الأرض فاستقاموا، وتفكروا في تصرّم العمر فاجتهدوا
وداموا، وتذكروا سالف الذنب فوبّخوا النفوس ولاموا، وباتت أعينهم ساهرة
لذكر أرض الساهرة ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ .

أذبلوا الشّفاء يطلبون الشّفاء بالصيام، وأنصّبوا لما انتصبوا الأجساد يخافون
المعاد بالقيام، وحفظوا الألسنة عما لا يعنى عن فضول الكلام، وأناخوا على باب
الرجاء في الدجى إذا سجى الظلام، فأنشّبوا محاليب طمعهم في العقو، فإذا
الأظافر ظافرة ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ .

يا هذا سبقك القوم وتخلّفت، ومضى أكثر العمر وتسوّفت، ثم تعصي المنعم
بالنعم فما أنصفت، وتؤثر الضلال على الهدى وقد عرفت، أما تخاف أن تقول
إذا حضرت ووقفت: ﴿تلك إذا كرت خاسرة﴾ (١) .

يا من بين يديه الحساب والصراط، وهو عظيم الجراءة كثير الانبساط،
متكاسل في الطاعات وفي المعاصي ذو نشاط، يدعى إلى العلو ويأبى إلا
الانهباط، أمؤمنة هذه النفس بالوعيد أم كافرة .

يا مبارزاً مولاه لم يخف من بطشه، يا مقبلاً على الهوى لا تغتر بنفسه، تفكر

(١) النازعات ١٢ .

في من سكن الثرى بعد لين فرشته ، وانتبه بالتعريض قبل ظهور التصريح بفحشه ،
أما أبقاك وأراك سِوَاك محمولاً على نَعْشِه إلى أن أُلْقِي في الحافرة .

يا خاسراً فاته جزيل الأرباح ، يا من أبعدته عنا خطاياهِ القَباح ، يا من لو
انتبه لنفسه لبكى عليها وناح ، أتاَمِن عليها أن تؤخذ على بعض الاجتراح ،
فيفعل بها فاقرة .

أيقظنا الله وإياكم من هذه الرقدة ، وحفظ إيماننا ، ولا أذاقنا فقده .

المجلس العاشر

في عشر ذي الحجة

الحمد لله العالم بعدد الرمل، والنمل والقطر، ومصرف الوقت والزمن والدهر،
الخبير بخافي السر وسامع الجهر، القدير على ما يشاء بالعز والقهر، أقرب إلى
العبد من العنق إلى النحر ﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر ﴾ (١).

القديم فلا إله سواه، الكريم في منحه وعطاياه، القاهر لمن خالفه وعصاه،
خلق آدم بيده وسواه، واستخرج ذريته كالذرة. أنعم فلا فضل لغيره، وقضى
بنفع العبد وضيره وأمضى القدر بشره وخيره، فحث على الشكر والصبر. أحاط
علماً بالأشياء وحواسها، كيف لا وهو الذي بناها، وقهر المضادات فسواها بلا
معين يمهده بالنصر. لا كيف له ولا شبيهه، ولا يجوز عليه التشبيه، عالم السر وما
يعرض فيه، متنزه عن تصور الفكر. أقسم في القرآن بصنعتة، والقسم على
الحقيقة بقدرته، فتأمل ما تحت القسم من فائدته ﴿ والفجر وليال عشر والشفع
والوتر ﴾ (٢).

أحده حداً ليس له نهاية، وأقر له بالتوحيد، فكم دلت عليه آية، وأصلي
على رسوله محمد الذي ما ردت له راية، صلاة تصل إليه في القبر. وعلى ضجيعه
أي بكر الصديق، وعمر الشديد في الحق الوثيق، وعثمان المحب الشفيق، وعلي
الرفيع القدر، وعلى عمه أي الفضل العباس، الشريف الأصل كريم الأغراس،
الذي نسبه في الأنساب لا يقاس.

(١) يونس ٢٢.

(٢) الفجر ١.

قال الله تعالى: ﴿وَالْفَجْرُ وَلَيَالٍ عَشْرٌ﴾ الفجر: ضوء النهار إذا انشق عنه الليل.

وفي المراد بهذا الفجر ستة أقوال:

أحدها: أنه الفجر المعروف الذي هو بدء النهار. قاله علي بن أبي طالب، وعكرمة، وزيد بن أسلم والقرطبي.

والثاني: صلاة الفجر.

والثالث: النهار كله، فعبر بالفجر عنه، لأنه أوله. والأقوال الثلاثة عن ابن عباس.

والرابع: أنه فجر يوم النَّحْرِ خاصة. قاله مجاهد.

والخامس: فجر أول يوم من ذي الحجة. قاله الضحاك.

والسادس: أول يوم من المحرم تنفجر منه السنة. قاله قتادة.

قوله عز وجل: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٌ﴾ فيها أربعة أقوال:

أحدها أنه عشر ذي الحجة. رواه عطية عن ابن عباس، وبه قال مجاهد ومسروق، وقتادة، والضحاك، والسدي، ومقاتل.

والثاني: أنها العشر الأواخر من رمضان، قاله أبو ظبيان عن ابن عباس.

والثالث: العشر الأول من رمضان. قاله الضحاك.

والرابع: العشر الأول من المحرم. قاله يمان بن رثاب.

قوله تعالى: ﴿والشفع والوتر﴾ قرأ حمزة والكسائي: والوتر بكسر الواو وفتحها الأكثرون، وهما لغتان والكسر لقريش وتميم وأسد، والفتح لأهل الحجاز.

وللمفسرين في الشفع والوتر عشرون قولاً:

أحدها: أن الشفع يوم عرفة ويوم الأضحى ، والوتر ليلة النحر. رواه أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ .

والثاني: أن الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة. رواه جابر عن النبي ﷺ .

والثالث: أن الشفع والوتر الصلاة، منها شفع، ومنها وتر. رواه عمران بن حصين، عن النبي ﷺ .

والرابع: أن الشفع الخلق كله، والوتر الله عز وجل، رواه عطية عن ابن عباس.

والخامس: أن الوتر آدم، شُفِع بزوجه عليها السلام. رواه مجاهد عن ابن عباس.

والسادس: أن الشفع يومان بعد يوم النحر، وهو النَّفَرُ الأول، والوتر اليوم الثالث وهو النفر الأخير. قاله عبد الله بن الزبير.

والسابع: أن الشفع صلاة الغداة، والوتر صلاة المغرب. حكاه عطية العوفي.

والثامن: أن الشفع الركعتان من صلاة المغرب، والوتر الركعة الثالثة. قاله أبو العالية والربيع بن أنس.

والتاسع: أن الشفع والوتر الخلق كله منه شفع، ومنه وتر. قاله ابن زيد.

والعاشر: أن العدد منه شفع، ومنه وتر. قاله الحسن.

والحادي عشر: أن الشفع عشر ذي الحجة، والوتر أيام من الثلاثة قاله الضحاك.

والثاني عشر: أن الشفع هو الله لقوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾^(١) والوتر هو الله لقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ قاله سفيان ابن عيينة.

(١) سورة المجادلة ٧.

والثالث عشر: أن الشفع آدم وحواء، والوتر هو الله تعالى. قاله مقاتل بن سليمان.

والرابع عشر: أن الشفع هو الأيام والليالي والوتر اليوم الذي لا ليلة معه، وهو يوم القيامة، قاله مقاتل بن حيان.

والخامس عشر: أن الشفع درجات الجنات لأنها ثمان، والوتر دركات النار لأنها سبع، فكان الله عز وجل أقسم بالجنة والنار. قاله الحسين بن أبي الفضل.

والسادس عشر: أن الشفع تضاداً لأوصاف المخلوقين: عزّ وذل، وقُدرة وعجز، وقوة وضعف، وعلم وجهل، وحياة وموت. والوتر انفراد صفة الله سبحانه: عزّ بلا ذل، وقدرة بلا عجز، وقوة بلا ضعف، وعلم بلا جهل، وحياة بلا موت. قاله أبو بكر الوراق.

والسابع عشر: أن الشفع الصفا والمروة، والوتر البيت.

والثامن عشر: أن الشفع مسجد مكة والمدينة، والوتر بيت المقدس.

والتاسع عشر: أن الشفع القرآن في الحج والتمتع، والوتر الأفراد.

والعشرون: الشفع العبادات المتكررة كالصلاة والصيام والزكاة، والوتر العبادة التي لا تتكرر، وهي الحج. حكى هذه الأربعة أبو إسحاق الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ﴾^(١) قرأ ابن كثير ويعقوب: ﴿يَسْرِي﴾ بياء في الوصل والوقف، ووافقهما في الوصل نافع وأبو عمرو، وقرأ ابن عامر وعاصم وحزرة والكسائي: ﴿يَسَّرَ﴾ بغير ياء في الوصل والوقف.

قال اللغويون منهم الفراء والزجاج: والاختيار حذف حرف الياء لثلاثة أوجه:

أحدها: لمشاركتها من الآيات.

(١) الفجر: ٤.

والثاني: لاتباع المصحف.

والثالث: أن العرب قد تحذف الياء وتكتفي منها بكسر ما قبلها، وأنشدوا:
كفَّكَ ما يُليقُ درهماً جوداً وأخرى تُعطى بالسيف الدماً

وفي قوله تعالى: ﴿يَسْرُ﴾ قولان: أن الفعل لليل، ثم في ذلك قولان:
أحدهما: إذا يسري ذاهباً. رواه عطية عن ابن عباس. وهو قول الجمهور.

والثاني: إذا يسري مُقبلاً. قاله قتادة.

والقول الثاني: الفعل لغيره، والمعنى: إذ يسرى فيه، كما يقال: ليلٌ نائم،
أي ينام فيه. قاله الأخفش.

قوله تعالى: ﴿هل في ذلك﴾ أي فيما ذكر ﴿قسَمَ لذي حجر﴾^(١) أي عقل. وسمي الحجر حجراً، لأنه يحجر صاحبه عن القبيح، وسمي عقلاً لأنه يعقل عما لا يحسن، وسمي النهي، لأنه ينهي عما لا يجمل. ومعنى الكلام: أن من كان ذا لبٍ عليم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء فيه دلائل على توحيده وقدرته، فهو حقيق أن يقسم به.

وجواب القسم: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾^(٢) فاعترض بين القسم وجوابه قوله تعالى ﴿لم تر كيف فعل ربك بعد﴾^(٣).
والمشهور أن المراد بالعشر، عشر ذي الحجة.

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيامٍ العملُ الصالح فيها أحبَّ إلى الله عز وجل من هذه الأيام» يعني أيام العشر. قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله عز وجل؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله عز وجل، إلا رجلاً خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء».

(٣) الفجر ٦.

(١) الفجر ٥.

(٢) الفجر ١٤.

انفرد بإخراجه البخاري .

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر فأكثرُوا فيهن التهليل والتكبير والتحميد » .

أخبرنا عبد الله بن علي المقرئ بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: « إن أفضل أيام الدنيا العشر . قالوا: يا رسول الله، ولا مثلهن في سبيل الله؟ قال: ولا مثلهن في سبيل الله، إلا من عفر وجهه في التراب » .

وقد روي في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: أن كل يوم من أيام العشر يعدل صيام سنة، وليلة جمع تعدل ليلة القدر .

قال أبو عثمان النهدي: كانوا يعظمون ثلاث عشرات: العشر الأول من ذي الحجة، والعشر الأخير من رمضان، والعشر الأول من المحرم .
اعلموا رحمكم الله أن عشركم هذا ليس كعشر، وهو يحتوي على فضائل عشر:

الأولى: أن الله عز وجل أقسم به فقال: ﴿وليلِ عشر﴾ (١) .

والثانية: أنه سماه الأيام المعلومات فقال تعالى: ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات﴾ (٢) قال ابن عباس: هي أيام العشر .

والثالثة: أن رسول الله ﷺ شهد له بأنه أفضل أيام الدنيا .

والرابعة: حث على أفعال الخير فيه .

والخامسة: أنه أمر بكثرة التسبيح والتحميد والتهليل فيه .

والسادسة: أن فيه يوم التروية . وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه

(٢) الحج ٢٨ .

(١) الفجر ٢ .

قال: « من صام العشر فله بكل يومٍ صوم شهر، وله بصوم يوم التروية سنة »
قال الزاهدي: وإنما سمي بيوم التروية، لأن عرفات لم يكن بها ماء، فكانوا
يتروون من الماء إليها.

والسابعة: أن فيه يوم عرفة وصومه بستين.

والثامنة: أن فيه ليلة جمع، وهي ليلة المزدلفة. وقد سبق بيان فضلها.

والتاسعة: أن فيه الحج الذي هو ركن من أركان الصلاة.

والعاشرة: وقوع الأضحية التي هي علم للملّة الإبراهيمية، والشريعة
المحمدية. ومن أراد أن يضحى كره له إذا دخل عليه عشر ذي الحجة أن يأخذ
بشترته، وأن يقلّم أظفاره، أو يخلق شعره، وليتشبه بالمُحْرَمِينَ. ومن أصحابنا من
قال يَحْرَمُ ذلك كله.

أخبرنا علي بن عبيد الله بسنده، عن سعيد بن المسيّب قال: سمعت أم سلمة
رضي الله عنها زوج النبي ﷺ تقول: قال رسول الله ﷺ: « من كان له ذبح
يذبحه، فإذا أهلّ هلال ذي الحجة، فلا يأخذ من شعره، ولا من أظفاره شيئاً
حتى يضحّي ».

ما لنفسي عن معادي غفلت
أيها المغرور في لهو الهوى
أفّ للدنيا فكم تخدعنا
رُبّ ریح بأناس عصفت
وكذاك الدهر في تصريفه
ويد الأيام من عاداتها
أين من أصبح في غفلته
أصبحت آماله قد خسرت
فعدت أمواله قد فرقت
جُزّ على الدار بقلبٍ حاضر
أتراها نسيت ما فعلت
كلّ نفسٍ ستري ما عملت
كم عزيزٍ في هواها خذلت
ثم ما أن لبثت أن سكنت
قدم زلت وأخرى ثبتت
أنها مُفسدة ما أصلحت
في سرور ومُسرادات خلّت
وديوار لهوه قد خربت
وكان داره ما سكنت
ثم قل يا دار ماذا فعلت

أوجهٌ كانت بُدوراً طَلَعَا وشُموساً طَالَمَا قد أَشْرَقَتْ
 قالت الدار تَفَانُوا فمَضُوا وكذا كُلُّ مقيمٍ إن ثَبِتْ
 عَايَنُوا أفعالهم في تُرْبِهِم فاسألُ الأجداد عما اسْتُودِعْتُ
 كُلُّ نفسٍ سوف تَلْقَى فِعْلَهَا وَيَحِ نفسٍ بهواها شُعِلَتْ
 إنما الدنيا كظُلِّ زَائِلٍ أو كأحلامٍ منامٍ ذَهَبَتْ

أين من ملك وقهر، واستعمل في حَفَرِ النهر ونَهْرٍ، ضَمَّ الموت ذلك البشر،
 وأخذ التلفُ ذلك الشَّرَّ ونقضت الآفاتُ قَوِيَّاتِ المِرَرِ، وعلموا أنه لا يُصْلِحُ
 الأشرَ البشرَ، واستبانوا أن يَبِيعَهُم بِيَعِ العَرَرِ.

كم راعت المنون سِرْباً سرباً، كم أثارت قَسْطاً وحَرْباً، تالله لقد جالت بُعْداً
 وقُرْباً، فاستلبت البعدي وذوي القربي، كم عَمَرَتْ بخرابِ دُورهم تُرْباً، فسَلَّ بها
 حال سَلْبها كيف استلبتهم سَلْباً

أين ملوكها وأمراؤها، ومدَّأحها وشعراؤها وسُحْرَاؤها وخُدَامها، وأحرارها
 وعبيدها وأسراها وغناؤها بالأموال وثراؤها، باكرتهم والله بُكْرَاؤها فأعجز
 إبطاءهم إيرادها، فضمَّتْهم عن قليل صحراؤها.

أما الجديدان من ثوبي ومن جَسدي فَيَبْلِيان ولا يَبْلِي الجديدانِ
 بُرْدُ الشباب وبُرْدُ الناسِ ابتذلاً وهل يدوم على البُرْدَيْنِ بُرْدانِ
 الدهرُ لوان أعيناً ثالثٌ لهما وكم أتاك بأشباهِ وألوانِ
 لو كان يعرف دنياه مصاحبها أرادها لعدوِّ دون إخوانِ
 وما أبالي وأرداني مبرّاةً من العيوب إذا ما الحتف أرداني

يا من قد سارت بالمعاصي أخباره، يا من قد قَبِحَ إعلانه وإسراره، يا فقيراً
 من الهدى أهلكه إعساره، أتؤثر الخسران قل لي، أو تختاره، يا كثير الذنوب وقد
 دنا إحصاره، يا مأسوراً في حَبْسِ الزلل لا ينفعه إحصاره، نَقْدُك بَهْرَجٌ إذا
 حك معياره، كم رَدَّ على مثلك درهمه وديناره، يا محترقاً بنار الهوى متى تحبو
 ناره، ما يلين قلبك لغامز، وما يُرى لما تشتهي متجاوز، ما هذا الفعل فعل

فائز، إن مطيع الزمان حال عاجز، وإن بيّن يدك لمفاوز، فيها أهوال وهزاهز
نقومك ولا تستوي، من يغيّر الغرائز؟

أيتها النفس اسمعي لقلبي أنت من الحياة في أصيل
وفي غرور أمل طويل فلا يغرّتك ضحى التأميل
فقد دنت شمّسك للأفول

عباد الله: هذه الأيام مطايا فأين العُدّة قبل المنيا، أين الأنفة من دار
الأذايا، أين العزائم أروضيم بالدنيا، إن بليّة الهوى لا تشبه البلايا، وإن خطيئة
الإصرار لا كالخطايا، يا مستورين ستظهر الخبايا، سرّية الموت لا تشبه السرايا،
قضية الزمان كالقضايا، راعي السلامة يقتل الرعايا، رامي المنون يَصمي الرمايا،
ملك الموت لا يقبل الهدايا. أيها الشاب ستسأل عن شبابك، أيها الكهل تأهّب
لعتابك، أيها الشيخ تدبّر أمرك قبل سدّ بابك، كنت في بداية الشباب أصلح،
فيا عجباً كيف أفسد من أصلح، يا مريض القلب قف بباب الطبيب، يا
مبخوس الحظ اشك فوات النصيب، لذّ بالجناب ذليلاً، وقف على الباب طويلاً،
واتخذ في هذا العشر سبيلاً، واجعل جناب التوبة مقيلاً، واجتهد في الخير تجد
ثواباً جزياً، قل في الأسحار: أنا تائب، ناد في الدجى: قد قدّم الغائب:

أنا المسيء المذنب الخاطي المفرط البيّن إفراطي
فإننا تعاقب أنا أهل له وأنت أهل العفو عن خاطي
ألجأني إلى الذل أنا الجاني، وألقاني الزلل على باب الأسف بدمعي القاني،
ولقد أفرح شأني من خوف شانيء شاني:

اعف عني وأقلني عثرتي ياعبادي للمّات الزمن
لا تعاقبني فقد عاقبني ندم أتلف رُوحِي والبَدَن
لا تطير وسناً عن مقلّة أنت أهديت لها طيب الوسن
إن تؤاخذني فمن ذا أرّجعي وإذا لم تعف عن ذنبي فمَن

الكلام على قوله تعالى

﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾^(١)

خَوَّفَ المخالفين ما فعل بنظرائهم. وفي إرم أربعة أقوال:

أحدها: أنه اسم أمة من الأمم، ومعناه: القديمة. قاله مجاهد.

والثاني: أنه اسم قبيلة من قوم عاد. قاله قتادة.

والثالث: أنه اسم لجد عاد لأنه عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح. قاله

إسحاق. وقد قرأ ابن مسعود وابن عمر: ﴿بعاد إرم﴾ على الإضافة.

والرابع: أنه اسم بلدة.

ثم فيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها دمشق. قاله سعيد بن المسيّب وعكرمة

والثاني: الإسكندرية. قاله محمد بن كعب.

والثالث: أنها مدينة صنعها شدّاد بن عاد. قاله كعب.

فيخرج على قوله تعالى ﴿ذات العِمَاد﴾ أربعة أقوال:

أحدها: أنهم كانوا أهل عمُد وخيام.

والثاني: أن المراد بالعناد: الطُّول. قاله الزجاج، يقال: عمد إذا كان طويلاً.

والثالث: ذات الشدة.

والرابع: ذات البناء المحكم.

قوله تعالى: ﴿التي لم يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ فيه قولان:

(١) الفجر ٦.

أحدهما: القبيلة في طولها وقوتها.
والثاني: المدينة.

أخبرنا عبد الخالق بن أحمد بن يوسف بسنده عن وهب بن منبه، عن عبد الله ابن قلابة أنه خرج في طلب إبل له شردت، فبينما هو في صحارى عدن أبيين في تلك الفلوات، إذ هو قد وقع على حصن، حول ذلك الحصن قصور كثيرة، فلما دنا منها ظن أن فيها أحداً يسأله عن إبله فإذا لا خارج، ولا داخل. فنزل عن ناقته فعقلها ثم استل سيفه، ودخل من باب الحصن، فإذا هو بباين عظيمين لم يرى في الدنيا شيء أعظم منها، ولا أطول. وفي البابين نجوم من ياقوت أبيض وياقوت أحمر تضيء البابين ما بين الحصن والمدينة، فلما رأى الرجل أعجبه وتعاضمه الأمر فدخل، فإذا هو بمدينة لم ير الرءاون مثلها قط، فإذا هو في قصور كل قصر معلق تحتة أعمدة من زبرجد وياقوت. ومن فوق كل قصر منها عُرف. ومن فوق الغرف عرف مبنية بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد، وكل مصاريع تلك القصور وتلك الغرف مثل مصارع باب المدينة بالياقوت الأبيض والأحمر، مفروشة تلك القصور وتلك الغرف باللؤلؤ، وبنادق المسك والزعفران، فلما عاين الرجل ذلك ولم ير أحداً هاله ذلك، وأفرعه ثم نظر في الأزقة، فإذا هو بشجر في كل زقاق منها قد أثمر، وتحت الأشجار أنهار مطردة يجري ماؤها في قنوات من فضة، فقال الرجل: إن هذه للجنة التي وصف الله عز وجل.

ثم حمل معه من لؤلئها وزبرجدها، ثم عاد إلى بلده، فأظهر ما كان معه وأعلم الناس أمره. فبلغ ذلك معاوية بن أبي سفيان فكتب إلى صنعاء فجيء به، فسأله عما رأى، فأخبره فأنكر ذلك، فأراه ما قد أخذ منها لؤلؤاً قد اصفر، وبنادق مسك لم يجد لها ريحاً، ففتتها فإذا ريح المسك، فبعث إلى كعب وقال: إني دعوتك إلى شيء رجوت أن يكون علمه عندك هل بلغك أن في الدنيا مدينة مبنية بالذهب والفضة عُمدها زبرجد وياقوت، وحصباؤها لؤلؤ؟ فقال: نعم هي إرم ذات العماد التي بناها شداد بن عاد. قال: حدثنا حديثها. فقال: إن عاداً الأول كان له ابنان شديد وشداد، فهلك عاد، وملك ابناه البلاد، ولم يبق أحد إلا في طاعتها، ثم مات شديد فملك شداد وحده، فكانت له الدنيا جميعاً،

وكان مَوْلَعاً بقراءة الكتب، وكلما مرَّ بذكر الجنة دعتَه نفسه إلى أن يبني مثلها عتوّاً على الله عز وجل، فأمر على صنعها مائة قهرمان مع كل قهرمان ألف من الأعوان، ثم قال: انطلقوا إلى أطيب فَلَآةٍ في الأرض، وأوسعها فاعملوا لي مدينة من ذهب وفضة، وياقوت، وزبرجد، ولؤلؤ تحت تلك المدينة أعمدة من زبرجد، وفوق القصور غرف من فوق الغرف غرف، واغرسوا تحت تلك القصور في أزقتها أصناف الثمار، وأجروا تحتها الأنهار، فإني أسمع في الكتب صفة الجنة، وأنا أحب أن أجعل مثلها في الدنيا. فقالوا: كيف نقدر على ما وصفت لنا من الزبرجد والياقوت والذهب والفضة؟ قال: أستم تعلمون أن ملك الدنيا كلها بيدي؟ قالوا: بلى. قال: فانطلقوا إلى معادن الزبرجد والياقوت والذهب والفضة، وخذوا ما في أيدي الناس من ذلك. وكتب إلى كل ملك في الدنيا يأمره أن يجمع ما في بلاده من جواهرها، ويحفر معادنها، فجمعوا ذلك في عشر سنين، وكان عدد الملوك مائتين وستين ملكاً، وخرج الفعلة فتبددوا في الصحارى، فوقعوا على صحراء عظيمة نقية من الجبال والتلال، فإذا هم بعيون مطردة فقالوا: صفة التي أمرنا بها. فأخذوا بقدر الذي أمرهم من الطول والعرض وأجروا قنوات الأنهار، ووضعوا الأساس وأرسلت إليهم الملوك بالزبرجد والياقوت والذهب، والفضة، واللؤلؤ، والجوهر، وأقاموا في ذلك ثلاثمائة سنة، وكان عمرُ شداد تسعمائة سنة، فلما أتوه فأخبروه بفراغهم منها قال: انطلقوا فاجعلوا عليها حصناً، واجعلوا حول الحصن ألف قصر عند كل قصر ألف عَلم يكون في كل قصر وزير من وزرائي. ففعلوا، ثم أخبروه فأمر ألف وزير من خاصته، ومن يثق به أن يتهيأوا للنقل إلى إرم ذات العماد، وأمر من أراد من نسائه وخدمه بالجهاز، فأقاموا في جهازهم عشر سنين، ثم سار بمن أراد، فلما بلغ إلى مسيرة يوم وليلة بعث الله عليه وعلى أصحابه، وعلى من كان معه صيحةً من السماء، فأهلكتهم جميعاً، ولم يدخل إرم ولا أحد ممن كان معه، ولم يُقدَّر على أحد منهم حتى الساعة.

وروى الشَّعْبِيُّ عن دَعْغَلِ الشَّيبَانِيِّ عن علماء حمير قالوا: لماهلك شدَّاد بن عاد

ومن معه من الصيحة ملك بعده ابنه ابن شداد ، وقد كان أبوه خلفه بحضرموت على ملكه وسلطانه فأمر بحمل أبيه من تلك المغارة إلى حضرموت ، وأمر فحفرت له حفيرة في مغارة فاستودعه فيها على سرير من ذهب ، وألقى عليه سبعين حلة منسوجة بقضبان الذهب ، ووضع عند رأسه لوحاً عظيماً من ذهب وكتب عليه :

اعتبر بي أيها المغر	رورُ بالعُمر المديد
أنا شداد عادٍ	صاحب الحصن العميد
وأخو القوة والبأ	ساء والملك المشيد
دان أهـل الأرض لي	من خوف وعيدي
وملكت الشرق والغـر	ب بسلطان شديد
وبفضل الملك والعُد	ة فيه والعديد
فأتي هودٌ وكننا	في ضلالٍ قبل هود
فدعانا لو قبلنا	ه في الأمر الشديد
فعصينا وننادي	تُ ألهل من مجيد
فأتتنا صيحة تهـ	وي من الأفق البعيد
فتوافقنا كزرع	وسقاً يتدا حصيد

قوله تعالى

﴿ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ﴾

قطعوه ونقبوه ﴿ وفرعون ذي الأوتاد ﴾ ^(١) فيه ستة أقوال :

أحدها : أنه كان يعذب الناس بأربعة أوتاد يشدهم فيها ، ثم يرفع صخرة فتلقى على الإنسان فتشده . قاله ابن عباس .

والثاني : أن المعنى : ذو البناء المحكم . قاله الضحاك .

(١) الفجر ٩ .

والثالث: أن المراد بالأوتاد الجنود، كانوا يشدون مُلكه. وهذه الأقوال الثلاثة عن ابن عباس.

والرابع: أنه كان يبني مناراً يذبح عليها الناس.

والخامس: أنه كان له أربع أسطوانات يأخذ الرجل فيمدّ كل قائمة منه إلى أسطوانة فيعذبه. روي القولان عن سعيد بن جبّير.

والسادس: أنه كانت له أوتاد وأرسان وملاعب يلعب له عليها. قاله عطاء وقتادة.

قوله تعالى: ﴿الذين طغوا في البلاد﴾^(١) يعني عاداً وثموداً وفرعون عملوا بالمعاصي وتجبروا على أنبياء الله تعالى، فأكثروا فيها الفساد بالقتل والمعاصي.

﴿فصبّ عليهم ربك سوط عذاب﴾ قال ابن قتيبة: إنما قال: سوط عذاب، لأن التعذيب قد يكون بالسّوط. وقال الزجاج: جعل سوطه الذي ضربهم به العذاب.

﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ أي يرصد من كفر به بالعذاب. قال الأزهري: المرصاد المكان الذي يجد فيه الراصد العدو.

سجع على قوله تعالى

﴿إن ربك لبالمرصاد﴾

أين من أصبح بلذاته مغتبطاً، أمسى في صماته مُغتبطاً، أين من كان أمره فُرطاً، ندّم إذ ارتكب غلطا، أين من سلك سبيلاً شَطَطاً، نزل لحداً ما فيه وطاً، وجأه الملّكان فأفزعا وأفرطاً، وافتضح بقبيحه وانكشف الغطا.

ما بين يَوْمِ المهينات وبين يَوْمِ المغريّات

(١) الفجر ١١.

إذا تَأَمَّلْتَ بَعِيداً إلا كما بين ها وهاتِ
قل للمشغولين بالفساد الواقفين مع العناد: إلى متى ظَلَمَ العباد، كم مُسْتَلَب ما
نال المراد ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾ .

أما عَادَ العذابُ على عاد؟ أما أَمْرَضَ وما عاد، أين من ادَّعى الربوبية، أو
كاد؟ كاده الجَبَّارُ فيمن كاد ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾ . بيناهم في ظلم المظالم سَلَب
على أقبح فعله الظالم، فبات يَقْرَعُ سِنَّ نادم، ولكن لما عَثَرَ الجواد. أُخِذَ والله في
مَضْيِيقِهِ، وأغصَّه الموت بريقه، وبقي متحيراً في طريقه لا ماء ولا زاد. كأنك
بك قد بلغت النَّبوة، وصرعت سرعةً تعجزك الأوبة. وقمت تَعْرَضُ يومئذ
سَلَعِ التوبة، ولكن وقت الكساد، فلا تغتر بمالك وقصرك، ولا تَعَجَبُ بنهيك
وأمرك، يا طائر الهوى ستؤخذ من وَكْرِكَ، وما تُعْجِزُ الصيَّاد، ﴿إِنَّ رَبَّكَ
لَبِالْمُرْصَادِ﴾ .

من لك إذا سئلت عن خلقك وجوزيت بأقبح عملك، تالله إن تُنبت من
ذلك فكل عَشْرَكَ أعياد .

كم أرشدك إلى رشادك، وأنت على فسادك، كم أدعوك إلى إسعادك، وأنت
مع سعادك، ضُرب بوقُ رحليك، وما اهتممت بزادك، أنا في وادٍ وأنت في
واد. لقد بالغتُ لك في النصائح وقمت مُنذِراً عُقبى القبائح، والطريقُ واضح
والعَلَمُ لائح، ﴿ومن يُضِلل الله فما له من هادٍ﴾ (١)

والحمد لله وحده.

(١) غافر ٣٣ .

المجلس الحادي عشر

في ذكر يوم عرفة

الحمد لله الذي لهيئة عظمته تحرك الساكن وارتج، ولعظيم قدرته التطمت
أمواج البحر وثج، ومن يسير بلائه استغاث الشديد الصبر وضج، وإلى كثير
عطائه قطع قاصدوه العميق الفج، الذي أظهر في شهركم هذا من دماء القرابين
السفح والشج، وأحب من أكثر الدعاء فيه وألح ولج، وسماه ذا الحجّة وشرع
فيه إلى بيته الحج، الذي استدعى من شاء إلى زيارة بيته العتيق، وحرك عزم
القاصد وأعانه بالتوفيق، وسهل للسالكين إلى حرمة مستوعر الطريق، ووعد
الطائعين القبول، وهو بإنجاز الوعد خليق، وأزعج قاصديه عن مساكنهم،
وأخرجهم من أماكنهم بالتشويق، فرضوا من أهلهم وفريقهم بالبعد والتفريق،
وسارت بهم الاينق عن الربيع الأنيق، وجدّت بهم النجائب من كل بلدٍ سحيق،
فأقبلوا بين ماشٍ على قدميه استسعاها يقين الصديق ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ
كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (١).

أحمده حمد موقن آمن به وعرفه، وأشكره على إدراك ذي الحجّة، ويوم
عرّفة، وأشهد له بنفي المثل في الذات والصفة، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله
بالرحمة وبالرأفة وصفه، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق الذي حالفه، وما
خالفه، وعلى عمر الذي رفض الدنيا أنفة، وعلى عثمان الذي جهّز جيش العسرة
وأسعفه، وعلى عليّ الذي ما أشكل علم إلا وكشفه، وعلى عمه العباس الذي
عظّم الله بيته وشرفه.

(١) الحج ٢٧.

عباد الله: إن يومكم هذا يومٌ قد عظم الله أمره، ورفع على الأيام قدره.
وقد روينا أن الله تعالى أقسم به فقال: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ (١) فذكرنا عن
النبي ﷺ أنه قال: «الشفعُ يوم النحر والوتر يوم عرفة» وروى أبو هريرة رضي
الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال في قوله تعالى: ﴿وشاهدٍ ومشهود﴾ (٢)
قال: الشاهد والمشهود يوم عرفة.

ومن فضائله أن الله عز وجل أنزل فيه: ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينكم﴾ (٣).
أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من
اليهود إلى عمر رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين إنكم تقرءون آية في كتابكم
لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: وأي آية هي؟ قال:
قوله تعالى: ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيت لكم
الإسلام ديناً﴾ قال: فقال عمر رضي الله عنه: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت
فيه على رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ، نزلت
عشية عرفة يوم الجمعة.

أخرجاه في الصحيحين.

ومن فضائله أن الله تعالى يباهي بالحاج فيه ملائكته، ويعم بالغفران.
أخبرنا سعد الخير بن محمد، عن يونس بن يوسف، عن ابن المسيب، قال:
قالت عائشة رضي الله عنها: إن رسول الله ﷺ قال: ما من يوم أكثر من أن
يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو، ثم يباهي بهم الملائكة
فيقول: ما أراد هؤلاء.

انفرد بإخراجه مسلم.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد بسنده عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله

(٣) المائدة ٣.

(٢) البروج ٣.

(١) الفجر ٣.

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إذا كان يوم عرفة ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيباهي بهم الملائكة فيقول: انظروا إلى عبادي أتوني شُغْبًا غُبْرًا من كل فج عميق، أشهدكم أنني قد غفرت لهم، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « فما من يوم أكثر عتيقاً من يوم عرفة » .

أخبرنا عبد الله بن علي المقرئ بسنده عن أيوب، عن أبي الزبير، عن جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إن عَشِيَّةَ عرفة ينزل الله عز وجل فيه إلى السماء الدنيا، فيقول الله تعالى للملائكة: انظروا إلى عبادي هؤلاء شُغْبًا غُبْرًا جاءوني من كل فج عميق ضاجين يسألوني رحمتي، ولم يروني ويتعوذون بي من عذابي ولم يروني. فلم ير يوم أكثر عتيقاً، ولا عتيقة منه، ولا يغفر الله فيه لمختال » .

أخبرنا إسماعيل بن أحمد، قال: أخبرنا أبو الغنائم بن أبي عثمان بسنده، عن الصباح بن موسى، عن أبي داود الشَّعْبِي، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: لا يبقى أحدٌ يوم عرفة في قلبه مثقال ذرة من إيمان، إلا غُفِرَ له. فقال رجل: لأهل معرفت يا رسول الله أم للناس عامة؟ قال: لا بل للناس عامة .

فأما ثواب صائمه، فأخبرنا ابن الحصين بسنده عن عبد الله بن معبد، عن أبي قتادة أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سئل عن صوم يوم عرفة فقال: « كفارة سنتين » . وأخبرناه عالياً عبد الرحمن الأنطاقي بسنده عن عبد الله بن معبد، عن أبي قتادة أن رجلاً قال: يا رسول الله أرأيت صيام يوم عرفة؟ قال: أحتسب على الله أن يكفر السنة الماضية والباقية .

انفرد بإخراجه مسلم. وفي لفظ: إني أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله والسنة التي بعده » .

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن حماد بن سلمة، عن عطاء الخراساني أن

عبد الرحمن بن أبي بكر دخل على عائشة رضي الله عنها يوم عرفة، وهي صائمة، والماء يرشُّ عليها فقال لها عبد الرحمن: أفطري. فقالت: أفطر وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن صوم يوم عرفة يكفر العام الذي قبله ».

واعلم أن صومه مستحب لغير الحاج. فأما الحاج فلا يستحب له صومه ليتقوى على الدعاء ولكونه ضيقاً لله تعالى.

فأما ما يختص بالذكر فيه فمنه التكبير عقيب الصلوات المفروضات، فابتدأه في حق المحلّ: صلاة الفجر يوم عرفة. وفي حق المحرّم صلاة الظهر من يوم النحر، ويجتمعان في صلاة العصر آخر أيام التشريق. وصفة التكبير شفع: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، والله أكبر، والله الحمد.

ومن الأذكار ما أخبرنا به أبو الفتح ابن أبي القاسم بسنده عن حماد بن أبي حميد، عن عمران بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن النبي ﷺ قال: « خير الدعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير ».

وقد رويت صلاة ليوم عرفة ليس فيها شيء يصح، ولا يثبت فلذلك تنكّبناها.

وكان ابن عمر رضي الله عنها يُحيي ليلة النحر، وقد ذكرنا في فضل إحيائها حديثاً فيما تقدم.

واعلموا أن يوم النحر يوم عظيم قال ﷺ: « أفضل الأيام عند الله عز وجل يوم النحر، ثم يوم النفر ».

وقد سبق ذكر آداب العيد، وما يُفعل في يوم النحر، أن لا يأكل حتى يفرغ من الصلاة، وأن يضحى من أمكته.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال في الأضحية: « إنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها، وإن الدم ليقع من الله

بمكان قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفساً» .

وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: بكل شعرة حسنة . وقال صلى الله عليه وسلم لفاطمة رضي الله عنها: « قومي إلى أضحيتك فاشهديها ، فإن لك بكل قطرة من دمها أن يغفر الله لك ما سلف من ذنوبك . فقليل له : هذا لآل محمد خاصة ؟ قال : بل هي لآل محمد وللناس عامة » .

أنبأنا أحمد بن علي بن المجلى بسنده، عن عيسى بن علي بن عيسى بن داود ابن الجراح، قال: قرىء على أبي القاسم بن زيد، وأنا أسمع قيل له: حدثكم عمرو بن النضر الغزال، عن عصمة، عن أبي جعفر أنه قال: « أول قطرة من دم الأضحية كفارة لأربعة آلاف خطيئة » .

ومن شرف يوم النحر أن الله سبحانه وتعالى ابتلى به الخليل بذبح ولده، وقد ذكرنا القصة في أول الكتاب .

الكلام على البسمة

لك في المشيب أكْبَرُ الوعظ لو
أهدت الأربعون منه إلى لَيْـ
عاد فَوْدَاك والذوائب والعا
وهب الشيبُ قَوْسه لك واعتا
عَمَلُ المرء كالتجارة عند المو
فلحَى اللهُ مَعْشراً لا يبرون الذَّ
كلُّ ذي غفلةٍ تراه بخيلاً
بات من جهله وأضحى يظن الـ
كذَّبتَه الظنونُ ما العيد إلا

فكَّرتَ يا مُعرضاً عن الوعظ صَفْحَا
ل عِذَارَيْتِكَ والمفارق صُبْحَا
رض فَعَجراً من بعدما كُنَّ جُنْحَا
ض على الكرَّة من شِطَّاطِكَ رُمْحَا
ت يَرى خُسْرانها والرَّيْحَا
مَ دَمًا لهم ولا المدائِح مَدْحَا
بِحُطَام الدنيا وبالدين سَمْحَا
عيد فِطْراً يأتي عليه وأضحى
لامرئٍ آمِنٍ من النار لَفْحَا

لله در أقوام أعيادهم قبولُ الأعمال، ومرادهم أشرف الآمال، وأحوالهم تجري على كمال، وحلّاهم التَّقَى، ويا له من جمال .

أنبأنا زاهر بن طاهر بسنده عن محمد بن يوسف بن عبد الله قال : سمعت أبا ثابت الخطاب يقول : رأيت فتحاً الموصلي في يوم عيد أضحى وقد شمَّ ريح العناز فدخل إلى زقاق فسمعته يقول : تقرب المتقربون بقربانهم ، وأنا أتقرب بطول حزني ، يا محبوباً كم تركني في أزقة الدنيا محزوناً . ثم عُشيَ عليه ، وحُمِل فدفناه بعد ثلاث .

أين من ضحى بشهوات نفسه فأمات حظها ، أين من حثها على لحاق السلف الصالح وخصها ، أين من خوفها حسابها ، وحدرها عرضها ، أين من قطع من طول المجاهدة طولها وعرضها ، وأين أدرك من مقامات المقبولين ولو بعضها ، أين من أعمل عزائم الوفاء وأهمل همم الجفاء وقصد نقضها ، يا من يسر بعيد ، وقد تعدى الحدود ، أترضى أن تحشر فتتحسر لفوات المقصود . لقد أسمعك المواعظ من إرشادها نصحا ، وأخبرك الشيب أنك بالموت تُقصد وتُنحى ، وشرح الزمان حال من شرح قبلك شرحاً . أين من فرح بعيد الفطر وعيد الأضحى ؟ أما تزود الخنوط من العطر ، وفي القبر أضحى ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً ﴾ (١) .

جَمَعُوا لِيَنْتَفِعُوا فَلَمَّا أَنْ دَعَوْا	أَمْوَالَهُمْ حِينَ الرَّدَى لَمْ تَنْفَعِ
وَاسْتَدْفَعُوا بِالْمَالِ كُلَّ مَضْرَةٍ	حَتَّى أَقَى الْأَمْرَ الْعَزِيزُ الْمُدْفَعِ
وَكأنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الَّذِي	جَمَعُوا بَمَرَأَى لِلخُطُوبِ وَمَسْمَعِ
هَتَفَ الْحِمَامَ بِكُلِّ حَيٍّ مِنْهُمْ	فَأَجَابَهُ مُسْتَكْرِهَا كَالطَّيْعِ
وَأَرَاهُمْ فِي مَضْجَعٍ وَأَتَاهُمْ	مَنْ مَطَّلَعَ وَسَقَاهُمْ مِنْ مَكْرَعِ

يا من كلما جذب عن لوه رسب ، هذا يريد الموت لك في الطلب ، بادر قبل القوات فالزمان يُنتهب ، وانتظر سلب الدهر ما وهب ، أين الجامع المانع للذهب ؟ ذهب ، أين مُخاضم الأقدار ، قل لي من غلب ؟ أتاه الفاجع فاقترب وما ارتقب ، وأبرزه من قصره ولطالما احتجب ، يا معرُضاً عنا عنك التعب ، يا

(١) الانشاق ٦ .

هاجرأ لنا إلى كم ذا الغضب، يا مُضغَة يا علقَة خِدْمَتنا نَسب، يا مُؤثراً غيرنا
 بعث الدُرَّ بالخشب، أما يسوقك إلى الخير ما يشوق؟ أما يعوقك عن الضَّير، ما
 يعوق؟ متى ترجع حرّاً يا مرَّقوق، متى تصير سابقاً يا مسبوق،، إياك والهوى،
 فكم قتل عاشقا معشوق، أولُ الهوى سهَّل، ثم تتخرق الخروق، كلما حُصد نباته
 يَنْجَل الصبر أخرجت العروق، إن لَدَّ شربه في الفم، فشربه شجاً في الحُلوق،
 وإنما لذَّات الدنيا مثل خَطْف البروق، ميّز بين ما يفنى وما يبقى ترى الفروق،
 خَلَّ خِلَّ التواني إن أردت أن تفوق، تالله ما نصحك إلا مُحبّاً، أو صدوق.

ستعلم أيها العاصي ما أتيت، وستدري يوم الحساب من عصيت، وستبكي دماً
 لِقُبْح ما جنَّيت، كأنك بالموت قد جاء فانتهيت وارِعَويت، وتذكَّرت تلك
 الخطايا فتعست وبكيت، وأخْلِي منك البيتُ شئت، أو أبيت، وصحت بلسان
 الأسف: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِي﴾^(١) وليت، انهض يا حيّاً قادراً قبل أن تسمي باسم
 ميت، ويحك تأمل أمرك وافتح عينيك، ويحك كم تُعبي من الذنوب عليك، إن
 سهام الموت قد فوّقت إليك، اقبل نصحي، وقم نادماً على قدميك، وأحسّها
 أرضَ عرفة، وقل: لبيك اللهم لبيك.

الكلام على قوله تعالى

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾^(١)

قال المفسرون: لما فرغ إبراهيم عليه الصلاة والسلام من بناء البيت أمره الله
 تعالى أن يؤذّن في الناس بالحج، فقال إبراهيم: يا رب وما يبلّغ صوتي؟ قال:
 أذّن وعلّيّ البلاغ، فعلا أبا قُتَيْبَس وقال: يا أيها الناس، إن ربكم قد بنى بيتاً
 فحجّوه. فأسمع من أصلاب الرجال وأرحام النساء ممن سبق في علم الله عز وجل
 أن يحج فأجابوه: لبيك اللهم لبيك.

وقوله: ﴿رِجَالًا﴾ أي مُشاة. وقد حج إبراهيم وإسماعيل ماشيين، وحج

(١) الحج ٢٧.

الحسن بن علي عليهما السلام خمساً وعشرين حجةً ماشياً، والنجائب تُقَاد معه،
وحج أحمد بن حنبل رضي الله عنه ماشياً مرتين.

سجع على قوله تعالى

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾^(١)

أمر الله نبيه الخليل بعد بناء بيته الجليل أن ينادي عبيده إلى الفضل الجزيل،
ليحطّ عنهم مولاهم كلّ وزرٍ ثقيل، فقال سبحانه وتعالى ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ
بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾.

يا إبراهيم نأدهم ليحصل نفعهم في معادهم، وأزعجهم بندائك من بلادهم،
وأخرجهم عن أهلهم وأولادهم، فليقصداوا بابي مُسرّعين عَجَلاً ﴿وَأَذِّنْ فِي
النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾.

يا غافلاً عني أنا الداعي، يا متخلفاً عن زيارتي، أنا ألقى الساعي، يا
مشغولاً عن قصدي لو عرفت اطلاعي، أنا أقمتُ خليلي يدعو إلى سبيلي،
وأقبلت بنتولي على محبي إقبلاً ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾.

لله درّ أقوام فارقوا ديارهم، وعانقوا افتقارهم، وآثروا غبارهم وطهروا
أسرارهم، يدعون عند البيت قريباً سميعاً، ويقفون بين يديه بالذل جميعاً،
ويسعون في مراضيه سعيّاً سريعاً، وقد ودّعوا مطلوب شهواتهم توديعاً، فأفادهم
مولاهم أن رجّعهم كيوم أخرجهم أطفالاً.

هجرُوا الكدر، وهاجروا إلى الصفا، وقصدوا المروة، بعد أن أمّوا الصفا،
وحذروا الردّ وخافوا الجفا، وتعلقت آمالهم بمن هو حسبهم وكفى.

نادِ زوّاري أنا أدعوهم نحو بيتي لينالوا شرفاً
فهم وفدي إذا ما نزلوا بحريمي إذ دنّوا مُزدلفاً

(١) الحج ٢٧.

ولهم عندي مزيدٌ ولهم من نوالي ما أحبوا طَرَفًا
فارقوا أوطانهم إذ قصدوا نحو باي يَطْلُبون الزُّلْفَى
فلهم منِّي مها أَمَلُوا سلفاً يَنمى وَيُنْشِي خَلْفًا

قد أحرَمَ القومُ على الحلال فأحرَموا أنتم عن الحرام، منعوا أنفسهم من
الطَّيب فاحذروا أنتم جيْفة الهوى، يا حُسْنهم وقد نَزَعوا المَخِيط، ونَزَعوا عن
التضييع والتفريط، وملأوا بالتضرع البسيط، فارقوا لأجل مولاهم أولادهم،
وأعروا عن رقيق الثياب له أجسادهم، وتركوا في مَرَاضِيَة محبوبهم ومُرادهم،
فأصبحوا قد أعطاهم مولاهم وأمَسوا وقد أفادهم.

استسَعاهم إليه فاجتهدوا وجدُّوا، وتزوَّدوا التقوى في طريقهم واستعدوا،
وأتعبوا الأعضاء في خدمته وكَدُّوا، وطرقوا بأنامل الرجاء بابَ اللَّجَأ، فما
رُدُّوا، ناداهم وهم في الأصلاب والأرحام، واستصلحهم لزيارة بيته الحرام،
وأكرمهم بالغفران فيا نعم الإكرام، ورَحِمَ شَعَثَ الرءوس وغُبَارَ الأقدام، وأنتم
إن بَعُدْتُمْ عن ذلك المقام، فقد شاركتموهم في الإيمان والإسلام، فارغبوا
بالتضرع إلى المليك العلام، فإنه معروف بالفضل موصوف بالإنعام.

ذكر عن مالك بن أنس رحمه الله تعالى قال: صحبت جعفر الصادق رضي
الله عنه، فلما أراد أن يلبِّي تغَيَّرَ وجهه وارتعدت فرائضه فقلت: ما لك يا بن
رسول الله ﷺ؟ فقال: أردت أن ألبي. قلت: فما يوقفك؟ قال: أخاف أن
أسمع غير الجواب!

وقف مُطَرَّف، وبكر ابنا عبد الله فقال مُطَرَّف: اللهم لا تردَّهم من أجلي.
وقال بكر: ما أشرفه من مقام لولا أفي فيهم!

وروي عن الفضيل بن عياض أنه وقف بعرفة والناس يدعون وهو يبكي
بكاء الثكلى المحترقة، فلما كادت الشمس أن تسقط قبض على لحيته، ثم رفع رأسه
إلى السماء وقال: وآسوأته منك وإن عَفَوْتُ!

أخبرنا أبو بكر بن حبيب بسنده عن علي بن هزارد الصوفي قال: سمعت ابن محبوب تلميذ أبي الأديان يقول: ما رأيت خائفاً إلا رجلاً واحداً، كنت بالموقف فرأيت شاباً مُطرقاً منذ وقف الناس إلى أن سقط القُرْصُ، فقلت له: يا هذا ابسط يدك للدعاء، فقال لي: تَمَّ وَحَشَّةٌ. فقلت له: فهذا يوم العفو عن الذنوب. قال: فبسط يده ووقع ميتاً.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب بسنده عن أبي بكر محمد بن داود الدينوري قال: سمعت أبا عبد الله بن الجلاء يقول: كنت بذى الحليفة وشاب يريد أن يُحْرَمَ، فكان يقول: يا رب أريد أن أقول: لبيك اللهم لبيك، فأخشى أن تجيبني بلا لبيك، ولا سَعْدِيكَ. يردّد ذلك مراراً، ثم قال: اللهم لبيك. مدّها صوتها، وخرجت روجه. رحمة الله عليه.

وقال سريّ: لقيت في طريق الحج حبشية فقلت: إلى أين؟ قالت: الحج. قلت: الطريق بعيد. فقالت:

بعيدٌ على كَسَلانٍ أو ذِي مَلالَةٍ فأما على المشتاق فهو قريبٌ
ثم قالت: يا سريّ إنهم يروّنه بعيداً ونراه قريباً، فلما وصلت البيت رأيتها تطوف كالفتى الشاطر، فنظرت إليها فقالت: يا سريّ أنا تلك العبدة لما جئته بضعفني حَمَلني بقوّته.

لما حجَّ الشَّيْلي، وأشرف على جدران مكة قال:

أَبْطَحان مكة هذا الذي أراه عياناً وهذا أنا!
ثم غُشي عليه، فلما أفاق قال:

هذه دارهُم وأنت مُجِيبٌ ما بقاء الدموع في الآماق

أخبرنا أحمد بن أحمد الهاشمي، وحدثنا عنه ابن ناصر، قال: أخبرنا أحمد بن علي بن ثابت بسنده عن الحسين بن عبد الرحمن قال: حج سعيد بن وهب ماشياً

فبلغ منه وجهه فقال :

قَدَمِيَّ اعْتَوِرَا رَمَلِ الْكَثِيبِ واطرقبا الآجِنَ من ماء القَلِيبِ
رُبَّ يَوْمٍ رُحِمَا فِيهِ عَلَى زَهْرَةَ الدنِيا وفي وادِ خَصِيبِ
وَسَمَاعٍ حَسَنِ مِنْ حَسَنِ صَخْبِ الْمِزْهَرِ كَالطَّبِّي الرَّيِّيبِ
فاحسبا ذاك بهذا واصبِرا وخُذا من كل قَنِ بنصِيبِ
إنما أمشي لأني مُذْنَبِ فلعل الله يعفو عن ذنوبي

كأني الآن بالمحامل تئنّ، وبالزّوأمّل تحنّ، وبالطّيّ تُرزم، وبالخفون تُسجِم،
والشوقُ إلى البيت قد عمّل عمله، والمؤمّل يلاحظ أمله :

ولي أتة الشاكي وإن بُعد المدى ما بيننا وتنفسُ المكروبِ

قوله تعالى

﴿وعلى كل ضامر﴾^(١)

أي رُكباناً على ضُمر من السفر. نجائب تحمل الأحمال، صوابر على
الإنضاء والإتعب، ترقل بالزائرين إلى رب الأرباب، ادخرت لهم التحف
والبشائر، ونظرت إلى صبرهم على فراق العشائر، ودعوتهم إلى نيل الأمل
الوافر، ورحمت شعث الشعث وغبار المسافر، وكتبت في حسناتهم خطوات كل
ذي خُفّ وحافر، وأربحت تجارة كل واردٍ نحووي وصادر، وأعدت لهم إلى منازلهم
وما فيهم خاسر، فنادهم: ﴿يأتوك رجلاً وعلى كل ضامر﴾.

قوله تعالى

﴿يأتين من كل فج عميق﴾

يأتين: فعل للنوق. وقرأ الأعمش وابن أبي عبلة ﴿يأتون﴾ على أنه فعل

(١) الحج ٢٧.

للرجال، والنج العميق: المكان البعيد.

صبروا على مشاق الطريق بين هبوط، وصعود ومضيق، واحتملوا لأجلي خلق الرفيق، ورضوا من فريقهم بالبعد والتفريق، وحديث بهم المطايا من كل بلد سحيق، وجانبوا ما يشين وصاحبوا ما يليق، وصابروا ظلماً الشفاء وقلة الريق، فلأسقينهم يوم لقائي من السلسيل والرحيق، فنادهم ﴿يأتوك رجالاً وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فج عميق﴾.

قوله تعالى

﴿ليشهدوا منافع لهم﴾

وهي ربح التجارة في الدنيا والثواب في الآخرة.

سبحان من إلى بيته حملهم ويفناؤه أنزلهم، وإلى حرّمه أوصلهم، وبإخلاص قصده جمّلهم، فلقد جمع الخير الجمّ لهم ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾.

حرّكهم بتوفيقه فثاروا، واستدعاهم إلى بيته فساروا، وأوصلهم إلى حرّمه فزاروا، فبأحسنهم في الطواف إذا سقوا وداروا، واجتمعوا بالآمال حول البيت واستداروا، فضافهم من أضافهم إلى الأحباب وأنزلهم ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾.

يا كثرة ما أعطاهم من العطايا، يا شرف ما أنالهم من الهدايا، فلقد تلقّاهم بالجود والتحايا، وحطّ عنهم من الذنوب والخطايا ما أثقلهم. أتعبهم المشي وأزعجهم المركوب، وكان ذلك هيئاً في قُرب المحبوب، فأنعم عليهم بكل مطلوب، وقابلهم بالعفو عن الذنوب وقبّلهم. تعلقوا بذيل رحمتي ولطفي، وسألوني مودتي وعطفي، واشتغلوا بي دون غيري ويكفي ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم﴾ (١).

(١) السجدة ١٧.

إخواني: إن لم نصِل إلى ديارهم فلنصل انكسارنا بانكسارهم، إن لم نقدر على عرفات فلنستدرك ما قد فات، إن لم نصِل إلى الحِجْر، فلينلن كل قلب حَجْر، إن لم نقدر على ليلة جَمْع ومنى، فلننقم بمآثم الأسف ها هنا. أين المنيب الأواب أين المجدّ السابق، هذا يومٌ يُرحم فيه الصادق، هذا أوان يطلّع فيه الخالق، يا مؤملاً مثله قد لا يوافق، من لم يُنبّ في هذا اليوم، فمتى ينيب، ومن لم يُجب في هذا الوقت فمتى يجيب، ومن لم يتعرّف بالتوبة فهو غريب، ومن لم يُقرّ بالعفو فماله من نصيب، أسفاً لعبدٍ لم يُغفر له اليوم ما جنى، كلما همّ بخير نقض الطرد ما بنى، حضرّ مواسم الأرباح فما حصّل خيراً ولا اقتنى، ودخل بساتين الفلاح فما مدّ كفاً ولا جنّى، ليت شعري من منا خاب، ومن منا نال المنى. فيا إخواني: إن فاتنا نزول منى، فلننزل دموع الحسرات ها هنا، وكيف لا نبكي ولا ندري ماذا يُراد بنا، وكيف بالسكون وما نعلم ما عنده لنا:

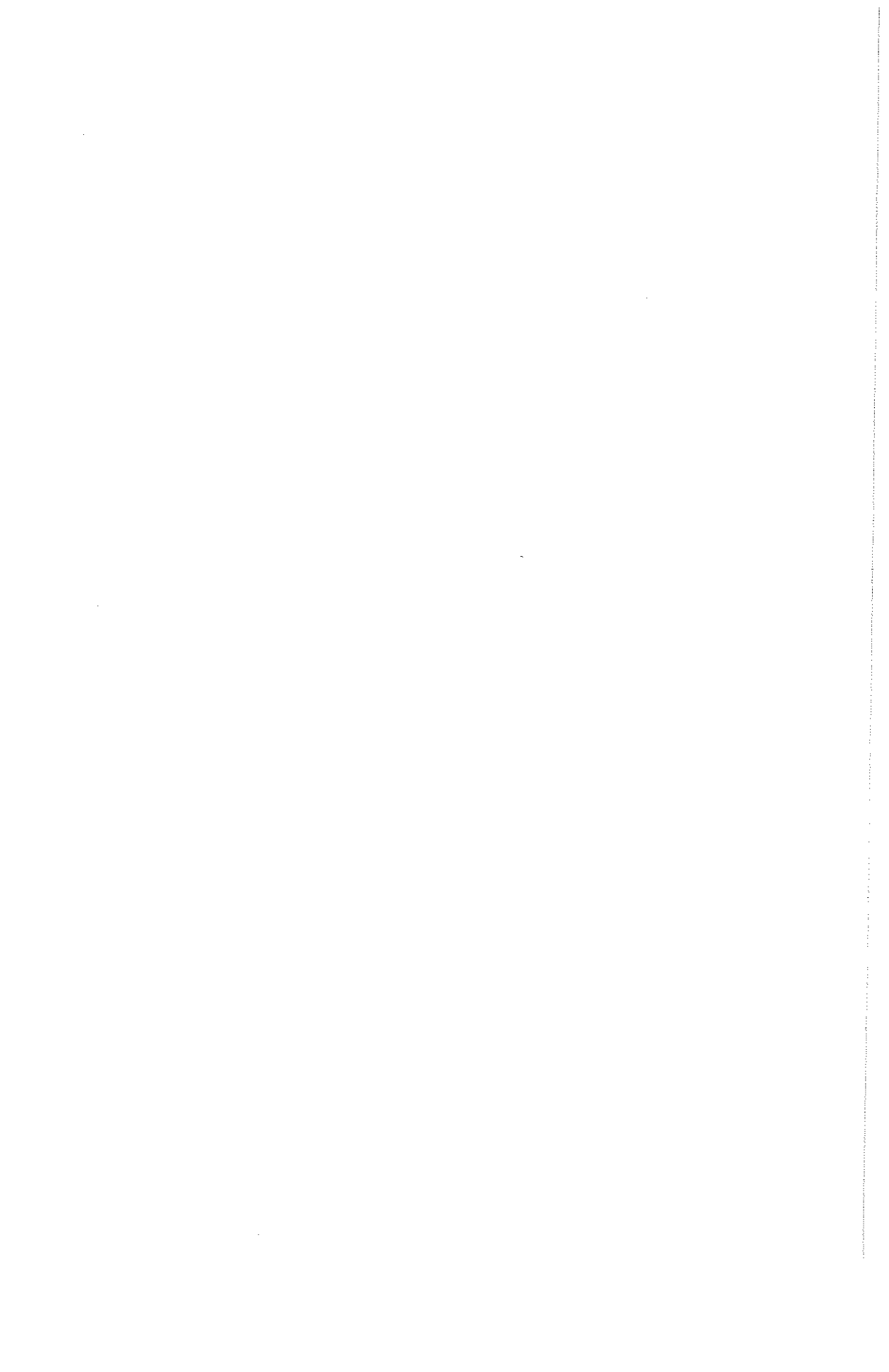
فلذا الموقفِ أعددنا البكا ولذا اليوم الدموع تُقتنسى

اللهم إنا نقف لك على الأقدام، كقيام القاصدين البيت الحرام، يا غافر الذنوب اغفر ذنوبنا، يا ستار العيوب استر عيوبنا، يا كاشف الكروب اكشف كربنا، يا منتهى الآمال بلّغنا مطلوبنا. برحمتك يا أرحم الراحمين.

الطبقة الثالثة

تشتمل على ذكر خلق ابن آدم والأرض والسموات

فيها ثلاثة مجالس



المجلس الأول

يذكر فيه خلق ابن آدم

الحمد لله الخالق بقدرته ما دبّ ودرج، الفاتق بصنعتة ما التأم وارتج، الراتق بحكمته ما افترق وانفرج، الدالّ علّ وحدانيته بالبراهين والحجج، أنشأ الأبدان من النطف وحفظ فيها المهج، ونورّ العيون فأحسن في تركيبها الدّعج، وأنطق اللسان فأبان سبيل المراد ونهج، وعلمّ الإنسان البيان، فإذا خاصم فلج، بقدرته، سكن المتحرك فما زال ولا اختلج، ولهيئته تحرك الساكن فتغّير وانزعج، طوى اللطف في تكاليف الخلائق ودرج ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(١) خلق البحرين هذا عذب فُرات وهذا ملح أجاج ومرج، واستخرج بدائع الودائع من بواطن اللّجج، وعلمّ ما ظهر في الأرض، ورأى ما فيها ولج، بصير يرى جريان الدماء في باطن الودج، سمع يدرك بسمعه صوت الباكي إذا نشج، لا يخفى على بصره في سواد الليل سواد الثّج ولا يعزب عن سمعه أنين المدّنف يرجو الفرّج، أنزل كلاماً قديماً من ورد بجره ارتوى وابتهج، قرأناً عربياً غير ذي عوج. أحده حمد من جمع المحامد في حده ودرج، وأشهد أنه العظيم القدر الرفيع الدرّج، وأصلي على رسوله محمد الذي إلى قاب قوسين عرج، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق الذي لا يبغضه إلا الرّعاع الممج، وعلى عمر الذي يفوح من ذكره أذكى الأرج، وعلى عثمان الذي جمع الإنفاق إلى الصّهر فازدوج، وعلى عليّ المجمع على حبه، فإن خرج شخصاً من الإجماع خرج، وعلى عمه العباس الذي افتخر به بيت الخلافة وابتهج.

(١) الحج ٧٨.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١).

المراد بالإنسان هاهنا آدم عليه السلام. والسَّلَالَةُ فَعَالَةٌ، وهي القليل بما يُسَلُّ، فاستلَّ من كل الأرض. وقد روى أبو موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، وقد ذكرنا قصة آدم عليه السلام في أول الكتاب.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً﴾ يعني ابن آدم. والمراد بالنظفة المني ﴿في قرار﴾ يعني الرحم ﴿ومكين﴾ أي حريز قد هبىء لاستقراره فيه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّظْفَةَ عَلَقَةً﴾ والعلقة دَمٌ عَبِيْطٌ جامد. وسميت عَلَقَةً لتعلقها بما تمرُّ به، فإذا جفَّت فليست عَلَقَةً. والمُضْغَةُ لَحْمَةٌ صغيرة، وسميت بذلك، لأنها بقدر ما يُمَضَّغ.

﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَّوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ (٢). وفي محل هذا الإنشاء قولان: أحدهما: بطن الأم. ثم صفة الإنشاء فيه قولان: أحدهما: نفخ الروح. رواه عطاء عن ابن عباس، وبه قال أبو العالية والشَّعْبِيُّ.

والقول الثاني: أنه بعد خروجه من بطن أمه.

ثم في صفة هذا الإنشاء أربعة أقوال:

أحدها: أن ابتداء ذلك الإنشاء أنه استهل، ثم دُلَّ على الثَّدْيِ وتقلَّب من حال إلى حال. رواه عطية عن ابن عباس.

والثاني: أنه استواء الشَّبَاب. قاله ابن عمر.

والثالث: خروج الأسنان والشعر. قاله الضحَّاك.

(١) المؤمنون ١٢.

(٢) المؤمنون ١٤.

والرابع: إعطاء العقل والفهم. حكاه الثعلبي.

﴿فَبَارِكْ اللَّهُ﴾ أي تعالى ورَقَع ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(١) أي المصوِّرين

والمقدِّرين.

أخبرنا هبة الله بن محمد، أنبأنا الحسن بن علي التميمي، أنبأنا أحمد ابن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: « إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضعاً مثل ذلك، ثم يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: رزقه وأجله وعمله وشقيّ أم سعيد. فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل له بعمل أهل النار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها. »

أخرجاه في الصحيحين.

وفي أفراد مسلم من حديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً، فصورها وخلق سمعها وبصرها، وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى، فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك. ثم يقول: يا رب رزقه؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده، فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص. »

قال علماء المتطبِّين: أول الأحوال الحادثة في المني أن يكون له زبد، ثم يوجد النفخ مندفعاً إلى وسط الرطوبة إعداداً لمكان القلب، ثم تتميز الأعضاء ويتنحى بعضها عن مماسة بعض، ويحيط بالجنين ثلاثة أغشية: غشاء تُنسج فيه العروق، وغشاء ينصب فيه بؤل الجنين، وغشاء يجمع الرطوبة إلى ترشح من الجنين.

(٣) المؤمنون ١٤.

وللرأس أربعة عظام: [ثلاثة] كالجدران وواحد كالقاعدة، وجعلت هذه الجدران أصلب من اليافوخ، لأن السقطات والصدمات عليها أكثر، ويخفف القحف لمعينين:

أحدهما: لثلاث يتنقل على الدماغ.

والثاني: لينفذ منه البخار.

ومن العظام ما هو أساس للبدن كفقار الصلب يُبنى عليه، كما يُبنى السقف على الخشبة الأولى، ومنها كالمجنّ كالقحف، فإنه جنة للدماغ من الآفات. وخلق جوهر الدماغ بارداً رطباً ليناً دسماً. فأما برده فلامرين:

أحدهما: تعديل الحرارة التي تنفذ إليه من القلب.

والثاني: لثلاث يحترق لكثرة ما يتأدى إليه من حركات الروح في التخيل والفكر [والتفكر والذكر]. وهذه القوى الثلاث مسكنها الدماغ، فموضع التخيل البطنان المقدمان من بطون الدماغ، وموضع الفكر البطن الأوسط، وموضع الحفظ المؤخر من بطون الدماغ. وأما رطوبته ولينه فلثلاث تُجفّفه الحركات، وأما خلقه دسماً، فليكون ما ينبت فيه من العصب ليّناً.

وقد جُلّل الدماغ بغشاءين:

أحدهما: رقيق يليه، والآخر صفيق يلي العظم. وإنما خلقا ليكونا حاجزين بين الدماغ والعظم.

وأما العين فإنما جعلنا اثنتين ليتكونا إذا عرضت لإحداها آفة قامت الأخرى بالبصر، وكل عين مركبة من عشرة أجزاء، وهي سبع طبقات وثلاث رطوبات، والطبقات كقشور البصل إن أصابت بعضها آفة نابت الأخرى. والرطوبات يقع النظر بالوسطى، وهي صافية منيرة. والرطوبتان من جانبيها، فواحدة موضوعة خلفها تقرب من طبيعتها تتناول الغذاء، أو تقلبه إلى طبعها، فتتناول منه الرطوبة المبصرة. والرطوبة الثانية تُنّدي المبصرة لثلاث تجفّف. وخلق

الهُدْبُ ليدفع ما يطير إلى العين وليعدّل الضوء بسواده .

وأما الأذن فجعل لها صدف مُعَرَّج ليجمع الصوت . وخلق الأنف لينحصر فيه الهواء فيعتدل في حلوله قبل أن يَنفُذ إلى الدماغ والرئة، ثم هو سِتْر للفضلات المنحدرة . واللسان آلة لتقليب الممضوغ، وتقطيع الصوت في إخراج الحروف، وإليه تمييز الذوق .

والشفتان غطاء للخم والأسنان ومحسباً للعباب، ومُعِيناً على الكلام وجبالاً .

واللِّهَاءُ: جوهر لَحْمِي معلق على أعلى الخنجر، ومنفعته تدريح الهواء لئلا يَقْرَع ببرده الرئة فجأة . وليمنع الدخان والغبار كأنه باب مُوصد على مخرج الصوت بقدره .

والأسنان اثنان وثلاثون سِناً، فمنها ثِنْتَان من فوق، وثنيتان من تحت، ورباعيتان من فوق، ورباعيتان من تحت، ونابان من فوق، ونابان من تحت، ثم الأضراس وهي عشرون من كل جانب من الفم خمسة، فمنها الضواحك، وهي أربعة أضراس تلي الأنياب إلى جنب كل ناب من أسفل الفم، وأعلاه ضاحك، ثم بعد الضواحك الطواحن، ويقال لها: الأرحاء، وهي اثنا عشر طاحناً من كل جانب من الفم واحد من فوق، وواحد من أسفل، فالأنياب للكسر، والرباعيات للقطع، والأضراس للطحن .

وخرز العنق سَبْع، وفقار الصِّدْر إحدى عشرة فقرة، والصدر مؤلّف من سبعة أعظم، والساعد مؤلّف من عظمين متلاصقين يسميان الزندَيْن والفوقاني الذي يلي الإبهام أدق، والسفلافي أغلظ، لأنه حامل .

وعظام الأصابع غير مجوّفة لتكون أقوى على الثبات في الحركة والقبض، وطال بعضها لتستوي عند القبض . والظفر سند للأملة، وآلة للحك والتنقية .

والصُّلْبُ مسلك النخاع، والمعدة تهضم بجملة في لحمها وبجملة أخرى مكتسبة من الأجسام المجاورة، والطحال مُنْفَرَش تحتها من اليسار، وهو وعاء لبعض فضلاتها . وللكبد عرقان أحدهما يجذب إليها الطعام فيطبخه ويوجهه في

العرق الآخر إلى البدن ويبعث الماء منه إلى الكليتين، والرغوة الصفراوية إلى المرارة، والرسوب السوداوي إلى الطحال.

والقلب مخلوق من لحم قوي، ليكون أبعد من الآفات، وقد أميل يسيراً إلى اليسار ليعبد عن الكبد، وله زائدتان كالأذنين فهما كخِرَانتَيْن يَتَقَبَلان النسيم، ويُرسلانه إلى القلب بقدر.

والمرارة كيسٌ معلق من الكبد إلى ناحية المعدة، تجذب الخلط الغليظ والمرار الأصفر، فينقي الكبد عن الفضول ويسخنها، ولولا أن المرارة تجذب المرّة الصفراء لسرت إلى البدن مع الدم، فتولد منها البرقان الأصفر، فهي تجذبه وتغذف منه جزءاً إلى المعى، فيغسل ما فيها من الأثقال بلذعه وتحريكه لها، وجزءاً إلى المعدة ليعينها بجزارتها على الهضم.

وجميع عظام البدن بعدد أيام السنة يظهر منها للحبس مائتان وخمسة وستون، والباقية صغار تسمى السّمسمانية.

وقد روى مسلم في أفرادهِ من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: « خُلِقَ كُلُّ إنسانٍ من بني آدم على ستين وثلاث مائة مَفْصَلٍ، فمن كَبَّرَ اللهُ وَحَمِدَ اللهُ وَهَلَّلَ اللهُ وَسَبَّحَ اللهُ وَاسْتَغْفَرَ اللهُ وَعَزَلَ حجراً عن طريق الناس، أو شوكة أو عظماً، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر عدّد تلك الستين والثلاثمائة، فإنه يمشي حينئذ وقد زَحَرَخَ نفسه عن النار.»

وعضل البدن خمسمائة وتسع وعشرون عضلة.

والمرارة بيت الصفراء، والرئة بيت البلغم، والطحال بيت السوداء، والمثانة بيت البرودة والكلية بيت الشهوة، والقلب بيت النفس.

وفي بعض هذا ما يحرك الفكر فيوجب العلم بعظمة الخالق سبحانه، فيحث على امتثال أمره واجتناب نواهيه.

وقد كان بعض العلماء في مَرَكَبِ فهاج البحر، فأخَرَجَ كتابَ التشريح

ونشره نحو السماء كالمستشفع به، فأنكر قومٌ ذلك، فقال بعض العلماء: كأن يقول: يا من هذا من آثار حكيمته وصنعتة اكشف عنا!

الكلام على البسمة

لا تَرُقِدَنَّ لعينك السَّهَرُ
انظر إلى عَبرِ مصرِّفة
ما زِلْتَ تسمع أو ترى عَبراً
فإِذَا جَهَلْتَ ولم تجدْ أحداً
وإذا نظرت تريد مُعْتَبِراً
أنت الذي تُمسي وتصبح في الـ
أنت المصرِّف كان في صِغَرِ
أنت الذي تَنعاه خَلَقْتَهُ
أنت الذي تُعْطَى وتُسَلَّبُ لا
أنت الذي لا شيء منه له
والحادثات صُروفها عَجَبٌ
يَبغي بنو الدنيا عِمَارَتِها
عجباً من الدنيا ومن غيرِ الد
ما زِلْتَ مُذْ صُوِّرْتَ في سَقَرِ
يا من يؤمِّلُ أنتَ منتظر
ماذا تقول وأنت في غُصَصِ
ماذا تقول وقد وُضِعْتَ على
ماذا تقول وأنت في جَدَثِ
ماذا تقول وقد لحقت بما
تَبغي البقاء ولا بقاء لنا
كم قد عَفَتْ عينٌ لها أثَرٌ

وانظر إلى ما تصنع الغَيرُ
ما دام يمكن طَرْقَكَ النظرُ
إن لم يَخُنْكَ السَّمْعُ والبَصَرُ
فَسَلِ الزَّمانَ فعنده الخَبَرُ
فانظر إليك ففِيكَ مُعْتَبِرُ
دنيا وكل أمورهِ غَرُّ
ثم استقلَّ بشخصِهِ الكِبَرُ
يَنعاه مِنْهُ الشَّعْرُ والبَشَرُ
يُنْجيه من أن يُسَلَّبَ الحَذَرُ
وأحقُّ منك بِمالكِ القَدَرُ
والعيش فيه الصَّفْو والكَدَرُ
وَلِيخْرِبنَّ جَميعُ ما عمروا
نِيا وكيف تصرَّف الغَيرُ
وستنقضي وسيُنقضي السَّقَرُ
أَمْلاً يَطول، ولست تنتظرُ
ماذا تقول وأنت مُحْتَضَرُ
ظَهَرَ السَّرِيرِ وأنت تُبْتَدِرُ
ماذا تقول وفوقك المَدَرُ
يجري عليه الرِّيحُ والمَطَرُ
تَتعاور الرِّوْحَاتُ والبَكَرُ
درستَ ويَدْرُسُ بعدها الأَثَرُ

الدنيا مَعْبَرٌ فاقنع باليسير، وليكن همُّك في الرحيل والمسير، كم من جامعٍ لها

فرَّقته، ومن مُحب لها أهلكته ومزَّقته، ومن قنع بالبلُغة فيها سلِم، ومن أكثر منها أسِف وندِم .

عليك بتقوى الله واقنع برزقه فخيرُ عباد الله من هو قانعُ
ولا تُهَلِّك الدنيا ولا طَمَعُها فقد يُهَلِّك المغرورَ فيها المطامِعُ
وصبراً على نوبات ما ناب واعترفُ فما يستوي حُرٌّ صَبُورٌ وجازعُ
أعاذلُ ما يُغني الثراء عن الفتى إذا حَشَرَجت بالنفس منه الأضالعُ

مرّ أبو حازم رحمه الله عليه بجزار فقال: يا أبا حازم خذ من هذا اللحم.
فقال: ليس معي درهم. فقال أنا أنظرك. فقال: أنا أنظر نفسي.

وقال بكر بن عبد الله: يكفيك من الدنيا ما قنعت به .

كان ابن السَّكِّ رحمه الله يقول:

إني أرى من له قُنُوعٌ يَعْدِلُ من نالَ ما تَمَنَّى
والرزقُ يَأْتِي بلا عِناءٍ وربما فات من تَعَنَّى

كان وهب بن مُنَبِّه يعظ عطاء الخراساني ويقول له: ألم أخبر أنك تأتي الملوك
وتحمل علمك إليهم؟ يا عطاء ارض بالدُّون من الدنيا مع الحكمة، ولا تَرْضَ
بالدون من الحكمة مع الدنيا، ويحك يا عطاء إن كان يُغنيك ما يكفيك فإن
أدنى ما في الدنيا يكفيك، وإن كان لا يُغنيك ما يكفيك، فليس من الدنيا شيء
يكفيك .

نَصِفَ القُنُوعَ وأَيُّنا يَقْنَعُ أو أَيُّنا يَرْضَى بما يَجْمَعُ
لله دَرٌّ ذوي القناعة ما أصقَى معاشهم وما أوسَعُ
من كان يبغى أن يلدَّ وأن تُهدى جوارحه فما يَطْمَعُ
فَقَرَّ النفوس بقدر حاجتها وغنى النفوس بقدر ما تَقْنَعُ

عَمْرِي أُوَيْسَ رَحمة الله عليه، حتى جلس في قَوْصرة. وقدم بشر الخافي من
عبادان ليلاً وهو مُتَزَّرٌ بحصير. وكان أبو معاوية الأسود يلتقط الخِرْقَ من

الزابل ، ويغسلها ويلفّقها فيقال له : إنك تُكسى خيراً من هذا فيقول : ما ضَرَّهم ما أصابهم في الدنيا جَبَر الله تعالى لهم بالجنة كلّ مصيبة .

وأُتي إبراهيم بن أدهم بستين ألفاً فردّها وقال : كرهت أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء .

رأت عُدّي فاسترأست رَحيلي
ترجّي قُفولي لها في الثَّويّ
لقد قدّفت بي صَعَب المرامِ
سأقتى العفاف وأرضى الكفافِ
ولا أتصدّي لمُدح الجوادِ
وأعلم أن ثياب الرجاءِ
وأن ليس مُستغنياً بالكثيرِ
سبيلك إن سواها سبيلي
لعلّ المنية قبل القُفولِ
واستجملت لي غير الجميلِ
وليس غنى النفس جور الخليلِ
ولا أستعدّ لمُدح البخيلِ
تُحلّ العزیز محلّ الذليلِ
من ليس مُستغنياً بالقليلِ

كتب حكيم إلى أخ له : أما بعد فاجعل القنوع ذُخراً ، ولا تعجل على ثمرة لم تُدرِك ، فإنك تدركها في أوانها عَذبة ، والمدبرُ أعلم بالوقت الذي يصلح لما تؤمّل ، فثق بخيرته لك في أمورك كلها .

أخبرنا محمد بن عمر الفقيه بسنده عن يحيى بن عروة بن أذينة قال : لما أتى أبي وجماعة من الشعراء هشام بن عبد الملك ، فأنشدوه ، فلما عرف أبي قال : أُلست القائل :

لقد علمتُ وما الإسراف من خلقي
أسعى له فيعنيني تطلبه
أنّ الذي هو رزقي سوف يأتيني
ولو قعدت أتاني لا يعنيني

فهللاً جلست في بيتك حتى يأتيك ؟ فسكت أبي ولم يجبه ، فلما خرجوا من عنده جلس أبي على راحلته ، حتى أتى المدينة ، وأمر هشام بجوائزهم ، فقعد أبي فسأل عنه ، فلما خبّر بانصرافه ، قال : لا جرم والله ليعلمن أن ذلك سيأتيه . ثم أضعف له ما أعطى واحداً من أصحابه وكتب له فريضتين .

إذا ضَنَّ من ترجو عليك بنفعه فدعّه فإنّ الرزق في الأرض واسعٌ
ومن كانت الدنيا مُناه وهَمّه سباه المنى واستعبده المطامعُ
ومن عقل استحيى وأكرم نفسه ومن قنع استغنى فهل أنت قانعٌ

الكلام على قوله تعالى ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيْتُونَ﴾

يا من هو على محبة الدنيا مُتَهالك، أما علمت أنك عن قليل هالك، أما
تيقنت أن الدنيا محبوب تارك، ثم لست لها بعد العلم بها بتارك، قدر أنك ملكت
الممالك، أما الأخير سلبك من أهلك ومالك، هذا حسام الموت مسلول، ليس
بكال ولا مفلول، وكل دم أراقه مظلول، أذلّ والله أصعب الحُمس وفتك قبراً
بالأسود الشمس، وفلّ السيف ولم يُفلّ بالترس، وساوى في القبر بين الزنج
والفرس، وأعاد الفصحاء تحت البلاء كالحرس، ومحا بالترح أثر الفرح بالعرس:

يغدو ابن آدم للمعاش فيل قاه الحِمَام بأضيق الطَّرِقِ
لا يبهجن بملكه مَلِك فالبدر غايته إلى المحقِّ

أين الوالدون وما ولدوا، أين الجبارون وأين ما قصدوا، أين أرباب المعاصي
على ماذا وردوا، أما جنوا ثمرات ما جنوا وحصدوا، أما قدموا على أعمالهم في
مآلهم ووقدوا، أما خلّوا في ظلمات القبور؟ بكوا والله وانفردوا، أما ذلّوا وقلّوا
بعد أن عتوا ومرّدوا، أما طلبوا زاداً يكفي في طريقهم ففقدوا، أما حلّ الموت
فحلّ عقّد ما عقّدوا، عاينوا والله كلّ ما قدّموا ووجدوا، فمنهم أقوام شقّوا
وأقوام سعدوا:

لا والدٌ خالِدٌ ولا وِلْدٌ كلُّ جليد يَخُونه الجَلْدُ
كأن أهل القبور لم يسكنوا الدُّ ورّ ولم يخَيّ منهم أحدٌ
ولم يكونوا إلا كهيتهم لم يولدوا قبلها ولم يلدوا
يامن نعى من مضى كذاك غدّاً تُنعي، فبادر فقد أتاك غدّاً

يا ناسي الموت وهو يذكره مالك بالموت إذ أتاك يدُ
 دارك دارٌ يموت ساكنها دارك يبلي جديدها الأبدُ
 تبكي على من مضى وأنت غداً يوردك الموت في الذي وردوا
 لو كنت تدري ماذا يريد بك الـ مَوْتُ لأبكي جفونك السُّهُدُ

أين الذي ملكوا ونالوا؟ زالوا، وستتول إلى ما إليه آلوا، هذا مصيرنا
 يامعاشر الغافلين، واللحود بيوتنا بعد الترف واللين، والقيامة تجمعنا وتُنصّب
 الموازين، والأهوال عظيمة فأين المتفكّر الحزين ﴿إنما تُوعدون لآتٍ، وما أنتم
 بمُعجزين﴾ (١).

يا رهين الآفات والمصائب، يا أسير الطارقات النواذب، إياك وإيتا الآمال
 الكواذب، فالدنيا دارٌ، ولكن ليست بصاحب، أما أرتك في فعلها العجائب
 فيمن مشى في المشارق والمغرب، ثم أرتك فيك شيب الذوائب، إن سهام الموت
 لَصوائب، لا يردها محارب ولا يفوتها هارب، تدبّ إلينا ديبب العقارب، بينا
 نسمع صوت مزهر، صار صوت نادب، يا أسير حب الدنيا، إن قتلتك من
 تطالب، كأنك بك قد بيت فرحاً مسروراً فأصحت ترِحاً مَثُوراً، وتُرك
 مالك لغيرك موفوراً، وخرج من يدك، فصار للكُلّ شُورى، وعانيت ما فعلت
 في الكتاب مسطوراً، وعلمت أنك كنت في الهوى مغروراً، واستحالت صبا
 الصبّا، فعادت ذُبوراً، وأسكنت لحداً تصير فيه مأسوراً، ونزلت جدّاً خرباً إذ
 تركت قصرًا معموراً، ودخلت في خير كان ﴿وكان أمر الله قَدراً
 مقدوراً﴾ (٢).

وما هذه الدنيا بدار إقامة فيحزن فيها القاطنُ المترحلُ
 هي الدار إلا أنها كمفازة أناخ بها ركبٌ وركبٌ تحمّلوا
 وإنا لمن مرّ الجديدين في الوغى إذا مرّ منها جَحْفَلٌ كَرَّ جَحْفَلُ
 تجرّد نصلًا والخلائقُ مفصلٌ وتنبض سهماً والبرية مَقْتَلُ

(٢) الأحزاب ٣٨.

(١) الأنعام ١٣٤.

وما خَلَفْنَا مِنْهَا مَفَرًّا لِهَارِبٍ فكيف لمن رام النجاة التخيُّلُ
وكلٌّ وإن طال الثَّوَاءُ مَصِيرُهُ إلى مَوْرِدٍ ما عنه للخَلْقِ مَعْدَلُ

الموت مُسْرِعٌ مَجْدَةٌ غَيْرُ رَائِثٍ، والأموال عن قليل تَمْضِي للوارث، وكأنك
بوقوع الحادثات وحصاد الحارث، يا طويل الأمل هل قلبك لابت، لا تسمعن
المحال، فلست بماكث، يا مطالباً بالحِدة، وهو لاعب عابث، يا معاهداً باللسان
والعزم ناكث، يا من أعماله إذا فتشت خباثت، صرَّح الشَّيب، وطال ما مَجْمَع
ووضَّح فجره، وما كان قد تبَلَّج، أوضَّح طريق الحذر وبين المنهج، أين
الشباب؟ رحل مُسْرِعاً وَهَمَلِج، إنَّ نار الفراق في القلب تتأجَّج، إن فؤاد
المتفكر يكاد أن ينضج، هذه خيول الرحيل قد أقيمت تُسْرَج، والشكوك قد
أزيلت والحق أبلَّج، هذا وأنت بالمعاصي مُعْرَى وتَلْهَج، لك كأس من المنون
صِرْف لا يُمَزَّج، يا من هو في الكفن عن قليل مُدْرَج، يا لابساً حَلَّةً من البلاء
لم تُنْسَج، يا من بضاعته إذا نُقِدت كلها بَهْرَج، يا سالكاً طريق الهوى عَوْسَج،
كيف الطمع في المرتجى والباب مُرْتَج، يا من ضيقت الذنوب خِنَاقه أين المخرج،
يا عظيم فقرك في القبر من منك أحوج، ما هذا الغرور أي مطمئن لم يُزَعَج:

أخَلَقَ الدهرُ الشَّبَابَ الحَسَنَا ما أظن الوقت إلا قد دَنَا
قد قَطَعْنَا في التصابي بُرْهَةً وجررنا في الذنوب الرَسَنَا
وركبنَا عَيْنًا جهلاً به فوجدناه علينا لا لنا
وشرَّينَا الدُّونَ بالدِّينِ فما عُدْر من قد باع بيعاً غُنِيَا

لقد بان السبيل ولاح المنهج، فما للقلب عن الهدى قد عرَّج، أما يُزَعِّجك
الترهيب؟ أما يَشُوقُكَ الترهيب؟ إلام تروغ عن النصح روغان الذَّيب، وتلفَّت
إلى أحاديث المني الأكاذيب قف على باب ﴿وإن كُنَّا لخطائين﴾ (١) لتسمع: «لا
تترَّيب»، من التوفيق رَفُض التواني، ومن الخذلان مسامرة الأمانِي.

(١) يوسف ٩١.

إخواني: نذيركم قد صدق، والمجتهد قد سبق، وقد مضى نهارُ العمر، وبقي الشفق، وآخر جرعة اللذة شرّق، وصاحب الدنيا منها على فرق. رب غصن ناضر كسّر إذا سبق، رب زرع قامت سوقه رماه العرق. أين الرقيق ساقه سواق ما رفق، هذا وكلكم يدري أين انطلق، أما رأيتم مضجعه في القبر بالحدق، واعجباً لقلب المتفكر كيف ما احترق، أما شاهدتموه وقد تقطعت منه العلق، وتقمّص بعد عرّيه جلاباب الخوف والفرق، وخرس لسانه، وقد طال ما نطق:

فما تزودّ مما كان يجمعه إلا حنوطاً غداة البيّن في خرق
وغير نفخة أعوادٍ يشبّ له وقلّ ذلك من زادٍ لمنطلق

أيها المتيقظون وهم نائمون، أنبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون، كونوا كيف بشتم فستنقلون ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾ (١). يا مقيمين سرحلون، يا مستقرين ما تتركون، يا غافلين عن الرحيل ستظعنون، أراكم متوطنين تأمنون المنون ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾.

طول نهاركم تلعبون، وطول ليلكم ترقدون، والفرائض ما تؤدون، وقد رضيتُم عن الغالي بالدون، لاتفعلوا ما تفعلون ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾ أما الأموال فتجمعون والحقّ فيها ما تُخرجون، وأما الصلاة فتضيعون، وإذا صليتم تنفرون. أترى هذا إلى كم يكون ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾ أين العتاة المتجبرون، أين الفراعنة المتسلطون، أين أهل الخيلاء المتكبرون، قدرّوا أنكم صيرتم كههم، أما تسمعون، ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾ ما نفعتهم الحصون، ولا ردّ المال المصون، هبّت زعزع الموت، فكسرت الغصون، قدرّوا أنكم تزيدون عليهم ولا تنقصون ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾ تقلبوا من اللذات في فنون، وأخرجهم البطر إلى الجنون، فأتاهم ما هم عنه غافلون ﴿كم تركوا من جنات وعيون﴾ ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾.

لو حصل لكم كلُّ ما تحبون، ونما جميع ما تؤتون، ونلتُم من الأمانى ما

(١) المؤمنون ١٥.

تشتهون، أينفعكم حين ترحلون؟ ﴿ثم إنكم بعد ذلك لمتون﴾ . إلى متى وحتى متى تُنصحون وأنتم تكسبون الخطايا تجرحون، أأمنتم وأنتم تسرحون ذئباً هلاك، فلا تبرحون ﴿ثم إنكم بعد ذلك لمتون﴾ .

لا تفرحوا بما تفرحون، فإنه لغيركم حين تطرحون، وإياكم من يراكم من يراكم تفرحون، قد خسرتم إلى الآن فما ترجون ﴿ثم إنكم بعد ذلك لمتون﴾ .

ويحكم الدنيا دار ابتلاء وفتون، وقد زجركم عنها المفتون، وكم رأيت من هالكٍ بها مفتون، وكانكم بكم قد حملتم على المتون، كم أدلكم على النظافة وتختارون الأتون.

المجلس الثاني

في ذكر السموات وما فيهن

الحمد لله الذي رفع السموات مزينة بزينة النجوم، ومثبت الأرض بجبال في أقاصي التخوم، عالم الأشياء بعلم واحد، وإن تعدد المعلوم، ومقدر المحبوب والمكروه والمحمود والمذموم، لا ينفع مع منعه سعي، فكم مجتهد محروم، ولا يضر مع إعطائه عجز فكم عاجز وافر المقسوم، اطلع على بواطن الأسرار، وعلم خفايا المكتوم، وسمع صوت المريض المدنف المحروم، وأبصر وقع القطر في سحاب مركوم ﴿وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (١).

جل أن تحيط به الأفكار، أو تتخيله الوهوم، وتكلم فكلامه مسموع مقروء مرقوم، وقضى فقضاؤه إذا شاء إنفاذه محتوم، وبتقديره معصية العاصي، وعصمة المعصوم، ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (٢).

قضى على الأحياء بالمات، فإذا بلغت الحلقة فات المقصود المرام، وعزّ المطلوب المروم، ونقل الآدمي عن جملة الوجود إلى حيز المعدوم، وبقي أسير أرضه إلى يوم عرضه والقدوم، فإذا حضر حسابه نُشر كتابه المختوم، وجوزي على ما حواه المكتوب، وجمعه المرقوم ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ (٣).

أحمده حمداً يتصل ويدوم، وأشهد أنه خالق الأعيان والرسوم، وأصلي على رسوله محمد صلاة تبلغه على المروم، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق على السائل والمحروم، وعلى عمر المنتصف بين الظالم والمظلوم، وعلى عثمان المتهدج إذا رقد

(٣) طه ١١١.

(٢) البقرة ٢٥٥.

(١) الحجر ٢١.

النَّوْم ، وعلى عليّ الذي حاز الشرف والعلوم ، وعلى عمه العباس سيد الأعمام
على الخصوص والعموم .

قال الله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا
مِنْ فُرُوجٍ ﴾ (١) .

خلق الله عز وجل الماء ، فثارمنه دخان فبنى منه السموات . قال : قال أبو
القاسم ابن أبي برة : السماء بيضاء لكن من بعدها تُرى خضراء . وقال الربيع بن
أنس : السموات

أولها : مَوْجٌ مَكْفُوفٌ ،

والثانية : من صخرة ،

والثالثة : من حديد .

والرابعة : من صُفْرٍ ، أو نحاس .

والخامسة : من فضة .

والسادسة : من ذهب .

والسابعة : من ياقوتة حمراء .

وقال إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل القُبَّة .

وقال أبو الحسين ابن المنادي : لا اختلاف بين العلماء أن السماء على مثال الكرة
فإنها تدور بجميع ما فيها من الكواكب ، كدَوْر الكرة على قُطْبَيْن ثابتين غير
متحرّكين ، أحدهما في ناحية الشمال ، والآخر في ناحية الجنوب . وكرة الأرض
مبنية في وسط كرة السماء كالنقطة من الدائرة .

وفي حديث العباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « هل تدرّون كم
بين السماء والأرض ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : بينها مسيرة خمسمائة سنة ،

(١) سورة ق ٦ .

ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة . وكَفَّ كل سماء خمسمائة سنة ، وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعله ، كما بين السماء والأرض .

قال العلماء : وكذلك الأرضون السبع في كثافتها ، وبعُد ما بين الواحدة والأخرى فذلك مسيرة أربع عشرة ألف سنة ، سوى ما تحت الأرض من الظلمة والنور ، وما فوق السموات من الحُجب والظلمة إلى العرش . وهذا على قَدْر مسير الآدمي الضعيف ، فأما الملك ، فإنه يَحْرُق ذلك في ساعة واحدة .

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « إن الله عز وجل لما أبرم خلقه ، فلم يبق غير آدم خلق شمسين من نور عرشه ، ثم أرسل جبريل فأمر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات ، فمحا عنه الضوء وبقي فيه النور » .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الشمس تذهب حتى تسجد بين يدي ربه عز وجل ، فتستأذن في الرجوع فيؤذن لها » .

وأصغر النجوم بقدر الدنيا مرات . وفي السماء السابعة البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم لا يعودون إليه . وبعُد السماء السابعة سِدْرَةَ المنتهى إليها ينتهي ما يعرج من الأرض ، فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها .

وبعد هذا الكرسي . قال ﷺ : « ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة » ثم العرش ، وهو ياقوتة حمراء .

فأما الملائكة ففي أفراد مسلم من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور » .

ومن أعظم الملائكة خلقاً حملة العرش وعددهم اليوم أربعة أحدهم على صورة البشر قد وكل بالدعاء لنسل الآدمي ، والآخر على صورة النسر قد وكل بالدعاء لأجناس الطير ، والآخر على صورة الثور قد وكل بالدعاء للنسل البهيمي ، والآخر على صورة السبع قد وكل بالدعاء لأجناس السباع ، فإذا جاءت القيامة زيد فيهم أربعة .

أخبرنا عبد الأول بن عيسى، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة».

أخبرنا عبد الأول بسنده عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «إن الله عز وجل أذن لي أن أحدث عن ملك قد مرقت رجلاه الأرض وعنقه مثنية تحت العرش، وهو يقول: سبحانك ما أعظمك ربنا، قال: فیردّ عليه، ما یعلم ذلك الذي یحلف بن كاذبا».

وقال عبد الله بن سلام: لما خلق الله عز وجل الملائكة، واستووا على أقدامهم رفعوا رؤوسهم إلى السماء فقالوا: ربنا مع من أنت؟ قال: مع المظلوم حتى يؤدّي إليه حقه.

فأما أعمال الملائكة، فجمهورهم مشغول بالتعبّد كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (١).

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن مؤرّق، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء وحقّ لها أن تئطّ، ما فيها موضع أربع أصابع، إلا عليه ملك ساجد».

ومن الملائكة موكل بعمل، فمنهم حملة العرش قد وكلوا بحمله، وجبريل صاحب الوحي والغلظة، فهو ينزل بالوحي، ويتولى إهلاك المكذّبين، وميكائيل صاحب الرزق والرحمة وإسرافيل صاحب اللوح والصّور، وعزرائيل قابض الأرواح، وله أعوان وهؤلاء الأربعة هم المقسمات أمراً. ومنهم كتّاب على بني آدم وهم المقبّات، ملكان في الليل وملكان في النهار.

أخبرنا هبة الله بن محمد، أنبأنا الحسن بن علي، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام،

(١) الأنبياء ٢٠.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « الملائكة يتعاقبون فيكم، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر، وصلاة العصر، ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم: كيف تركتم عبادي؟ فقالوا: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون ».

أخرجاه في الصحيحين.

ومنهم موكل بالشمس، ومنهم موكل بالقطر، والرعد صوت ملك يزرع السحاب، والبرق ضربه إياه بمخاريق. ومنهم موكل بالرياح والأشجار. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس من شجرة تخرج إلا معها ملك موكل بها.

ومنهم ملائكة سيّاحون في الأرض يتبعون مجالس الذكر، وملائكة يبلّغون رسول الله ﷺ من أمته السلام، وملائكة موكلون بمكة والمدينة ليمنعوا عنهما الدجال إذا خرج.

ومن الملائكة من هو مشغول بغرس شجر الجنة.

قال الحسن: إن أحدهم ليفتر فيقال له: مالك؟ فيقول: فتر صاحبي عن العمل. فكان الحسن يقول: أمدّوهم رحكم الله.

وقال كعب: إن في الجنة ملكا يصوغ حلية أهل الجنة منذ يوم خلق إلى أن تقوم الساعة!

أخبرنا محمد بن ناصر، عن صفوان بن عمر وقال: سمعت خالد بن معدان يقول: إن لله عز وجل ملائكة أربعة يسبحون تحت العرش، يسبح بتسبيحهم أهل السموات، يقول الملك الأول: سبحان ذي الملك والملكوت. ويقول الثاني: سبحان ذي العزة والجبروت ويقول الثالث: سبحان الحي الذي لا يموت.

وقال هارون بن رثاب: حلة العرش ثمانية يتجاوبون بصوت رخم تقول أربعة: سبحانك وبمحمدك على حلمك بعد علمك، وتقول الأربعة الأخر: سبحانك وبمحمدك على عَفْوِكَ بعد قُدْرَتِكَ.

وقال سعيد بن جبير: « أتى جبريلُ النبيَّ ﷺ فقال: إن أهل السماء الدنيا سجدوا إلى يوم القيامة، وأهل السماء الثانية ركعوا إلى يوم القيامة، وأهل السماء الثالثة قيام إلى يوم القيامة ». وقد روينا أن ملكاً نصفه من نار، ونصفه من ثلج، وهو يقول: يا من أَلَّفَ بين الثلج والنار، فلا النار تذيب الثلج، ولا الثلج يطفىء النار، أَلَّفَ بين عبادك المؤمنين.

الكلام على البسمة

بينما المرء غافل إذ أتاه	من يد الموت سالب لا يُصدِّدُ
فتأهَّبُ لما له كلُّ نفسٍ	عُرْضَةَ الأَسْرِ إنما الأمرُ جدُّ
خاب من كان همه هذه الد	نيا فأضحى من نيلها يَسْتَمِدُّ
فجَنَّها إن أسعدت مُستعار	ليس من ردّه لمن نال بُدُّ
كم أدالت من أهلها وأزالت	ذا جلال من نعمة لا تُحدُّ
بدلته من طيب معناه فقراً	عادماً ما حوى ولم يُغنِ جدُّ
أين من كان ناعم الوجه أضحى	ما له من نهاية الحسن ضيدُّ
قد محاه ثراه حين حواه	وهى معصم وكف وزندُّ
وجفا أنسه أخ كان برّاً	وصديق دان وصحب وجندُّ
واستوى في البلى رئيس ومرُّ	ؤوس وأعيان بالأسر حرُّ وعبدُّ

يا غافلاً قد طُلب، يا مخاصماً قد غُلب، يا واثقاً قد سُلِب، يا حازماً قد خُلب كأنه به قد قُلب، إياك والدنيا فما الدنيا بمأمونة، وتزوّد للسفر، فلا بد من مؤونة، إذا قدرت على الكمال فلا ترضِ دونه، واصدق في أمرك تأتلك المعونة، أين المغرورون بغرورها أين المسرورون بسرورها؟ صاح بهم الموت فأجابوا، واستحضرهم البلى فغابوا، ظنوا بلوغ الآمال وتوهموا، واعتقدوا دوام السلامة فلم يَسَلَمُوا، وأعلموا بالرحيل، وكأنهم لم يعلموا؛ وناولوا أنفسهم أعتة الهوى وسَلَمُوا، كم هتف بهم نذير الفراق فلم يفهموا، فلما بلغوا منتهى الآجال ولم يظلموا، خلّوا في الحادهم بما كانوا قدّموا.

وَلَسْنَا بِأَبْقَى مِنْهُمْ غَيْرَ أَنْنَا أَقْمَنَا قَلِيلًا بَعْدَهُمْ وَتَقَدَّمُوا

أَفْ لِنَفْسٍ تُؤْتِرُ مَا يَصِيرُهَا، مَا تَرَعُوِي، وَقَدْ مَرَّ نَظِيرُهَا، مَا تُصْنَعِي إِلَى
المواعظ، وَقَدْ قَالَ نَذِيرُهَا، أَمَا نَهَاهَا لَمَّا عَلَاهَا قَتِيرُهَا، أَمَا لَاحَ لَبِصَرِ البَصِيرَةِ
مَصِيرُهَا، أَمَا يَرْجِعُ إِلَى العُقُولِ مُسْتَشِيرُهَا، أَتَقْدِرُ عَلَى نَفْسٍ إِنْ تَلَفَتْ تَسْتَعِيرُهَا؟
قُلْ لِهَذَا النَفْسِ الجَهُولَةِ فِي فِعْلِهَا وَيَجْهَلُهَا إِنَّمَا تَسْعَى فِي قَتْلِهَا، أَمَا لَهَا عَيْرٌ مِمَّنْ كَانَ
قَبْلُهَا، كَأَنَّهَا بِهَا تَبْكِي عَلَى الأَيَامِ كُلِّهَا، إِذَا حَانَتِ المَنِيَةُ وَبَعَثَتْ بَعْضَ رِسَالِهَا،
وَعَبَثَتْ يَدُ القَاطِعِ بِمَوْصُولِ حَبْلِهَا، وَامْتَدَّتْ كَفُّ الأَجْلِ إِلَى عَرَى الأَمَلِ تَحْلُهَا.

تَسَاوَى النَّاسُ فِي طُرُقِ المَنَايَا فَمَا سَلِمَ الصَّرِيحُ وَلَا الهَجِينُ
تَدْيِيًا البَقَاءِ مِنَ اللَّيَالِي وَمِنْ أرواحنا تُوقِى الدِّيُونَ
كَأَنَّا قَدْ شَكَّكْنَا فِي المَنَايَا وَعِنْدَ جَمِيعِنَا الخَبْرُ اليَقِينُ

إِخْوَانِي: تَأَمَّلُوا العَوَاقِبَ تَأَمَّلْ مِنْ يَرِاقِبِ، وَتَفَكَّرُوا فِي النِّهَايَةِ فَعَيْنَ العَقْلِ
تَرَى الغَايَةَ، المَوْتَ قَرِيبًا أَمَّ، كَمْ أَهْلَكَ مِنْ أُمَّمٍ، لَقَدْ ارْتَهَنَ الذَّمُّ وَتَشَبَّتَ
بِاللَّمَمِ، فَيَا مَنْ سَتَخَلَّقُ مِنْهُ الرَّمَمُ أَسْمَاعُ أُمَّ صَمَمٍ، مَنْ ارْتَحَلَ بِغَيْرِ الطَّبَعِ حَسَنٍ
وَخَزَمَ، مَنْ عِلْمُ شَرَفِ المَطْلُوبِ جَدًّا وَعَزَمَ، إِنَّمَا يَكُونُ الاجْتِهَادُ عَلَى قَدْرِ الهِمَمِ،
إِنَّمَا يَنَاقَسُ فِي المَطْلُوبِ عَلَى حَسَبِ القِيمِ:

وَحَبُّ دُنْيَاكَ طَبَّعَ فِي المَقِيمِ بِهَا وَقَدْ مُنِيتَ بِقِرْنٍ مِنْهُ غَلَابِ
لَمَّا رَأَيْتَ سَجَايَا الدَّهْرِ تُرْحِضُنِي رَدَدَتْ قَدْرِي إِلَى صَبْرِي فَأَعْلَى بِي
وَالعَقْلُ يَسْعَى لِنَفْسِي فِي مَصَالِحِهَا فَمَا لَطَبَعَ إِلَى الآفَاتِ جَذَابِ
احذَرُ مِنَ النَّاسِ أَدْنَاهُمْ وَأَبْعَدَهُمْ وَإِنْ لَقُوكَ بِتَبْجِيلٍ وَتَرْحَابِ
كَلَّمْتُ بِاللَّحْنِ أَهْلَ اللِّحْنِ أَوْنَسَهُمْ لِأَنَّ عَيْبِي عِنْدَ القَوْمِ إِعْرَابِي
عِنْدَ الفِرَاقِ أَسْرَابِي مَجْبَاةُ إِذْ لَسْتُ أَرْضَى لِأَرَابِي بِأَرَابِ

أَيُّهَا الشَّابُّ تَدَبَّرْ أَمْرَكَ فَإِنَّكَ فِي زَمَنِ الرِّيحِ وَوَقْتِ البَدْرِ، وَإِبَانَ الفَضَائِلِ،
احذَرُ أَنْ يَجْدَعَكَ العَدُوُّ عَنِ نَفْسِكَ هَذَا الجَوْهَرَ فَتُنْفِقَهُ بِكَفِّ التَّبْذِيرِ، تَاللهِ لَمَتَّ
فَعَلَّتْ لِتَغْرِسِنَ بِذَلِكَ شَجَرَةَ النَّدَامَةِ، فَيَسَاقُطُ عَلَيْكَ مِنْ كُلِّ فَنٍّ مِنْهَا فَنٌّ

حسرة. واعرف قَدْرَ ما تَوَمَّنَ به هذا الجوهر من الفضائل، واحذر من اختلاس العدو له، فصايرُ فكأن قد انقضى الموسم.

واعلم أن الشيطان يُرَاصدك ليفتنك، وقوة الطبع له عليك، والشباب شُعبَةٌ من الجنون، فاكسر عادية الهوى بوهن أسبابه.

وقال أبو موسى: طوبى لمن وقى شرَّ شبابه. وقال أبو بكر ابن عيَّاش: وددتُ أنه صُفح لي عما كان في الشباب، وأن يدي قُطعت!

واعلم أنه لما كان جهاد الشباب ومخالفة الطبع صعباً صار الشابُّ التائب حبيب الله عز وجل.

إخواني: من رأى التناهي في المباديء سلِّم، ومن لم ير العواقب شغله ما هو فيه عمّا بين يديه.

يا هذا: أمّا ما قد مضى من ذنوبك، فليس فيه حيلة إلا التدارك، فرب مُدْرِك لما فات، الأسى بالأسى. وأنا أضرب لك مثلاً لتحذر فيما بعد جنس ما كان قبل: إذا راق الحلواء لمحموم اعترك الهوى والعقل، فالهوى ينظر إلى العاجل، والعقل يتلمّح العواقب، فإن آثر مشورة العقل منع نفسه عمّا تشتهي نظراً إلى ما إليه الصبر ينتهي، فإذا زالت حمّاه تناول من غير أذى ما اشتهاه، وإن اجتذبه رائق المشتهى فأنساه المنتهى تمّتّع يسيراً ببلوغ الغرض، فزاد به ذلك المرض، وربما ترقّى إلى الموت، ولا تدارك بعد القوت. فيا عجباً لمختار العاجل، وهو يعلم ندمه في الآجل، لقد ضيّع موهبة العقل الذي به شرف الآدمي، وزاحم البهائم في مقام النظر إلى الحاضر.

الكلام على قوله تعالى

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَانِيَةً﴾ (١)

الجانية: الجالسة على الركب. والمعنى أنها غير مطمئنة، والأقدام يوم القيامة

(١) الجانية ٢٨.

مثل النَّبْلِ في الجعبة، والسعيد من يجد لقدميه موضعاً.

قوله تعالى ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ (١) فيه قولان:

أحدهما: كتاب حسناتها وسيئاتها. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: كتابها الذي أنزل على رسولها. ذكره الماوردي.

قال ابن مسعود: الأرض كلها نار يوم القيامة والجنة من ورائها يرون أكوابها وكواعبها، ويعرّق الرجل حتى يرشح عرقه في الأرض قامّة، ثم يرتفع إلى أنفه وما مسّه الحساب بعد. قالوا: وممّ ذاك؟ قال: مما يرى الناس يُصنع بهم. قيل له: فأين المؤمنون؟ قال: على كراسي قد ظلّل عليهم بالغمام ما طول ذلك اليوم عليهم إلا كساعة من نهار.

يا من قد ملأ كتابه بالقبيح، وهو عن قليل رهن الضريح، ألا تمحو قُبْح ما سَطَرْت، هَلَّا تدبرت ما تُمَلِّي ونظرت، لقد سوّدت الكتاب بالزلل، وأكثر ما دخل المنطق الدّخْل، وحتّام وإلام؟ أتقي شيء بعد وهن العظام؟

يا دائماً على هجره وإعراضه، يا ساعياً في هواه وأغراضه، يا من قد أخذ بناء جسمه في انتقاضه، عليل الخطايا لا يزال في إمرضه، هذا عسكر المات قد دنا بارتكاضه، هذا برق العتاب قد لجّ بإيماضه، كيف قدر جفن العاصي على إغماضه، كيف ينسى ما قد مات قدماً من أبعاضه، ولو سمع صخر الفلاة لومك، أو ذاق الألم من إمضاضه، لعادت جلاميد الفلاة كرضراضه، يا من يعلم غلط عُذره، ووجه إدحاضه، يا ساعياً إلى ما يؤذي بركاضه، يا هاجراً نصيحه ليته أبغض قبيحه كإبغاضه، استقرض المالك بعض مالك، وتقعّد عن إقراضه، لقد أندرِك سهم الردى وقوعه قبل إنباضه، فأحدّد حدّ حديدته وأسنّه بمقراضه:

بادرْ بمعروفك آفاتِه فبئنة الدنيا على القلعة

(١) الجانية ٢٨.

وازرع زروعاً يُرتضى ريعها يوماً فكلُّ حاصدٍ زرعه
أف لعيش آخره الندامة، آه من سفرٍ نهايته بدايةُ القيامة.

إخواني: هذا نذير الموت قد غدا يقول: الرحيلُ غدا، كأنكم والله والأمر
معا، طوبى لمن سمع فوعى، كيف بكم إذا صاح إسرافيل في الصُّور بالصُّور،
فخرجت تسعى من تحت المدر، وقد رُجَّت الأرض، وبُستت الجبال، وشخصت
الأبصار لتلك الأهوال، وطارت الصحائف فقلِّق الخائف، وشاب الصَّغار، وبان
الصَّغار، وزفرت النار، وأحاطت الأوزار، ونُصب الصراط، وآلت السِّياط،
وحضر الحسابُ وقوي العذاب، وشهد الكتابُ وتقطعت الأسباب، فكم من
شيخ يقول: واشيبتاه، وكم من كهلٍ ينادي: واخيبتاه، وكم من شاب يصيح:
واشباباه، برزت النارُ فأحرقت، وزفرت غضباً فمزقت، وتقطعت الأفتدة
وتفرقت، وقامت ضوضاء الجدل، وأحاط بصاحبه العمل، والأحداقُ قد سالت
والأعناقُ قد مالت، والألوانُ قد حالت، والمحنُ قد توالت، أين عدتُّك لذلك
الزمان، أين تصحيح اليقين والإيمان، أترضى يومئذ بالخسران؟ أما تعلم أنك كما
تدين تدان؟ كم في كتابك من زلل، كم في عملك من خلل، هذا، وقد قرُب
الأجل، إي والله أجلّ، كم ضيَّعت واجباً وفرصاً، ونقضت عهداً مُحكماً نقضاً،
وأتيت حراماً صريحاً محضاً، يا أجساداً صِحاحاً فيها قلوبٌ مرصّى.

عبادَ الله: أطول الناس حُزناً في الدنيا أكثرهم فرحاً في الآخرة، وأشد الناس
خوفاً في الدنيا أكثرهم أمانةً في الآخرة. يقول الله عز وجل: «أنا لا أجمع على
عبدي خوفين ولا أمتنين، إذا أمني في الدنيا أخفته في الآخرة، وإذا خافني في
الدنيا أمتته في الآخرة».

إخواني: المؤمن يتقلَّب في الدنيا على جَمَراتِ الحذر في نيران الخوف، يهرب
العاقبة، ويجذر المعاقبة، فالنار متمكِّنة من سويداء قلبه، إن هو هفاً توقَّدت في
باطنه نارُ الندم، وإن تذكَّر ذنباً اضطربت نار الحزن، وإن تفكر في مُنقلبه
التهبت نار الحذر، وإن صفا قلبه لمحبة خالقه صار القلبُ جمرَةً بنار الفرق، فإذا

ورد القيامة عادت ناره نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، فإذا جازَ على الصراط لم تقاوم نارُ التعذيب نيرانَ التهذيب، فتنادى بلسان الاعتراف بالتفضيل: جُزُ فقد أطفأ نورك لهي!

فإن هو حضر القيامة على زَلَل لم تصدق توبته منه، فأوجب ذلك خمودَ نوره فقد خَبَتْ نارُ حذرهِ في باطن قلبه، فإذا لفحته جهنم فأحرقت ظاهره أحسَّت بأثر شُعلة الخوف في باطنه فكفَّت كفَّها عنه. فلو قيل لها: أين شِدَّة شدَّتكَ، وأين حديدة حِدَّتكَ لقلت: لا مقاومة لي بنيران باطنه، وإن قلَّت:

يُحَرِّقُ بِالنَّارِ مَنْ يَحْسُ بِهَا فَمَنْ هُوَ النَّارُ كَيْفَ يَحْتَرِقُ
هذه صفة المؤمن فأين إيمانك هذا لذي الحسنات، وقد خسر ميزانك، شأنك الخطايا فهلاً قرح شأنك يا مهملاً نفسه سيشهد جلدك ومكانك، اليقظة اليقظة يا نيام، الحذر الحذر فقد سلَّ الحُسام، الزهد الزهد قبل الفِطَام، كأنكم بكم في أثواب السَّقَام ترومون الخلاص، وقد عزَّ المرام، فستندمون على ما مضى من الآثام، وتحرس الألسن وينقطع الكلام.

إخواني: أحضروا القلوب لهذا الملام، تالله ما أكرم نفسه من لا يهينها، ولا يزينها من لا يشينها.

ودخل عثمان رضي الله عنه على غلام له يعلف ناقته، فرأى في علفها ما كره، فأخذ بأذن غلامه فعرَّكها، ثم ندم فقال: افعل بي ما فعلت بك، فأبى الغلام، فلم يدعه حتى فعل، فجعل عثمان رضي الله عنه يقول له: شدَّ شد. حتى ظن أنه قد بلغ منه مثل ما بلع، ثم قال عثمان واهاً لقصاص الدنيا قبل قصاص الآخرة.

كان القوم تحت حجر المحاسبة، وكانك مُطلق.

كان ابن السَّكَّ يقول: ألا منتبه من رقدته، ألا مستيقظ من غفلته، ألا مُفَيِّق من سكرته، ألا خائف من صرَّعته، أقسم بالله لو رأيت القيامة تخفق

بزلازل أهوالها وقد علّت النارُ مُشرفةً على أهلها، وجيء بالنبيين والشهداء
لسرك أن يكون لك في ذلك الجمع منزلة وزلفى.

أبعد الدنيا دار مُعتمَل، أم إلى غير الآخرة مُنتقل؟ كلا والله لقد صمّت
الأسماع على المواعظ، وذهلت القلوب على المنافع.

وعظ أعرابي ابنه فقال: أي بني إنه من خاف الموت بادر الفوت، ومن لم
يكبح نفسه عن الشهوات أسرع به التبعات، والجنة والنار أمامك.

فياليتني هامداً لا أقومُ إذا نهضوا ينفضون اللّم
ونادى المنادي على غفلةٍ فلم يبق في أذنٍ من صمّم
وجاءت صحائفُ قد ضمّنت كباثر آثامهم والّلّم

(سجع)

يا أسفاً للعصاة في مآبها، إذا قلقت لقطع أسبابها، وغابت في الأسى عند
حضور عتابها ﴿كلّ أمة تُدعى إلى كتابها﴾. قامت الأمم على أقدامها فأقامت
تبكي على إقدامها، وسالت عيونٌ من عيون غرامها ندماً على آثامها في أيامها
واحتقابها ﴿كلّ أمة تُدعى إلى كتابها﴾.

ظهرت أهوالٌ لا توصف، وبدت أمور لا تُعرف وكُشفت حالاتٌ لم تكن
تكشف، إن لم تنتبه لهذا فأنت أعرف، ستعلم من يلوم نفسه عند عذابها ﴿كلّ
أمة تُدعى إلى كتابها﴾ قيدت جهنم فبدت بأزمّتها، فبكت النفوسُ على دناءة
همّتها، كم من ديونٍ تعلقت بذمتها، على أنه يكفيها ما بها ﴿كلّ أمة تدعى إلى
كتابها﴾.

أنت تدري ما كتابك، وستبكي والله عند عتابك، وستعلم حالك يوم
حسابك، إذا كلّت كلّ الألسن عن جوابها ﴿كلّ أمة تُدعى إلى كتابها﴾ يا له
يومٍ لا كالأيام، تيقظ فيه من غفل ونام، ويحزن كل من فرح في الآثام، وتيقن
أن أحلى ما كنت فيه أحلام، واعجباً لضحك نفس البكاء أولى بها ﴿كلّ أمة

تدعى إلى كتابها.

كم من نفس ترى بعين الصلاح تفعل الخير في المساء والصبح، عملت أعمالاً
ترجو بها الفلاح، فلاح لها ما لم يكن في حسابها. كل أمة تدعى إلى كتابها.

ذَكَرَ اللهُ نفوسنا مُرَّ شرايها، وجعلنا ممن مدَّ باع التقوى فباع وشَرى بها،
وحفظنا إذا حارت النفوس لشدة أوصايها، ورزقنا قبولَ موعظته فقد أوصى بها
كل أمة تدعى إلى كتابها.

المجلس الثالث في ذكر الأرض وعجائبها

الحمد لله القديم في مجده، الكريم في رِفده، الرحيم، فكل خير من عنده، اللطيف في حال بَعْبده، مَدَّ الأرض بقدرته والعجبُ في مَدّه، وزينها بنباتها، وألوان وَرَدِه، وسقاها كأس القطر بواسطة بَرَقه ورَعْدِه، وجمع في الغصن الواحد بين الشيء وصيدِه، وقوم الثمار بالماء من حر الشمس، وبرْدِه، إله خَوْف بوعيدِه، وشوق بوعدِه، وقدّر فاهتدى من هداه وضلّ من لم يهده، وسمع فلم يَعْزب عن سمعه صوت المضطرّ بعد جَهْدِه، وأبصر فرأى جريان دم العبد في عِرْقِه وجلده، وعلم ما في باطن سِرّه من برّه وحقدِه، وعزّمه وحزّمه، وبُغْضِه وودّه، وعمّه وفكرِه، وعلمه وقصدِه، وحلّمه وحبّه وزهدِه، ولفّه ونقّضِه، وأخذِه وردّه، وقدّر أعماله في حياته وحالّه في لحدِه، وجعل في الحكمة نسيانَ أهله من بَعْدِه، فإن كان صالحاً عَبَقَ في قبره نَشْرُ وَرْدِه، وإن كان عاصياً خَلَّى بقببِحِه وخطيء ببعْدِه، فسبحان من لا يعترض العقل على أفعاله، بل يقف على حده ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ (١).

أحده حمداً لا يقدر الخلائق على عدّه، وأصلي على رسوله وعبده، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق الذي كان الإسلام مُنْحَللاً لولا قوة شدّه، وعلى عمر وحيد التدبير في السياسة وفرْدِه، وعلى عثمان قائم الليل، والدمع يجري على خدّه، وعلى عليّ المصلي مع الرسول قبل بلوغ رُشدِه، وعلى عمه العباس الذي أخذ له البيعة على جنده.

(١) الإسراء ٤٤.

قال الله تعالى: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِي وَأُنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ (١).

قال ابن عباس: خلق الله عز وجل الماء، فكان على متن الرياح، وخلق الحوت فوق الماء ثم كبس الأرض عليه فاضطرب النون فمادت الأرض، فأثبتت بالجبال.

وقال السُّدِّي عن أشياخه: أخرج الله عز وجل من الماء دخاناً سماً عليه، فسماه سماء، ثم أيس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين، فالأرض على حوت في الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفاءة على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة والحوت في الرياح قال وهب: واسم الحوت بهموت.

وقال قتادة: عُمران الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ في مثلها، فالسُّدِّي والهند من ذلك اثنا عشر ألف فرسخ في مثلها، وهم ولد حام، والصين ثمانية آلاف فرسخ في مثلها وهم ولد يافث. والروم ثلاثة آلاف فرسخ في مثلها، والعرب ألف فرسخ، وهم والروم جميعاً من ولد سام.

عن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله الأرض جعلت تَمِيد فخلق الجبال، فألقاها عليها فاستقرت، فتعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت: يا رب هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم الحديد. قالت: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم النار. قالت: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم الماء. قالت: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الماء؟ قال: نعم الرياح. قالت: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الرياح؟ قال: نعم ابن آدم يتصدق بيمينه يخفيها عن شماله.»

قال العلماء: أول جبل وضع على الأرض جبل أبي قُبَيْس، وكان أول من بني فيه رجل يقال له أبو قُبَيْس، فسمي بذلك. وكان يقال له في الجاهلية

(١) الحجر ١٩.

الأمين، لأن الركن كان مستودعاً فيه من زمان الطوفان، وهو أحد الأخشين.
ومن مشاهير الجبال جبل ثور بمكة، والحجون جبل واحد بالمدينة، وجبل العرج
بين مكة والمدينة يمضي إلى الشام حتى يتصل بلبنان، ثم يتصل بجبال أنطاكية
والمصيصة، فيسمى هنالك اللكام.

وفي سرنديب الجبل الذي أهبط عليه آدم وعليه العود والفلفل وفيه دابة
المسلك، وجبل الروم الذي سدّ فيه ذو القرنين على يأجوج ومأجوج طوله
سبعائة فرسخ وينتهي إلى البحر المظلم.

وقد ذكر قدامة أن الذي وجد في الإقليم الأول من الجبال تسعة عشر، وفي
الإقليم الثاني سبعة وعشرون جبلاً، وفي الإقليم الثالث أحد وثلاثون، وفي الرابع
أربعة وعشرون، وفي الخامس تسعة وعشرون، وفي السادس أربعة وعشرون،
وفي السابع أربعة وعشرون أيضاً. فجميع ما عرف من الجبال مائة وثمانية
وتسعون جبلاً. وقد أحصيت المعادن كاللجص والنورة، فوجدوها سبعائة معدن.

**والأقاليم سبعة: فالإقليم الأول: الهند، والثاني: الحجاز، والثالث: مصر،
والرابع: بابل، والخامس: الروم، والسادس: الترك ويأجوج ومأجوج،
والسابع: الصين. ومقدار كل إقليم سبعائة فرسخ. والبحر الأعظم محيط بذلك
كله يحيط به جبل قاف. وأما الأنهار فمنها: النيل والفرات ودجلة وسيحان
وجيحان.**

وكان قد أوحى الله تعالى إلى دانيال عليه السلام: احفر لي نهرين بالعراق
فقال: إلهي بأي مساح، وبأي رجال؟ فأوحى إليه أن أعد سكة حديد،
وعرضها، واجعلها في خشبة فألقها خلف ظهرك، فإني باعث إليك الملائكة
يعينونك، فحفر فكان إذا انتهى إلى أرض أرملة، أو يتيم حاد عنها حتى حفر
دجلة والفرات.

ومن العجائب في الدنيا: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: من
العجائب التي وصفت في الدنيا أربع: منارة الإسكندرية عليها مرآة حديد يقعد

القاعد تحتها قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فيرى من بالقسطنطينية وبينها
عَرْض البحر. وسوداني من نحاس على قضيب من نحاس على باب الشرقي
برومية. فإذا كان أوان الزيتون صفر ذلك السوداني، فلا يبقى سودانية إلا
جاءت معها بثلاث زيتونات: زيتونتان في رجليها، وزيتونة في منقارها فألقته
على ذلك السوداني، فتحمل أهل رومية فيعصرون ما يكفيهم لسُرْجهم وإدامهم
إلى العام المقبل. ورجل من نحاس بأرض اليمن مادّ يده إلى وراء يقول: ليس
ورائي مذهب ولا مَسْلُك، وهي أرض رَجْرَاجَة لا يستقر عليها الأقدام غزاها
ذو القرنين في سبعين ألفاً، فخرج عليهم نمل كالبخاقيّ، فكانت النملة تحطف
الفارس عن فرسه. وبطة من نحاس على عمود من نحاس فيما بين الهند والصين.
فإذا كان يوم عاشوراء شربت البطة من الماء حاجتها، ومدت منقارها، فيفيض
من فيها من الماء ما يكفيهم لزروعهم ومواشيهم إلى العام المقبل.

قال العلماء: أول من سكن الأرض الجن، وكانوا يعبدون الله عز وجل، ثم
تناول بعضهم بعضاً بالقتل. قال ابن عباس: الجن ضعفاء الجان.

قال مجاهد: ملك الأرض كلها أربعة: مؤمنان وكافران، فأما المؤمنان:
سليمان بن داود، وذو القرنين عليها السلام. والكافران: نمرود وبخت نصر.

وقال كعب: ساكن الأرض الثانية الريح العقيم، وساكن الأرض الثالثة
حجارة جهنم، وفي الرابعة كبريت جهنم، وساكن الأرض الخامسة حيات جهنم،
وساكن الأرض السادسة: عقارب جهنم، وفي السابعة إبليس موثق يد أمامه، ويد
خلفه، ورجل أمامه، ورجل خلفه، فتأتيه جنوده بالأخبار في مكانه ذلك.

فأما الجن فهم ثلاثة أنواع: جان وجنّ وشياطين. وكلهم خلقوا قبل آدم. وفي
الجان ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أبو الجن. رواه الضحاك عن ابن عباس، وهو
مخلوق من مارج من نار. والمارج: لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت.

والثاني: أن الجان هو إبليس. قاله الحسن وعطاء.

والثالث: أن الجان مسيخ الجن كما أن القردة والخنزير مسيخ الإنس. رواه

عكرمة عن ابن عباس .

فأما الشيطان، فهو كل متجبر عاتٍ من الجن، وكذلك المارد والعفريت .
وفي إبليس قولان : أحدهما : أنه كان من أشراف الملائكة . والثاني : أنه كان من
الجن . قال مجاهد : لإبليس خمسة أولاد : نبر والأعور، ومسوط، وداسم،
وزلنبور . فأما نبر فهو صاحب المصائب يأمر بشق الجيوب ولطم الخدود، وأما
الأعور فيأمر بالزنا، ومسوط صاحب الكذب يلقي الرجل فيخبره بالشيء
فيتحدث الرجل به، وداسم : يوقع بين الرجل وأهله، وزلنبور يركز رايته في
السوق ويوقع بينهم .

الكلام على البسمة

أَضْحَكَ سِنَّكَ بَعْدُ الْأَمَلِ وَلَمْ يُبِكَ عَيْنَكَ قُرْبُ الْأَجَلِ
كَأَنَّكَ لَمْ تَرَ حَيًّا يُسَاقُ وَلَمْ تَرَ مَيِّتًا عَلَى مُعْتَسَلِ

قال للذين غفلوا ولعبوا كأنهم قد تعبوا، ما لهم عبرة في الذين ذهبوا، أما
الكأس بيد الساقى، ومنه شربوا .

سَيَّرَ اللَّيَالِي إِلَى أَعْمَارِنَا خَبَبُ فَمَا تَبِينِ وَلَا يَغْتَاقَهَا نَصَبُ
كَيْفَ النِّجَاءِ وَأَيْدِيهَا مَصْمَمَةٌ بَدَبْنَحْنَا بُدَى لَيْسَتْ لَهَا نُصَبُ
وَهَلْ يَوْمٌ نَيْلَ الشَّمْلِ مَلْتَمًا سَفَرٌ لَهُمْ كُلَّ يَوْمٍ رِحْلَةٌ عَجَبُ
وَمَا إِقَامَتُنَا فِي مَنْزَلٍ هَتَفَتْ فِيهِ بِنَا مُذْ سَكْنَا رَبْعَهُ نُوبُ
وَأَذْنَتْنَا وَقَدْ تَمَّتْ عِمَارَتُهُ بِأَنَّهُ عَنِ قَلِيلٍ دَائِرٌ خَرِبُ
أَزَّرَتْ بِنَا هَذِهِ الدُّنْيَا فَمَا أَمَلٌ إِلَّا لَرَيْبِ الْمَنِيَا عِنْدَهُ أَرْبُ
لَيْسَتْ جَمِيعُ سَهَامِ الْمَوْتِ طَائِشَةٌ وَهَلْ تَطِيشُ سَهَامَ كُلِّهِ نُصَبُ
وَنَحْنُ أَغْرَاضُ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ بِهَا قَبْلَ الْمَاتِ فَمَرْمِيٍّ وَمُرْتَقَبُ
أَيْنَ الَّذِينَ تَنَاهَوْا فِي ابْتِنَائِهِمْ صَاحَتْ بِهِمْ نَائِبَاتُ الدَّهْرِ فَانْقَلَبُوا

انتبهوا يا نيام، افهموا هذا الكلام، قد بقيت لكم أيام، هذا عود الحياة قد

يبس، وتُور الشباب بالشيب منطمس، ولسان الفرح بالترّح قد خرس، وسواء في الموت المهمل والمحترس، ولا فرق عنده بين اللين والشرس.

إخواني: كم رأيتم من قبر مندرس، إخواني: كم تلي عليكم زجر ودرس.
إخواني: كأنكم في كف المختلس، إنما هو نفس منطلق وكأن قد حُبس، ترى متى ينقَى هذا القلب الدنس، إلى كم ذا المريض كل يوم ينتكس، إنما أنت بقية الراحلين فاعتبر بهم وقس:

نائباتٌ في كل يوم تنوبُ وخطوبٌ تأتي وتمضي خطوبُ
ما عجيبٌ مكر الزمان ولكن ثقة النفس بالزمان عجيبُ
كم دعيتني إلى زخارفها الدن يا فنادت منّي الذي لا يجيبُ
ومتى ساحت خيلاً بحظّ خالفتها فاسترجعته الخطوبُ
كم إلى كم نذود عنها ونهَى غير أن القلوب ما تستجيبُ
وصلاح الأجسام سهل ولكن في صلاح القلوب يعنى الطيبُ

الدنيا بحر عجاج، ليس راكبه بناج، الدنيا كظلمة ليل داج، ليس فيها إلا الزهد سراج، هدوءها انزعاج وسكونها اختلاج، ضيقة الفجاج كدرة المزاج، لا تغرّتك، ولو ألبستك التاج، وقد خاطر من حمل في الوحل الزجاج، تريك السلامة تغريراً وتمويهاً، وتظهر المحاسن والقبائح وتخفيها، تبين كل كف كانت تبنيها، ما تعنذر إلى جريحتها كبراً وتيها:

هي الدنيا فلا يغررك منها زخارف تستغر ذوي العقول
أقلّ قليلها يكفيك منها ولكن ليس تقنع بالقليل

محن الدنيا ولذاتها أنموذج ما في الآخرة، فلو أصغى سمع القلب فهم.

لما أهديت معاذة العدوية إلى صلة بن أشيم أدخله ابن أخيه الحمام، ثم أدخله بيتاً مطيباً، فقام يصلي حتى برق الفجر، فقامت فصلت. قال: فأتيته فقلت: يا عم أهديت إليك ابنة عمك فقامت تصلي؟! فقال يابن أخي أدخلتني أمس بيتاً، أذكرتني به النار، ثم أدخلتني الليلة بيتاً أذكرتني به الجنة، فما زال فكري

فيهما إلى الصباح!

يا أيها الراحِل وما له رَوَّاحِل، يكفي في الوعظ أربعون كَوَّامِل، كلهن من فِعْل الخير عَوَّاطِل، متى تسمع قول العاذِل، متى تُوَزُّر المكاتبات بالرسائل، أما أنت في صف الحرب تُقَاتِل، هذا العدو يَنْصِب الحبائل قد فَوَّق السهم، وأمَّ المَقَاتِل، إلى متى ترضى باسم جاهل، إلى متى تُؤثر لقب غافل، كم تَعِد بالتوبة وكم تماطل، أين قلبك؟ قلبك على مَراحِل.

كم أسمعك الموت وعيدك، فلم تنتبه حتى قطع وريدك، ونقض منزلك وهدم مَشِيدك، ومزَّق مالك وفرق عبيدك، وأخلى دارك وملاً بيدك، أما رأيت قَرِينك؟ أما أبصرت فقيدك، يا ميتاً عن قليل مهَّد تمهيدك، وانظر لنفسك مجتهداً، وحقَّق تجويدك، لقد أمرضك الهوى وفي عَزْمه أن يزيدك، ياعجباً للجاهل المغرور كيف يشتغل بعمارة الدُّور، قد بَعث الموت للرحيل المنشور، السَّقام أقالمه واللحودُ السطور:

خُذْ ما صفا لك فالحياةُ غرورُ	والموتُ آتٍ واللييبُ خيبرُ
لا تعتنِ على الزمان فإنه	فلك على قُطْب الهلاك يدورُ
تَعْفُو السطور إذا تقادم عهدها	والخَلْق في رِقِّ الحياة سطورُ
كلٌّ يفرّ من الردى ليفوته	وله إلى ما قرّ منه مصيرُ
فانظر لنفسك فالسلامة نُهْزة	وزمانها ضافي الجناح يطيرُ
مرآة عيشك بالشباب صقيلة	وجناح عمرك بالمشيب كسيرُ
بادر فإن الوقت سيفٌ قاطعٌ	والعمر حيشٌ والشبابُ أميرُ

قوله تعالى

﴿فَإِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (١)

قال المفسرون: تنفرج السماء من المجرة لنزول من فيها يوم القيامة. ﴿فكانت

(١) الرحمن ٣٧.

وَرْدَةٌ كالدَّهَانِ ﴿١﴾. فيها قولان: أحدهما: أنها الفرس الوردة تكون السماء كلونها. قاله أبو صالح والضحاك. قال الفراء: الفرس الوردة تكون في الربيع إلى الصُّفْرَةِ، فإذا اشتد الحرّ كانت حمراء، فإذا كان بعد ذلك كانت إلى العُبْرَةِ. فشبهه تلون السماء بتلون الوردة من الخيل. قال الزجاج: الكُمَيْت: الورد يتلون، فيكون لونه في الشتاء خلاف لونه في الصيف، ولونه في الفصل خلاف لونه في الشتاء والصيف، فالسما تتلون من الفزع.

والثاني: أنها وردة النبات، وقد تختلف ألوانها إلا أن الأغلب عليها الحمرة. ذكره الماوردي.

وفي الدهان قولان: أحدهما: أنه واحد الأديم الأحمر. قاله ابن عباس.

والثاني: أنه جمع دهن، والدهن تختلف ألوانه بخضرة وحمرة وصفرة. حكاه اليزيدي، وإلى نحوه ذهب مجاهد. وقال الفراء: شبه تلون السماء بتلون الوردة من الخيل، وشبه الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ (١) فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا يسألون ليعلم حالهم، لأن الله تعالى أعلم منهم بذلك.

والثاني: لا يسأل بعضهم بعضاً عن حاله لإشغال كل منهم بنفسه. والقولان عن ابن عباس.

والثالث: لا يسألون عن ذنوبهم لأنهم يعرفون بسيماهم فالكافر أسود الوجه، والمؤمن أقرّ مُحَجَّل من أثر وضوئه. قاله الفراء. وقال الزجاج: لا يسأل عن ذنبه بسيفهم، ولكنه يسأل سؤال توبيخ.

قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ (٢) قال الحسن: بسواد الوجوه، وزرق الأعين ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن خزنة جهنم تجمع بين نواصيهم إلى أقدامهم من وراء ظهورهم، ثم يدفعونهم على

(٢) الرحمن ٤١.

(١) الرحمن ٣٩.

وجوههم في النار . قاله مقاتل .

والثاني: يؤخذ بالنواصي والأقدام، يُسحبون إلى النار . ذكره الثعلبي .

وروى مردويه الصائغ قال: صلى بنا الإمام صلاة الصبح، فقرأ سورة الرحمن، ومعنا علي بن الفضيل بن عياض، فلما قرأ: ﴿يُعْرِفُ الْمَجْرَمُونَ بِسِيَاهِمُ﴾ خرّ مغشياً عليه، حتى فرغنا من الصلاة، فلما كان بعد ذلك قلنا له: أما سمعت الإمام يقرأ: ﴿حورٌ مقصورات في الخيام﴾ فقال شغلني عنها: ﴿يُعْرِفُ الْمَجْرَمُونَ بِسِيَاهِمُ﴾ .

قوله تعالى: ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون﴾ يعني المشركين . قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها» .
إنفرد بإخراجه مسلم .

قوله عز وجل: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ الحميم: الماء الحار . والآني: الذي قد انتهت شدة حره . والمعنى انهم يسعون بين عذاب الجحيم، وبين الحميم إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم الحميم الشديد الحرارة .

عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الحميم ليصّب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه حتى يَمْرُق من قدميه ثم يعاد كما كان» .

قوله عز وجل: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ وفيه قولان: أحدهما: قيامه بين يدي ربه يوم الجزاء . **والثاني:** قيام الله على عبده بإحصاء ما اكتسب .

قال مجاهد: «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ» وهو الذي إذا همّ بمعصية ذكر مقام ربه عليه فيها فانتهى . وقال أبو موسى: جنتان من ذهب للسابقين وجنتان من فضة للتابعين .

قال الحسن البصري: كان في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه شاب يلازم المسجد والعبادة، فعشقه امرأة فأتته في خلوة فكلمته، فحدّث نفسه بذلك فشقق شهقة فغشي عليه، فجاء عمّ له فحمله إلى بيته، فلما أفاق قال: يا

عم انطلق إلى عمر رضي الله عنه، فأقرئه مني السلام وقل له: ما جزاء من خاف مقام ربه؟ فانطلق عمه فأخبر عمر رضي الله عنه فأتاه عمر رضي الله عنه، وقد شهق فمات، فوقف عليه عمر وقال: لك جنتان.

عن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة أخفاها، حتى لا تعلم شاله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله عز وجل خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعت امرأه ذات منصب وجمال إلى نفسها فقال: إني أخاف الله عز وجل.»

أخرجاه في الصحيحين.

وقال يحيى ابن أبي كثير: لا يُحمد ورعٌ امرئ حتى يُشفي على طمع، ويقدر عليه، فيتركه حين تركه الله عز وجل.

آه من نفس ما يقرّ قرارها، طلعت شمس الشيب وما خبت نارها، ما لاحت لها شهوة إلا قلّ اصطبّارها، ما بانّت لها موعظة، فبان اعتبارها، كم وعظها ليّلها ونهرها نهارها، الذنب لباسها، والجهل شعارها، كم نكثت النصائح، وما تقل أوزارها، كم تقوّم وما يصلح أوزارها، كم تلاءم لطفًا وما يرعوي نفاها، كلما جذبتها أملها زاد اغترارها، إلى كم من المعاصي، أما يلزمها عارها، أساء تدبيرها، أم قبّح اختيارها، من يأخذ بيدها إذا طال عثارها.

إن النفس إذا أطمعت طمعت، وإذا أقنعت باليسير قنعت، فإذا أردت صلاح مرضها، فبتك غرضها، احبس لسانها عن فضول كلماتها، وغض طرفها عن محرّم نظراتها، وكفّ كفها عن مؤذي شهواتها، إن شئت أن تسعى لها في نجاتها.

إخواني: علامة الاستدراج العمى عن عيوب النفس، ما ملكها عبدٌ إلا عزّ، وما ملكت عبداً إلا ذلّ:

الحرصُ في كل الأنانين يصمُّ أما رأيت كل ظَهْر يتنصمُّ
وعروةٌ من كل حيّ تنصمُّ أما سمعت الحادِثات تختصمُّ
بل حبك الأشياء يُعمي ويصمُّ

قال مالك بن دينار: يقول الله عز وجل: وعزتي إني لأهمم بعذاب أهل الأرض، فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتني، صرفت عنهم العذاب.

وقال ميمون بن مهران: الذِّكر ذِكران: ذكر باللسان، وأفضل منه ذكر الله عند ما يُشرف عليه من معاصيه.

عن النبي ﷺ قال: كان الكِفْل من بني إسرائيل لا يتورّع من ذنب، فأتته امرأة فأعطاهما ستين ديناراً، فلما قعد منها مقعد الرجل أرعدت وبكت فقال: ما يبكيك؟ قالت: هذا عمل لم أعمله قط. فقال: اذهبي والدينانير لك. ثم قال: والله لا يعصي الله الكِفْلُ أبداً، فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابه: قد غَفَرَ اللهُ للكِفْل.

يا من لا يترك ذنباً يتقدر عليه، يا من أكثر عمله الذي له عليه، كم ضيَّعت في المعاصي عَصراً، كم حملت على الأزر، من الوزر أزرأ، أترضى أن تملأ الصحائف عيباً وخسراً، أما يكفي سلب القرين وعظماً وزجرأ، لقد ضيَّعت شطراً من الزمان، فاحفظ شطراً، ما أبقت لك الصحة حُجَّة، ولا تركت عُذراً، كم نعمة نزلت بك، وما قرنتها شكراً، تقابلها بالمعاصي فتبدل العرف نُكراً، كم سترك على الخطايا، وأنت لا تُقلع دهرأ، كم نمت عن صلاة وم شربت خراً، كان الشيب هلالاً، وقد صار بدرأ، تعاهد ولا تفي إلى كم غَدراً، أطال عليك الأمد، فصار القلب صَحْراً؟ إنما بقي القليل فصبرأ يا نفس صبرأ.

صيا من شاب مفرقة تصابي وإن طلب الصبا والقلب صابي
أعادل راضي لك شيب رأسي ولو لا ذاك أعياك اقتضابي

كفَى بالشيب من ناهٍ مُطَاع على كُرهٍ ومن داعٍ مُجَابِ
حَطَّطْتُ إلى النهي رَحْلِي وكَلَّتْ مطيئةً بساطلي بعدَ الهَبَابِ
وقُلْتُ مسلماً للشيب أهلاً بهادي المخطئين إلى الصوابِ
يذكرني الشبابُ وميضُ بَرَقِ وسجعِ حماميةٍ وحنينِ نابِ
أفجعَ بالشبابِ ولا أعزَى لقد غفلَ المعزَى عن مُصَابِي

سجع

يا دائم الخطايا والعصيان، يا شديد البطر والطغيان، ربح المتقون، ولك
الخسران ﴿ولمن خافَ مقامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ يا معتكفاً على زكَّله وذنبه، لا يؤثِّر
عنده أليم عتبه، أمّا المصراً فقد طمس على قلبه، فلا ينفعه وعظ اللسان ﴿ولمن
خافَ مقامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾.

كم خوِّفت وما تخاف، يا من إذا أمر بالعدل خَاف، الويل لك يا صاحب
الإسراف ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾. لو رأيت أهلَ الزَّيغِ والعنادِ
وأربابَ المعاصي والفسادِ مُقَرَّتَيْنِ في الأصْفادِ ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ (١)
﴿ولمن خافَ مقامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾. قد سُدَّتْ في وجوههم الأبواب، وغضب
عليهم ربُّ الأرباب، والنارُ شديدةُ الالتهاَبِ، والعذابُ فيها ألوانٌ ﴿ولمن خافَ
مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ أعرَضَ عنهم الرِّحيمُ، ومنعهم خيرَه الكَرِيمُ، ويتقلَّبون في
الجحيمِ ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آناً﴾ سَعِيرُهُم قد أحرق، وزمهريرُهُم قد
مزَّق، ونورُ المتقين قد أشرق، ﴿متكئين على فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ أَسْتَبْرَقٍ وَجَنَى
الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ (٢).

سارت بهم إلى الجدِّ المطايا، فأجزلت لهم جزيل العطايا، ولأرباب الخطايا
النيران. من عليهم بنعيم ما من، لا يخطر لمن يتوهم ويظن، وقد كفانا صفة
الخور من وصفهن ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾.

(٢) الرحمن ٥٤.

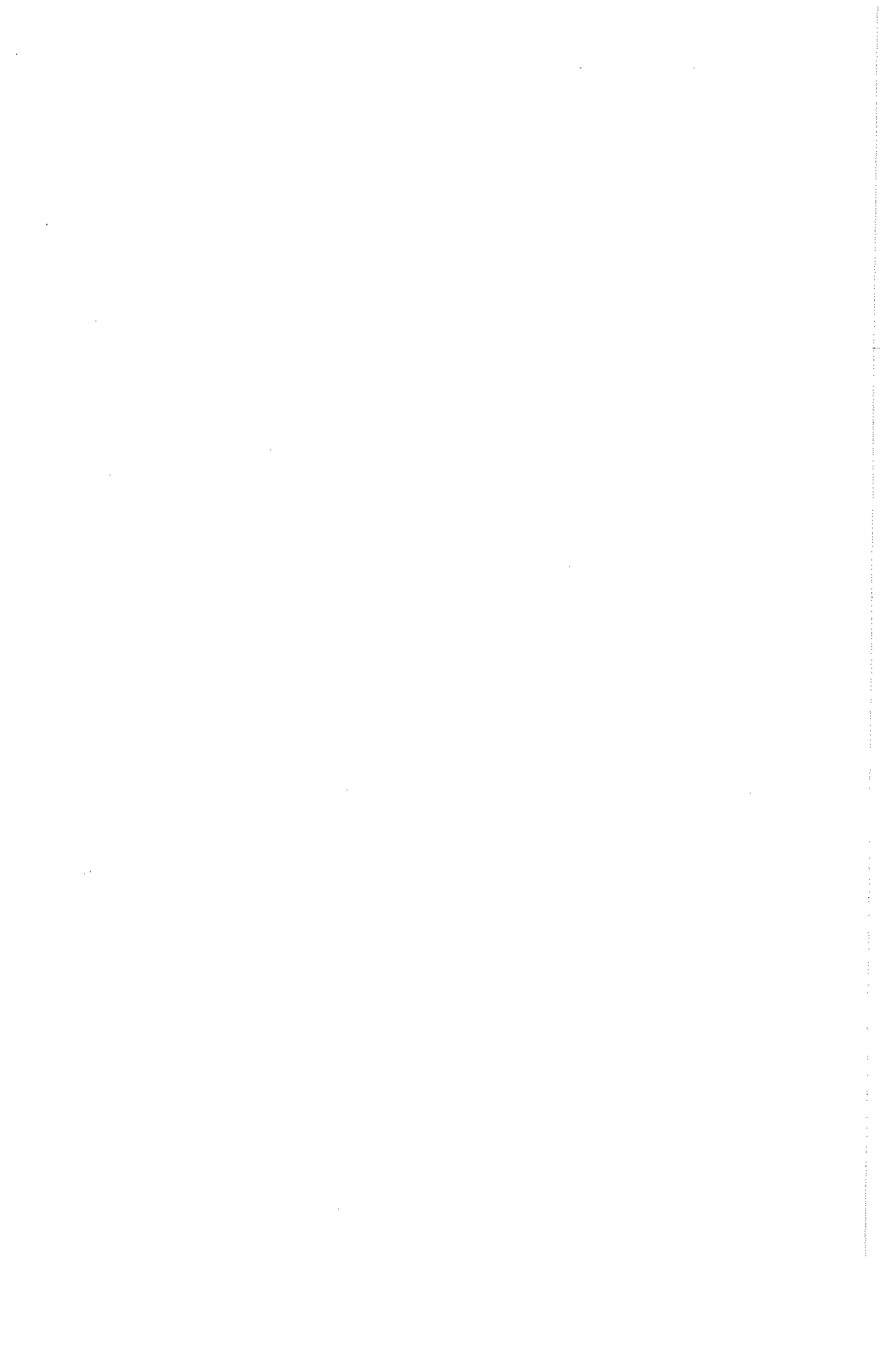
(١) إبراهيم ٥٠.

أيها العاصي قد اجتهدنا في صلاحك، وعرضنا في التجارة لأرباحك، وأنت
على المعاصي في مسائك وصباحك، وبعدُ فما نئأس من فلاحك ﴿كلَّ يومٍ هو
في شانٍ﴾ ﴿ولن خاف مقام ربه جنتان﴾ .

الطبقة الرابعة

تشتمل على فضائل العلم والمعاملات

فيها ثمانية وعشرون مجلساً



المجلس الأول في فضائل العلم والعمل

الحمد لله الذي بيده الإيجاد والإنشاء، والإماتة والإحياء، والإعانة والإبداء، والإنعام والآلاء، والرَّخَص والغلاء، والحظ والغلاء، والعافية، والبلاء، والداء والدواء، وخلق آدم، وخلق لأجله الأشياء، فمن جرَّاه كانت الأرض والسماء، والظلمات والأضواء، والصبح والمساء والرياح والماء، وعلمه العِلْم فأنجلت عنه الظلمات، وعرفه خَطَّ الخط فجاء الهجاء: الألف والباء، والتاء والثاء، والجيم والحاء والحاء والذال والذال والراء، والزاي والسين والسين والصاد والصاد والطاء، والظاء والعين والغَيْن والفاء، والقاف والكاف واللام والميم والنون والهاء والواو واللام الألف والياء.

وبثَّ من نَسَله الرجال والنساء، فمنهم العالم الذاكِر، ومنهم الجاهل النَسَاء، وأكثرهم الغافلون وأقلُّهم الألباء، وليست زَرْقاء الهامة كالأعشى، ولا النهارُ كالليل إذا يَغشى، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(١).

أحمده له بتوفيقى لحمده الآلاء، وأقرَّ بأنه مالك الملك يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، وأصليَّ على رسوله محمد أشرف ركبٍ حَوَّته البيداء، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق مُصاحبه إن وقعت الشدة، أو الرِّخاء، وعلى عمر الفاروق الذي دوَّخ الكفر فذلت له الأعداء، وعلى عثمان الصابر وقد اشتد به البلاء، وعلى عليٍّ الذي حصل له دون الكل الإخاء، وعلى عمه العباس الذي سألت الصحابة به الغيث فسالت السماء.

(١) فاطر ٢٨

قال رسول الله ﷺ: « إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يَهْتَدَى بها في ظلمات البرّ والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضلّ الهداة ».

وهذا المثل من أَوْقَع المِثَال، لأن طريق التوحيد والعلم بالآخرة لا يدرك بالحِسّ، وإنما يُعْرَف بالدليل، والعلماء هم الأدلاء، فإذا فُقدوا ضلّ السالك.

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الله عز وجل لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ العباد رؤوساً جهّالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضّلوا وأضلوا ».

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن صفوان بن عسّال أن النبي ﷺ قال: « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضي بما يطلب ».

وذكر أبو سلمان الخطّابي في معنى وَضَعها أجنحتها ثلاثة أقوال: أحدها: بسَط الأجنحة. والثاني: أن المراد به التواضع لطالب العلم. والثالث: النزول عند مجالس العلم وترك الطّيران، لقوله ﷺ: « ما من قوم يذكرون الله تعالى، إلّا حَفَّت بهم الملائكة ».

وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد رضي الله عنهم أن النبي ﷺ قال لعلي عليه السلام: « واد لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمْر النّعم ».

وروى أبو الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن العالم ليستغفر له من في السموات، ومن في الأرض، والحيتان في الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظّ وافر ».

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : تعلّموا العلم ، فإن تعلّمه لله خَشْيَةٌ ، وطلبه عبادة ، ومُدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قُرْبَةٌ ، وهو الأنس في الوحدة ، والصاحب في الخلوة .

وقال كعب : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : أن تعلّم يا موسى الخيرَ علّمه للناس ، فإني منورٌ لمعلم الخير ، ومتعلمه في قبورهم حتى لا يستوحشوا في مكانهم .

وقال عيسى عليه السلام : من تعلّم وعَلَّمَ وَعَمِلَ فذلك يُدْعَى عَظِيماً في ملكوت السماء .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : خَيْرُ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْمَالِ وَالْمُلْكِ ، فَاخْتَارَ الْعِلْمَ ، فَأَعْطِيَ الْمَالَ وَالْمُلْكَ مَعَهُ .

وقال بعض الحكماء : ليت شعري أيّ شيء أدرك من فاته العِلْمُ ؟ وأي شيء فات من أدرك العلم .

ولا يخفى فضل العلم ببديهية العقل ، لأنه الوسيلة إلى معرفة الخالق وسبب الخلود في النعيم الدائم ، ولا يُعرف التقرب إلى المعبود إلا به ، فهو سبب لمصالح الدارين .

قال الحسن : لولا العلماء لصار الناسُ مثل البهائم . وقال المعافى بن عمران : كتابةٌ حديثٌ واحدٌ أحبُّ إليّ من قيام ليلة .

وكيف لا يقول هذا ؟ وقد قال النبي ﷺ : « يوزن مدادُ العلماء مع دم الشهداء ، فيرجح مدادُ العلماء على دم الشهداء » .

ومن آداب العالم : أن يترك فضولَ الدنيا ليتبعه الناس ، فإن الاستدلال بالفعل أقوى من الاستدلال بالقول ، فإن الطبيب إذا أمرَ الحِمِيَّةَ ، ثم خلّط لم يُلْتَفِتْ إلى قوله .

أخبرنا علي بن عبد الله بسنده عن أبي هَمَّامِ الْكَلَاعِيِّ ، عن الحسن أنه مرَّ

ببعض القراء على بعض أبواب السلاطين فقال: أفرحتم جباهكم، وفرطحتم نعالكم، وجئتم بالعلم تحملونه على رقابكم إلى أبوابهم، فزهّدوا فيكم! أما إنكم لو جلستم في بيوتكم حتى يكونوا هم الذين يُرسلون إليكم لكان أعظم لكم في أعينهم، تفرّقوا فرق الله بين أعضائكم!

وقال الحسن: إن الزبانية إلى فسقة حلة القرآن أسرع منهم إلى عبدة الأوثان، فيقولون: ربنا ما بالنّا يتقدمون إلينا؟ فيقول الله تعالى: ليس من يعلم كمن لا يعلم!

أخبرنا يحيى بن علي بسنده عن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي يقول: من قرأ القرآن عظمت قيمته، ومن تفقّه نبل قدره، ومن كتب الحديث قويت حجّته، ومن تعلم اللغة رقّ طبّعه، ومن تعلّم الحساب جزّل رأيه، ومن لم يصنّ نفسه لم ينفعه علمه.

سمعت إسماعيل بن أحمد يقول: سمعت عبد الله بن عطاء يقول: سمعت أبا نصر الحواري يقول: سمعت أبا حاتم الرازي يقول بسنده عن يونس بن عبد الأعلى يقول: سمعت الشافعي يقول: كتبت حكيم إلى حكيم: يا أخي قد أوتيت علماً، فلا تدنّس علمك بظلمة الذنوب، فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم.

والمأخوذ على المتعلم: أن يطلب العلم للعمل به. ففي الحديث: «من طلب العلم ليباهي به العلماء، أو يُماري به السفهاء، أو ليصرف وجوه الناس إليه لم يرح رائحة الجنة».

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أول الناس يقضي فيه يوم القيامة ثلاثة، فذكر منهم رجلاً تعلّم العلم وعلمه وقرأ القرآن فيقال له: ما عملت! فيقول: تعلمت فيك العلم وعلمته وقرأت القرآن. فيقال: كذبت ولكنك تعلمت، ليقال هو عالم فقد قيل. وقرأت القرآن ليقال هو قارئ وقد قيل. ثم أمر به، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار».

أخبرنا أبو منصور، وعبد الرحمن بن محمد بسندهما عن أبي جعفر عبد الله بن إسماعيل بن توبة. يقول: رأيت أبا بكر الأدمي القاريء في النوم بعد موته، يمد يده فقلت له: تلك الليالي والمواقف والقراءن؟ فقال لي: ما كان شيء أضر علي منها، لأنها كانت للدنيا. فقلت له: فإلى أي شيء انتهى أمرك؟ قال: قال لي تعالى: آليتُ على نفسي أن لا أعدب أبناء الثمانين.

الكلام على البسمة

تَبَيُّ وَنَجْمَعُ وَالْأَثَارُ تُتَدْرَسُ
 ذَا اللَّبِّ فَكَّرَ فَمَا فِي الْخُلْدِ مِنْ طَمَعِ
 أَيْنَ الْمُلُوكِ وَأَبْنَاءِ الْمُلُوكِ وَمَنْ
 وَمَنْ سِيوفِهِمْ فِي كُلِّ مَعْرَكَةٍ
 أَضْحَوْا بِمَهْلِكَةٍ فِي وَسْطِ مَعْرَكَةٍ
 وَعَمَّهَمُ حَدَثٌ وَضَمَّهَمُ جَدَثٌ
 كَانِهِمْ قَطُّ مَا كَانُوا وَمَا خَلَقُوا
 وَاللَّهُ لَوْ أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ مَا صَنَعْتُ
 لِعَايِنَتْ مِنْظَرًا تَشْجَى النُّفُوسُ بِهِ
 مِنْ أَوْجِهِ نَازِرَاتٍ حَارٍ نَاطِرَهَا
 وَأَعْظَمَ بِالْيَاثِ مَا بِهَا رَمَقٌ
 وَالسِّنُّ نَاطِقَاتٌ زَانِبًا أَدَبُ
 نَكَّهَهُمُ أَلْسُنٌ لِلدَّهْرِ فَاغْرَةٌ
 عَرَوْا عَنِ الْوَشْيِ لَمَّا أَلْبَسُوا حَلًّا
 وَصَارَ لُبْسُ الصَّفَايَا مِنْ خَلَاتِلِهِمْ
 حَتَّمَ يَا ذَا النَّهْيِ لَا تَرَعُوي سَفَهًا

يا غافلاً عن نفسه أمرك عجيب، يا قتيل الهوى داؤك غريب، يا طويل الأمل ستدعى فتجيب، وهذا عن قليل وكل آت قريب، هلاً تذكرت لحدك

كيف تبيت وحدك، ويُبَاشِرُ الثَّرى خَدَّكَ، وتقتسم الديدان جِلْدَكَ، ويضحك
المحبُّ بَعْدَكَ ناسياً عنه بَعْدَكَ، والأهل مُدُّ وجدوا المآلَ ما وجدوا فَعَدَكَ، إلى
متى وحتى متى تترك رشدك، أما تُحَسِّنُ أن تحسن إلينا قَصْدَكَ، الأمرُ جَدُّ
مُجَدِّ فلازمُ جِدَّكَ.

ذَهَبَ الأَحِبَّةُ بعد طُولِ تَوَدَّدِ ونَأَى المزارُ فأسلموك وأقشَعُوا
خَذْلوكَ أفقرَ ما تكونَ لَعُربَةَ لم يؤنسوك وكُربَةً لم يَدْفَعُوا
قُضِيَ القِضاءَ وصرتَ صاحبَ حُفْرَةَ عنك الأَحِبَّةُ أَعْرَضُوا وتصدَّعُوا
ووجد على قبرِ مَكْتُوبِ:

سِعْرَضَ عن ذكري وتُنسى مَوَدَّتِي ويَحْدِثُ بَعْدِي للخليلِ خليلُ
إذا انقطعت يوماً من العَيْشِ مُدَّتِي فإن غِناءَ الباكياتِ قليلُ

إلى متى هذا التخليط والموت بكم محيط، أين الأخ والخليط، بادرهما موت
نشيط، كيف يلهو هذا الشَّمِيط، وله أسدٌ مُسْتَشِيط، عليه وسخ وما يُمِيط، لا
بل دمٌ عَيْبِط، يا ربما انقبض النشيط، تيقظ فكم هذا الغَطِيط، اقبل نصحي،
واسمع من الوسيط، يا ذا التحرك في الهوى، لا بد له من سكون، على هذا
كانت الدنيا وعليه تكون، لا يغرّتك سَهْلُها فبعد السهل حُزُون، لا تنظر إلى
فرحها، فكل فرح حُزُون، تأمل فعلها بغيرك فبُغْضُ المُقْبِحِ يهون، إن روحك
دَيْنُ المات، وستقضى الديون، ما فرحها مُسْتَتَم ولا تَرَحُّها مأمون، ما أضحكت
السنن، إلا وأبكت العيون، إياك وإيا المومِسِ الحُثُون، إنها لدار الغرور ومنزل
للمنون، كم نلوم على الغَبْنِ وما يعقل المغبون، مهلاً أضعتم المواعظَ قلبُ هذا
مفتون، يا لائماً لي في الهوى، ما ذا هوى هذا جنون.

أيها الغافل عما بين يديه لا يذكر الموت، ولا يلتفت إليه، شغله عن العواقب
ما لديه وألهاه ماله عمّا عليه:

يا لِقَوْمِي للأملِ المغرورِ ولجَاجِ لا ينقضي في الصدورِ
ولنفسٍ مخدوعةٍ بالأُماني ولهمَّ مُوَكَّلِ بسُرورِ

وانقباض الحياة عمّا يرجي
 يَلْتَحِيهِ الزَّمَانُ فِي كُلِّ يَوْمٍ
 يَتَمَنَّى فِي الْعَيْشِ مَا لَيْسَ يَلْقَا
 وَلِعَيْنِ غَفَّتْ عَنِ الْأَجْلِ الْيَقْظَا
 كُلَّ يَوْمٍ يَهِيضُ لِلْمَرْءِ عَظْمًا
 يَجْمَلُ الْمَوْتَ بَيْنَ جَنِيهِهِ إِذَا يَفُ
 كُلُّ نَفْسٍ فِي مَسْتَقَرٍّ عَلَيْهَا

يا من يجوب شرق الهوى، ثم يقطع غربه، فكم له من طلعة في طلبه وغربة،
 كأنه بسيف الأسف قد سلّ من جفنه فأسال من جفنه غربه.

قال بعض أصحاب الحسن: ليت ابن آدم لم يُخلق. فقال حبيب العجمي:
 فقد وقعت فاحتالوا!

تالله ما اهتمّ بالخلاص إلا أهل التقي والإخلاص، أيامهم بالصلاح زاهرة،
 ودولتهم للعدو قاهرة، وأعينهم في الدجى ساهرة، يخافون العرض على أرض
 الساهرة، والعقول للنفوس ناهية أمره، وأخلاق الثياب على أخلاق طاهرة،
 والدنيا عليهم، والقلوب صابرة، وفي الجملة باعوا الدنيا، فاشتروا بها الآخرة.

قال أبو يزيد: جمعت أسباب الدنيا، فربطتها بجبل القنوع، ووضعتها في
 منجنيق الصدق، ورميت بها في جبل اليأس، فاسترحت:

قرب الحرص مَرَكَبًا لَشَقِيًّا
 مرحبًا بالكفّاف يأتي عَفِيًّا
 ضِلَّةً لَامرِيٍّ يَشْمُرُ فِي الْجَمْرِ
 دَائِبًا يُكْثِرُ الْقَنَاطِيرَ لِلْوَا
 حَبَا كَثْرَةَ الْقَنَاطِيرِ وَلَوْ كَا
 يَغْتَدِي يَرْحَمُ الْأَسِيرُ أُسِيرًا
 يحسب الحظّ كلّهُ فِي يَدَيْهِ

إنما الحرصُ مَرَكَبُ الْأَشْقِيَاءِ
 وعلي المتعبات ذُيْلُ الْعَفَاءِ
 مع لعيشٍ مَشْمُرٌ لِلْفَنَاءِ
 رث والعمر دَائِبًا لِانْقِضَاءِ
 ن لربّ الكنوز كَنَزُ بَقَاءِ
 جاهلاً أنه من الْأَسْرَاءِ
 وهو منه على مَدَى الْجُوزَاءِ

ذلك الخائب الشقي وإن كان يرى أنه من السعداء

الكلام على قوله تعالى

﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئاً﴾ (١)

ميزان العدل يوم القيامة مستقيم اللسان، تبين فيه الذرة، فيجزي العبد على الكلمة قالها في الخير، والنظرة نظرهما في الشر، فيا من زاده من الخير طفيف، احذر ميزان عدل لا يحيف.

أخبرنا ابن المذهب بسنده عن أبي عبد الحنبل قال: سمعت عبد الله بن عمرو ابن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مده البصر؛ ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمت كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب فيقول: ألك عذر، أو حسنة؟ فيبته الرجل فيقول: لا يا رب فيقول: بلى؛ إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم اليوم عليك؛ فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: أحضروه. فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة. قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة».

البطاقة: القطعة.

أخبرنا محمد بن أبي طاهر بسنده عن يونس بن عبيد، عن الحسن قال: بينا عائشة رضي الله عنها عند رسول الله ﷺ بكت؛ فقال رسول الله ﷺ: ما يبكيك؟ قالت: يا رسول الله هل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: أمّا في ثلاثة مواطن، فلا يذكر أحدٌ أحداً: عند الميزان حين يوضع حتى يعلم أثقل موازينه أو تخفّ، وعند الكتاب حين يقال ﴿هاؤم اقرءوا كتابية﴾ (٢)

(١) ياسين ٥٤.

(٢) الخاقية ١٩.

حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه، أو في شماله، أو وراء ظهره. وعند الصراط حين يوضع بين ظَهْرِي جهنم حتى يعلم أينجو، أم لا ينجو.

(أخبرنا) الكَرُوخي بسنده عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وعن أبي سعيد رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول له: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً، ومالاً وولداً، وسخرت لك الأنعامَ والحَرْثَ، وتركتك ترأساً وترتَع، أكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا؟ فيقول: لا، فيقول: اليوم أنساك كما نسيتني.

أخبرنا ابن الحُصَيْن بسنده عن شعبة، عن قتادة عن أبي سعيد الخدري، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون يوم القيامة من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقِّوا أُذِن لهم في دخول الجنة».

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١)

أتراك بأي عمل تُجْزَى، أتراك تُهَنَّى، أو تُعْزَى، قلبك عند الصلاة في غيبة، ولسانك في الصوم في غيبة، وما صفت لك في العمر ركعة، وقد مرَّ أكثر الأجل بسرعة، فانتبه قبل أن يفوت التدارك، وفرِّغ قلبك، قبل أن تفرغ دارك.

أنبأنا أحمد بن الحسين بن عثمان العطار بسنده عن جعفر بن الحسن، عن أبيه، عن الحسن بن علي، عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن في الجنة لشجرة يخرج من أعلاها ومن أسفلها خيل من ذهب مُسْرَجَة ملجمة بلجم من در وياقوت، لا تروث ولا تبول لها أجنحة خطوها مدَّ بصرها، فيركبها أهل الجنة فتطير بهم حيث شاءوا، فيقول الذين أسفل منهم

(١) يس ٥٤ . .

درجة: يا رب بيم بلغ عبادك هذه الكرامة كلها؟ قال: فيقال لهم: إنهم كانوا يصلون الليل وأنتم تنامون، وكانوا يصومون، وكنتم تأكلون، وكانوا ينفقون، وكنتم تبخلون، وكانوا يقاتلون، وكنتم تجبنون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ﴾ (١)

وقرأ نافع، وأبو عمرو في شغل يأسكان الغين، وقرأ ابن يعمر في شغل بفتح الشين وإسكان الغين. وقرأ أبو هريرة في شغل بفتحهما.

وللمفسرين في المراد بذلك الشغل قولان: أحدهما: أنه افتضاض الأبكار.

أخبرنا موهوب بن أحمد بسنده عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما «إن أصحاب الجنة اليوم في شغل» قال في افتضاض الأبكار. والثاني: النعمة. قاله مجاهد.

وقال الحسن: شغلهم نعيمهم عما فيه أهل النار من العذاب.

وفي قوله تعالى: فاكهون أربعة أقوال: أحدها: فريحون. قاله ابن عباس.

والثاني: مُعْجِبُونَ. قاله الحسن. **والثالث: ناعمون.** قاله مقاتل. **والرابع: ذوو فاكهة،** كما يقال لابن تامر. قاله أبو عبيدة.

وقرأ أبو جعفر: فكهون. وهل هي بمعنى القراءة الأولى؟ فيه قولان:

أحدهما: أنها بمعنى واحد. كما يقال: حاذِرٌ وحذِرٌ. قاله الفراء. **والثاني: أن الفكه: الذي يتفكه،** يقال: فلان يتفكه بالطعام. قاله أبو عبيدة.

قوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾ (٢)

الأزواج: الحلائل. والظلال جمع ظل. وقرأ حمزة والكسائي في ظلل. قاله الفراء وهي جمع ظل، وقد تكون الظلال جمع ظلة أيضاً.

(٢) ياسين ٥٦.

(١) ياسين ٥٥.

قال المفسرّون: المراد بالظلال كنا القصور. والمقصود أن بناء الجنة محكم عال، فلو كان هناك شمس كان في ظلهم ما يرده.

أخبرنا عبد الأول أخبرنا الداودي، أنبأنا ابن أعين، حدثنا الفرّبري، حدثنا البخاري، عن معمر عن همام بن منبه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يمتخطون، ولا يتغوّطون، أنيتهم فيها الذهب وأمشاطهم من الذهب والفضة ومجامرهم الألوّة ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سؤقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يستحون الله بكرة وعشيا ».

وقال كعب: لو أن امرأة من نساء أهل الجنة بدأ مِعصمها لذهب ضوء الشمس!.

أخبرنا محمد بن منصور، عن عباد بن راشد، عن ثابت البناني، قال: كنت عند أنس بن مالك، فقدم عليه ابن له من غزاة فساء له، ثم قال: ألا أخبرك عن صاحبنا فلان؟ قال: بينما نحن في غزاتنا قافلين، إذا ثار وهو يقول، وأهلاه وأهلاه. ففُرنّا إليه فظننا أن عارضاً عرض له فقلنا له: ما شأنك؟ فقال: إني كنت أحدث نفسي أن لا أتزوج حتى أستشهد، فيزوجني الله تعالى الحور العين، فلما - طالت عليّ الشهادة حدثت نفسي في سفري هذا: إن أنا رجعت تزوجت، فأتاني آتٍ في منامي فقال: أنت القائل: إن أنا رجعت تزوجت؟ قم فقد زوجك الله العيّناء. فانطلق بي إلى روضة خضراء مُعشبة فيها عَشْر جوارٍ في يد كل جارية صنعة تصنعها لم أر مثلهن في الحُسْن والجمال، قلت لهن: فيكن العيّناء؟ قلن: لا نحن من خدمها، وهي أمامك، فانطلقت، فإذا أنا بروضة أعشَب من الأولى، وأحسن فيها عشرون جارية في يد كل جارية صنعة تصنعها ليس العَشْر إليهن بشيء من الحسن والجمال. قلت: فيكن العيّناء؟ قلن: لا، ونحن من خدمها، وهي أمامك. فمضيت، فإذا أنا بروضة أخرى أعشَب من الأولى، والثانية وأحسن، فيها أربعون جارية في يد كل جارية صنعة تصنعها ليس العشر

والعشرون إليهن بشيء في الحسن والجمال فقلت: فيكن العيناء؟ قلن: لا نحن من خدمها، وهي أمامك. فانطلقت، فإذا أنا بياقوتة مجوفة فيها سرير عليها امرأة قد فضلت السرير قلت: أنت العيناء؟ قالت: نعم مرحباً فذهبت أضع يدي عليها فقالت: مه ان فيك شيئاً من الروح بعد، ولكن فطرك عندنا الليلة.

قال: فما فرغ الرجل من حديثه حتى نادى مناد: يا خيل الله اركبي وأبشري بالجنة. قال: فجعلت أنظر إلى الرجل، وأنظر إلى الشمس، ونحن مصافون العدو، وأذكر حديثه فما أدري أيهما رأيتُه بَدَرَ أول؟ هو أو الشمس سقطت أول؟

فقال أنس: رحمه الله تعالى.

سج

يا هذا لقد بلغ القوم الآمال، ونالوا ملكاً عظيماً لا يزال، فأين ذاك التعب، وتلك الأثقال، وبقي المدح والترحُّ زال، ﴿هم وأزواجهم في ضلال﴾.

طالما نصبوا في خدمة ذي الجلال، فشغلتهم عن اللذات أشغال، وأزعجتهم عن الشهوات أوجال، وقلقهم الموت إذا خطر بالقلب وجال، فإذا وردوا تلقوا بالنوال، ﴿هم وأزواجهم في ضلال﴾.

بالغ القوم في التحقيق، وأخذوا بالأمر الوثيق، وأنذرهم الموت فما أبلغهم الرفيق، فجدوا حتى خرجوا من المضيق، فأما البطال، فإنه لما تلمح الطريق، رآه قد طال.

صام القوم عن الشهوات، وقاموا لله في الخلوات، وحبسوا الألسن عن فضول الكلمات، وتركوا في الجملة جملة اللذات، فانقضى رمضان صومهم، وجاء شوال، ﴿هم وأزواجهم في ضلال﴾.

كم بينك وبينهم، أسخن الشر عينك، وأقر الخير أعينهم، نالوا الحظ ونلت

الخصيصة، أين أنت، وأين هم، وإنما يُكَال للعبد كما كال.
 سبحان مَنْ أصلحهم وسامحهم، وعاملهم فأرَبِحهم، وأنتى عليهم ومدحهم،
 وأقال مُجْتَرِحهم وقال: ﴿هُم وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾.
 قطعوا المهامه ففازوا، وعبروا قناطر الخوف وجازوا، ونالوا غاية المنى
 وحازوا، فسلم الربح ورأس المال ﴿هُم وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِّئُونَ﴾

قال ثعلب: لا تكون الأريكة إلا سريراً في قبة عليه شواره ومتاعه، والشوار
 متاع البيت.

تعبوا فأريحوا، وزهدوا فأبيحوا، زال نصبهم، وارتفع تعبهم، وحصل
 مقصودهم، ورضي معبودهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ أي ما يتمنون. قال ابن قتيبة: العرب تقول
 ادَّع ما شئت. أي تمن ما شئت. وقال الزجاج: هو مأخوذ من الدعاء والمعنى:
 كل ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم.

وقوله: ﴿سَلَامٌ﴾ يدل من ما. والمعنى: لهم ما يتمنون سلام، أي هذا منى
 أهل الجنة أن يسلم الله عز وجل عليهم. و﴿قَوْلًا﴾ منصوب على معنى: لهم
 سلام، يقوله الله قولاً. وفي حديث جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أن الله
 عز وجل يقول: السلام عليكم يا أهل الجنة. فذلك قوله عز وجل: ﴿سَلَامٌ
 قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ فينظر إليهم، وينظرون إليه، ولا يلتفتون إلى شيء من
 النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم.

سجع

أين المستعدون لهم الأمر الجسيم، أين المخاطر في طلب ذا الفضل العظيم، أين
 المتأهب لخلع الفوز والتقديم ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾.

لو رأيتهم في دار الإقامة، على غاية الفوز والسلامة، وعلى القوم حُلل الكرامة، والمَلِك يُسْمِعهم كلامه العزيز القديم، ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ .

حَلُّوا في جوار الجَبَّار، فحلوا بضائع الأسحار، فجوزوا أن قيل لهم: جُوزوا بلا عِثَار، وأشرفُ في جناتِ تجري من تحتها الأنهار، أن أشرف عليهم الكريم بكل تكريم، ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ .

قالما تَمَلَّمُوا تَمَلَّم السَّلِيم، وبكوا في الدَّجى بكاء اليتيم، فانقشع الأمر إلى أن سامحَ الغريم، فأحلَّهم برضوانه جناتِ النعيم، والعيون تجري من رحيق وتَسْنِم، وواسطة ذلك العِقد المَثْمَن النظيم، ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ (١) .

(١) ياسين ٥٨ .

المجلس الثاني في ذكر الطهارة

الحمد لله مُحَكِّمِ المخلوق، ومُتَّفِنِ الصنعة، ومَالِكِ يوم الحشر والجزاء والرَّجْفَةِ، المقدَّرِ ما شاء، فمن ذا الذي يستطيع دَفْعَهُ، أراد فلم ينتفع العبد إن بذل جُهدَهُ ووسعهُ، وعلم إخلاص النية من مقصود السُّمعة، وسمع فلم يَمْنَعِ اختلافُ اللغاتِ سَمْعَهُ، وأبصر حتى جَوَّفَ الجَوْفَ، وجريان الدَّمعة، وشرع فشهدت العقول بصحة الشَّرعة، ومنع فمن ذا الذي يعطي ما قدَّرَ مَنْعَهُ، صفاته كذاته، وما يُشْبِهُ الصانعُ صنْعَهُ، الاستواء معلوم والكَيْفُ مجهول، والايان به واجبٌ، والسؤال عنه بدعة.

أحمده حمداً يدوم ما دامت الأيام السبعة، وأشهد أنه فالق الحب عن الطَّلعة، وأصلي على رسوله محمدٍ المبعوث بأفضل شريعة، وعلى أبي بكر أول من جمع هذه الرُبعة، وعلى عمر فتاح الأمصار، فكم قلع قلعة، وعلى عثمان الصابر على مضيض تلك الصرعة، وعلى عليّ الذي مدائحهُ، أنفق من كل سلعة، وعلى عمه العباس أبي الخلفاء، وأكرم بهذا البيت رفعة.

أخبرنا أبو الحسن الأنصاري بسنده عن يحيى أن زيدا حدثه أن أبا سلام حدثه، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «الطَّهْوَرُ شَطْرُ الإيْمَانِ، والحمد لله تَمَلُّاً الميزان، وسبحان الله والحمد لله تَمَلَّانِ، أو تَمَلُّاً ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل يَغْدُو فبائعٌ نفسه فمعتقها أو موبقها».

انفرد بإخراجه مسلم.

اعلم أن الطهارة على أربعة أضرب:

الضرب الأول: تطهير البدن عن نجسٍ أو حَدَثٍ، أو فضلة من البدن. فأما طهارة الأنجاس ففي الصحيحين من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه مرّ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير: أما أحدهما، فكان لا يستنزه من البول».»

قال الخطابي: معناه أنها لم يعذب في أمر كان كبير عليهما فعله، أو يشق.

وروى الدارقطني عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «استنزهوا من البول، فإن عامة عذاب القبر منه.»

وأما طهارة الأحداث ففي التفريط فيها وعيد شديد. ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو بقال: تخلف عنا رسول الله ﷺ في سفرة سافرناها، فأدركنا ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، قال: فنادى بأعلى صوته، مرتين، أو ثلاثاً: «ويل للأعقاب من النار.»

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله عز وجل أمر بعبدٍ من عباده أن يُضرب في قبره مائة جلدة، فلم يزل يسأل ويسأل حتى صارت جلدة واحدة، فامتلاً قبره عليه ناراً، فلما أفاق قال: لم جلدتموني؟ قالوا: إنك صليت صلاةً بغير طهور، ومررت على مظلومٍ فلم تنصره.»

وقد مُدح إسباغ الوضوء.

أخبرنا: هبة الله بن محمد بسنده عن جامع بن شداد قال: سمعت عمران بن أبان يحدث عن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أمم الوضوء كما أمره الله عز وجل، فالصلوات المكتوبات كفارة لما بينهن.»

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا توضأ العبدُ المسلم، أو المؤمن فغسل وجهه خرجت من وجهه كلُّ خطيئةٍ نظر إليها بعينه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، أو نحو هذا، فإذا غسل يديه خرجت من يديه كل

خطيئة بطشتها يداه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب» .

انفرد بإخراج الحديثين مسلم .

وأما غسل الجنابة فروى أبو داود من حديث عليّ عليه السلام أنه قال: من ترك موضع شعرة من جنابة لم يغسلها فُعل به كذا وكذا من النار، قال عليه السلام: فمن تمّ عاديته رأسي . وكان يَجْزُّ رأسه .

وأما الفضلات فنوعان: أوساخ تعري البراجم والأسنان . قال مجاهد: أبطأ المَلَكُ عن رسول الله ﷺ ، ثم أتاه فقال: لعلّي، أبطأتُ؟ قال: قد فعلتَ . قال: وما لي لا أفعل، وأنتم لا تتسوّكون، ولا تقصّون أظفاركم، ولا تُنقّون بَرّاجكم! قال ابن الأنباري: البراجم: الفُصوص التي في فصول ظهور الأصابع، تبدو إذا جُمعت وتغمض إذا بُسّطت . والرّواجب: ما بين البراجم، بين كل بُرّجتين راجبة .

أخبرنا عبد الأول بسنده عن أبي الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لولا أن أشق على أمتي، أو على الناس، لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة» .

أخرجاه في الصحيحين .

وأخرجا من حديث حذيفة قال: كان رسول الله ﷺ يشوّص فاه بالسواك .

قال أبو عبيد: الشوّص والموّص: الغسل . وقال ابن الأعرابي: الشوص: الدلك والموص: الغسل .

أخبرنا عليّ بن عبد الله، وأحمد بن الحسين، وعبد الرحمن بن محمد بسندهم عن معاوية بن يحيى، عن الزهري، عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال: «تفضل الصلاة التي يستاك لها على الصلاة التي لا يستاك لها سبعين ضعفاً، ويفضل الذكر الخفي على غيره من الذكر بسبعين ضعفاً» .

وأما الأجزاء : فقص الشارب ، ورتف الإبط وحتق العانة ، وتقليم الأظفار .

والضرب الثاني: تطهير الجوارح عن الآثام . قال الله عز وجل : ﴿ إِن السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (١) .

واعلم أن الجوارح كالسواقي توصل إلى القلب الصافي والكدير ، فمن كفها عن الشر جلت معدة القلب بما فيها من الأخلاط فأذابتها ، وكفى بذلك حمية ، فإذا جاء الدواء صادف محلاً قابلاً .

ومن أطلقها في الذنوب أوصلت إلى القلب وسخ الخطايا ، وظلم المعاصي ، فلو وضع الدواء كان بينه وبين القلب حجاب ، فلا تكاد الجوارح تسلم من الخطايا إلا بالعزلة ، فمن أمكنه فما أحسنه ، ومن لم يمكنه تحفظ في مخالطته للخلق ، تحفظ المجاهد في الحرب .

والضرب الثالث: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة من الحرص والحقد والحسد والكبر وغير ذلك ، ولا يمكن معالجته من أدوائه بدوائه حتى تقع الحمية التي وصفناها في كف الجوارح ، ثم يعالج كل داء بدوائه . وكم من متعبد يبالغ في كثرة الصلاة والصوم ولا يعاني صلاح القلب ، وقد يكون عنده الكبر والرياء والتفاق والجهل بالعلم ، ولا يحس بذلك ، وقد يكون تطلعه إلى تقبيل يده وإجابة دعائه ، وهذه آفات لا دواء لها إلا الرياضة بالعلم ليقع التهذيب بإصلاح دائه ، وإنما تنفع العبادة تظهر آثارها وتبين لذاتها مع إصلاح أمراض القلب .

أخبرنا أبو بكر بن حبيب بسنده عن عبد الرحيم بن يحيى الدبلي قال : حدثني عثمان بن عمارة فقال : وردتُ الحجرة مرةً فإذا أنا بمحمد بن ثوبان وإبراهيم بن أدهم وعباد المقرئ ، وهم يتكلمون بكلام لا أعقله ، فقلت لهم : يرحمكم الله ؛ إني شابٌ كما ترون أصوم النهار ، وأقوم الليل وأحج سنةً وأغزو سنةً ، ما أرى في نفسي زيادةً . فشغل القوم عني حتى ظننت أنهم لم يفهموا كلامي ، ثم حان من واحد منهم التفاتة فقال : يا غلام إن هم القوم لم يكن في كثرة الصلاة والصيام ،

(١) الإسراء ٣٦ .

إنما كان همُّ القوم في نفاذ الأبصار حتى أبصروا .

الضرب الرابع: تطهير السرِّ عمّا سوى الله عز وجل . وهذه المرتبة العليا ، ولم تحصل إلا لمن تجلّت له أوصاف الحبيب ، فدخل في دائرة المحبة .

أخبرنا عمر بن زفر بسنده ، عن سعيد بن عبد العزيز قال : أخبرنا أحمد بن أبي الخواري قال : سألت محموداً بن سليمان وأنا حاضر : ما أقرب ما يتقرب به إلى الله عز وجل فبكى أبو سليمان ، ثم قال : مثلي يُسأل عن هذا ! أقرب ما يتقرب به إليه أن يطلع على قلبك ، وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة إلا هو .

قال ابن جهضم : وحدثنا عبد الجبار بن بشران قال : سمعت سهلاً يقول : من نظر إلى الله عز وجل قريباً منه بعد عن قلبه كل شيء سوى الله عز وجل ، ومن طلب مرضاته أرضاه الله عز وجل ، ومن أسلم قلبه إليه تولى الله جوارحه .

قال ابن جهضم : وحدثني أحمد بن عليّ قال : حدثني عباس بن عبد الله الهاشمي قال : سمعت سهل بن عبد الله يقول : ما من ساعة إلا والله مُطّلع على قلوب العباد ، فأَيُّ قلب رأى فيه غيره سلّط عليه إبليس .

قال ابن جهضم : وحدثني عمر بن يحيى قال : سئل الشَّيْبَلِيُّ عن قوله عز وجل : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾ (١) فقال : أبصار الرءوس عمّا حرم الله ، وأبصار القلوب عمّا سوى الله عز وجل .

أخبرنا أبو بكر بن حبيب بسنده عن عليّ بن عبد العزيز ، قال : سمعت أحمد ابن أبي الخواري يقول : بات أبو سليمان ذات ليلة ، فلما انتصف الليل قام ليتوضأ فلما أدخل يده في الإناء بقي على حاله حتى انفجر الصبح ، وكان وقت الإقامة فخشيت أن تفوت صلاته فقلت : الصلاة يرحمك الله فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال : يا أحمد أدخلت يدي في الإناء ، فعارضني عارضٌ من سرّي : هَبْ أنك غسلت بالماء ما ظهر منك ، فماذا تغسل قلبك ؟ فبقيت متفكراً حتى قلت :

(١) النور ٣٠ .

بالمهوم والأحزان فيما يفوتي من الأُنس بالله عز وجل .

يا هذا إذا تَوَضَّأت بغير نية قيل للماء : ابدل له البَلَل لا الطهارة ، فإذا نويت
قيل له : طهارة الظاهر ، فإذا صفا قلبك ، فقد حصلت طهارتك حقيقة !

(الكلام على البسمة)

أرى الناس سَفَرًا في طريق المتالفِ فَمِنْ بالغِ أخرى المدى ومُشارِفِ
وما بَطَّنْ هذي الأرض إلا قرارةً وأرواحنا مثل السيول الجوارِفِ
وما الدهرُ إلا جَوْلَةٌ ثم أولَةٌ ونحن بمِرْصادِ الرقيبِ المشارِفِ

أيها المتفكر في القبور الدوارسِ ، الباكي على من كان به يستأنس ، إبكِ
مُطلقًا ما يَرْعُوي بِنَقْلِ أهلِ المحابِسِ ، تيقظ لِلخِلاصِ ، فإلى كم أنت ناعس ،
وقُمْ مبادرًا للَقَوْتِ ، فإلى كم أنت جالس ، ليت شعري متى تنزود ، ومتى تُبَيِّضَ
القلبَ الأسود ، أين الفرار والرقيب بالمرصد ، إلى متى مع الزلل والإسراف ، إلى
كم مع الخطايا والإقتراف ، أين الندم ، وأين الإعتراف ، لقد سمعتَ من الوعظ
كلَّ شافٍ كاف ، أنت فيما ينفعك قاعد ، وفيما يضر ناهض ، تتوب بلسانك ،
وتضر بجناحك ، أتناقض ؟ الشرُّ في باطنك داخل في الغوامض ، أسدُّ الشَّرِّ في
البيع والشرا ، فإذا يرى الخديعة خلا المرابض ، يا غافلًا عما قد أعدَّ له أمكر
هذا أم بله ، ما عُدَّر من تعثر في ظلمات العيب ، بعد إضاءة نور الشيب ، يا أسفي
من للمحتضر ، إذا علم من قد حضر ، وقلَّب الطَّرْفَ متحيرًا ونظر ، ورأى
العجائب ، وقلَّب البصر ، وندم على إغفاله زاد السفر ، وجرى دمع الأسي ، ثم
انهمر واحتاج إلى قليل من الزاد وافتقر ، ولم ينفعه كل مسطور مدخر ، وتقطع
فؤاده أسفًا وانفطر ، إن هذا لعبرة لمن اعتبر ، إن كان قد سبقك الغير فأنت على
الأثر ، يا هذا الحسابُ شديد والطريق بعيد ، وقد خاف من لاخوف عليه ،
فكيف سكن من لا أمن له !

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول : ودِدْتُ أني شَعْرَةٌ في صدر

مؤمن .

وكان عمر رضي الله عنه يقول: وَدَدْتُ أَنِي أَفْلَيْتُ كَفَافًا لَا عَلِيَّ، وَلَا لِي، لَوْ أَن لِي طِلَاحَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَفِضَّةً لَا فَتْدِيَتْ بِهَا مِنْ هَوْلِ الْمَطَّلَعِ، لَوْ أَن لِي الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَا فَتْدِيَتْ بِهَا مِنْ هَوْلٍ مَا أَمَامِي قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ مَا الْخَبِيرُ.

لَمَّا طُعِنَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَيْتَهُنَّكَ الْجَنَّةُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ: غُرٌّ بِهَذَا غَيْرِي يَا بَنَ عَبَّاسٍ قَالَ: وَلَمْ لَا أَقُولُ لَكَ هَذَا؟ فَوَاللَّهِ إِنْ كَانَ إِسْلَامُكَ لَعِزًّا، وَإِنْ كَانَتْ هَجْرَتُكَ لَفَتْحًا، وَإِنْ كَانَتْ وَلَايَتُكَ لَعَدْلًا، وَلَقَدْ قُتِلْتُ مَظْلُومًا. فَقَالَ: تَشْهَدُ لِي بِذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَكَأَنَّهُ تَلَكَّأَ فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مِنْ جَانِبِهِ: نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، نَشْهَدُ لَكَ بِذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

هذا خوف عمر رضي الله عنه، وأين مثل عمر! كانت الصوامت تنطق بفضله، وهو أسير خوفه وحُزنه، ولو رأيتَه لقلت له:

سَلْ عَنِ فِضَائِلِكَ الزَّمَانَ فَتُخْبِرَا أَوْ لَا فَدَعَّه وَأَدْعَى الشَّرْفَ الَّذِي مَا احتاج يوماً أَنْ يَقَامَ بِشَاهِدٍ فَلَقَدْ جَمَعْتَ مَنَاقِبًا مَا اسْتَجْمَعَتْ فَضَلَ الْأَنَامِ وَأَنْتَ أَتْبَهُمْ قَرَا لَوْ لَمْ تَمْلِكْ الْأُمُورَ قِيَادَهَا فَتَقَدَّمَ الْأُمَرَاءَ غَيْرَ مَنَازِعَ مَا بَيْنَ مَجْدِكَ وَالْمَحَاوِلِ مِثْلَهُ	فَنظِيرَ مَجْدِكَ لَا أَرَاهُ وَلَا يُرَى أَعْيَا الْأَنَامِ، فَلَسْتَ تَلْقَى مُنْكَرَا حَقٌّ أَزَالُ الشُّكَّ وَاجْتِاحَ الْمَرَا مَشْهُورَةً مَا اسْتَعْجَمَتْ فَتَفْسِرَا فِي حَمْلِ نَائِبَةٍ وَأَعْجَلَهُمْ قَرَا صَفَقْتُ قُرَىٍّ مِمَّا عَرَى وَوَهَتْ عُرَى فُورَاءَ زَنْكَدٍ كُلِّ زَنْدٍ قَدْ وَرَى إِلَّا كَمَا بَيْنَ الثَّرِيَّا وَالثَّرَى
--	--

وكان عمر رضي الله عنه يقول: لَوْ أَنِّي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ لَا أُدْرِي إِلَى أَيْتِهْمَا أَصِيرُ، لَاخْتَرْتُ أَنْ أَكُونَ رَمَادًا، قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ إِلَى أَيْتِهْمَا أَصِيرُ.

وكان عليٌّ عليه السلام يقول: آه مِنْ قَلَّةِ الزَّادِ، بَعْدَ السَّفَرِ، وَوَحْشَةِ الطَّرِيقِ! وَاعْجَبًا لِحُوفِهِمْ مَعَ التَّقْوَى، وَأَمْنِكَ مَعَ الْمَعَاصِي!

يَا سَكْرَانَ الْهُوَى مَتَى تُفِيقُ، رَحَلَ الْأَحْبَابُ وَمَا عَرَفْتَ الطَّرِيقَ، وَاتَّسَعَتْ

الرَّحَابِ وَأَنْتِ فِي الْمَضِيقِ ، وَقَدْ بَقِيَ الْقَلِيلُ ، وَتَعْصُ بِالرِّيقِ ، وَتَعَايِنُ زَفِيرَ الْمَوْتِ ،
 وَتَعَالِجُ الشَّهِيْقَ ، وَيَبْطُلُ الْقَوِيُّ وَيَخْرُسُ الْمُنْطِيقُ ، وَتُغْمَسُ فِي بَجْرِ التَّلْفِ ، وَمَنْ
 لِلْغَرِيقِ ، وَيَخْلُو بِيَدِنَاكَ الدُّودُ لِلتَّقْطِيعِ وَالتَّمْزِيقِ ، وَخَرِبَ الْحِصْنَ وَحَطَمَ الْغُصْنَ
 الْوَرِيقِ ، وَخَلَوْتَ بِأَعْمَالِكَ وَتَجَافَاكَ الصَّدِيقُ ، فَإِذَا قَمْتَ مِنْ قَبْرِكَ فَمَا تَدْرِي فِي
 أَيِّ فَرِيقٍ ، يَا مُعْرَضاً كُلِّ الْإِعْرَاضِ عَنِّي ، كَمْ رَسُولٍ قَدْ أَتَاكَ مِنِّي ، وَيَحْكُ عَنِّي
 أَمْنِيَةَ الْمُتَمَنِّيِّ ، أَتَصْرَعُ عَلَى مَعْصِيَتِي وَتَقُولُ ظَنِّي ، أَتَنْقُضُ عَزْمَكَ مَعِي ، وَمَعَ الْعَدُوِّ
 تَبْنِي ، أَتَتْرِكُ كَلَامِي ، وَتَخْتَارُ أَنْ تَغْنِي ، يَا لِلْهُوَى كَمْ صَارَ بَشْرَكَه ، كَمْ عَقَلَ عَقْلاً ،
 فَدَارَ فِي فَلَكِهِ ، كَمْ غَيَّرَ نُوراً مِنَ الْهُدَى بِحَلْكَه ، كَمْ بَطَلَ بَطْلاً فِي حَرْبِهِ وَمُعْتَرَكِهِ ،
 كَمْ أَبْكَى مَغْروراً بَعْدَ لُهْوِهِ وَضَحْكِهِ ، كَيْفَ يَفْرَحُ مَنْ الْمَوْتِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَكَيْفَ
 يَلْهُو مِنْ مَالِهِ بِلَاؤُهُ عَلَيْهِ ، وَكَيْفَ يَغْفَلُ وَرُسُلَ الْمَوْتِ تَحْتَلِفُ إِلَيْهِ ، كَيْفَ يَلْتَذِ
 بُوْطَنَهُ مِنْ يَرَى اللَّحْدَ بَعَيْنِيهِ :

إِنِّي أَبْثُكَ مِنْ حَدِيثِي وَالْحَدِيثُ لَهُ شَجُونُ
 غَيَّرْتُ مَوْضِعَ مَرْقِدِي لَيْلًا فَنَافَرَنِي السُّكُونُ
 قُلْ لِي فَأَوْلُ لَيْلِيَّةٍ فِي الْقَبْرِ كَيْفَ تُرَى تَكُونُ؟!

الكلام على قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ

مُخْضَرَّةً ﴾ (١)

المراد بالماء هاهنا المطر . وقد جعل الله عز وجل الرياح سبباً لإثارتته ، فقال عز
 وجل: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ (٢) وكان النبي ﷺ ينزعج إذا
 رأى الريح ، أو الغيم .

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن أبي النَّضْرِ ، عن سليمان بن يسار ، عن

(٢) فاطر ٩

(١) الحج ٦٣ .

عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه، فقلت: يا رسول الله الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية. فقال: يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: « هذا عارضٌ ممطرنا ».

أخرجاه في الصحيحين.

وقال ابن عباس: الرياح ثمان: أربع رحمة، وأربع عذاب. الرحمة: المبررات، والمنشيرات، والمرسلات، والرِّخَاء. والعذاب: العاصف، والقاصيف، وهما في البحر، والعقيم والصَّرَصْر، وهما في البرّ.

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرّها، وشر ما أرسلت به.

وروى ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال: « اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك ».

قال ابن عباس: الرعد صوت ملك يزجر السحاب، كما ينطق الراعي بالغنم، وكان ابن الزبير إذا سمع صوت الرعد يقول: إن هذا وعيد شديد لأهل الأرض. وقال شهر بن حوشب: الرعد ملك موكل بالسحاب، يسوقه كما يسوق الحادي الإبل، يسبح كلما خالفت سحابة صاح بها، فإذا اشتد غضبه طار النار من فيه.

وسمع سليمان بن عبد الملك صوت الرعد فانزعج، فقال عمر بن عبد العزيز: هذا صوت رحمة فكيف لو جاء بسخط؟!

وقال علي كرم الله وجهه: البرق مخاريق بأيدي الملائكة، يسوقون بها

السحاب. وقال أبو الجلد: البرق هو تلالؤ الماء، والصواعق مخاريق، يُزجر بها السحاب.

قال عطاء: الصاعقة لا تصيب ذاكر الله تعالى.

وقال ابن عباس: ما من عام أكثر مطراً من عام، ولكن الله تعالى يصرفه في الأرضين.

قال عطاء بن أبي رباح: قال موسى عليه السلام: يا رب هذا الغيث لا ينزل، وينزل فلا ينفع؟ قال: لكثرة الزنا وظهور الربا.

وقال عمر رضي الله عنه: إن الرَّجْف من كثرة الزنا، وإن قحوط المطر من قضاة السوء، وأئمة الجور.

أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك بسنده، عن محمد بن واسع، عن سمير بن نهار، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «قال ربكم عز وجل: لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولم أسمعهم صوت الرعد.

قال هارون: وحدثنا عفان بن مبارك، عن فضالة قال: سمعت الحسن يقول: كانوا يقولون - يعني أصحاب النبي ﷺ - الحمد لله الذي لو جعل هذا الخلق خلقاً دائماً لا يتصرف لقال الشاك في الله عز وجل: لو كان لهذا الخلق رباً لحادثته، وإن الله تعالى قد حادث بما ترون من الآيات، إنه قد جاء بضوء طبق ما بين الخافقين، وجعل فيها معاشاً وسراجاً وهاجاً، ثم إذا شاء ذهب بذلك الخلق، وجاء بظلمة طبقت ما بين الخافقين، وجعل فيها سكناً، ونجوماً وقمرًا منيراً، وإذا شاء بنى بناءً جعل فيه المطر والرعد والبرق والصواعق، وإذا شاء صرف ذلك، وإذا شاء ببرد يُقرِّف الناس، وإذا شاء جاء بحرٌ يأخذ بأنفاس الناس ليعلم الناس أن لهذا الخلق ربا يجادته بما يرون من الآيات كلها، كذلك إذا شاء ذهب بالدنيا وجاء بالآخرة.

وكان النبي ﷺ إذا استسقى يقول: اللهم اسق عبادك وبهائمك، وانشر رحمتك، اللهم اسقنا غيثاً هنيئاً مريئاً غداً طبقاً، عاجلاً، غير راثث نافعاً غير ضار، اللهم اسقنا سقياً وادعة نافعة.

قال أنس: أصابنا مطر في زمن رسول الله ﷺ، فحسر رسول الله ﷺ ثوبه حتى أصابه المطر وقال: إنه حديث عهد بربه.

وفي لفظ: كان رسول الله ﷺ يلقي ثيابه أول مطرة تمطر.

وقال عكرمة: كان ابن عباس إذا مُطر يقول: يا عكرمة اخرج الرياح، أخرج كذا حتى يصيبه المطر.

وقال عبيد بن عمير: يبعث الله ريحاً فتقيم الأرض، ثم يبعث المثيرة، فتثير السحاب، ثم يبعث المؤلفة فتؤلفه، ثم يبعث اللواقح فتلقح الشجر.

وقال عكرمة: ينزل الله عز وجل الماء من السماء السابعة، فتقع القطرة منه على السحاب مثل البعير. قال كعب: والسحاب غربال المطر، ولولا السحاب لأفسد ما يقع عليه.

وقال ابن عباس: المطر مزاجه من الجنة، فإذا كثر المزاج كثرت البركة، وإذا جاء القطر من السماء فُتحت له الأصداف، فكان لؤلؤاً.

وفي حديث أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «عند نزول الغيث تفتح أبواب السماء، ويستجاب الدعاء».

قال المفسرون: إذا نزل القطر على الأرض اهتزت، أي تحركت للنبات، فإذا أراد الخروج ارتفعت عنه فهو معنى قوله عز وجل ﴿وَرَبَّتْ وَأَنْبَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ (١) أي من كل جنس ﴿بِهَيْجٍ﴾ أي أنه يهيج ويسر.

يا من قد أجدبت أرض قلبه، متى تهبّ ريح المواعظ فتشير سحاباً، فيه

(١) الحج ٥.

رعود تخويف، وبروق خشية، فتقع قطرة على صخر القلب، فيتروى ويُنبت!؟
يا من أجدبت أرض قلبه، واشتغل عنها ولها، أخرج إلى صحراء التيقظ
واستسق لها، هيهات ان تخضر أرض القلب حتى يتروى الخد من عين العين. لا
تياس من جذب الجذب، فليس بمستحيل أن يستحيل.

سجع

سبحان المتفرد بالقدرة، فلا تقدر الخلائق قدره، أنعم فمن يطيق شكره،
كلا إن الغافل في سكرة ﴿أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾^(١).

جلّ صفةً وعزّ اسماً، وبسط أرضاً، ورفع سماً، وأنزل من السماء ماء، فحمي
النبات فسمّوه جمرة «فتصبح الأرض مخضرة».

تعرفه القلوب والألباب، ويسبحه الصحو والضباب، انبعث الغيم فما توقف
السحاب، أقبل الرعد في صرة «فتصبح الأرض مخضرة».

تأخر الغيث فتمكن الضرّ، ثم جاء فالمؤمن بذلك سرّ، فاستغاث النبات مما
عرّ، فجاء بعد أن كان قد مرّ، كم كرّ كرة بعد كرة «فتصبح الأرض
مخضرة».

أصبح الثرى عطشان ينادي، واليبس عليه ظاهرٌ بادي، فصاح الرعد
بالسحاب صياح الحادي، فتروى الوادي، وسالت الجرة «فتصبح الأرض
مخضرة».

انبعث السحاب فطبّق الأرجا، وصاح البدوي في البدو: النجا، والجرون
متلفعة بالغثا، دب ثم نesch، ثم قَطَطَ، ثم أفرط، ثم جاء بكرة «فتصبح الأرض
مخضرة».

انكشفت سماء الأرض عن بُدورها، وأذنت الغائبات النبات في حضورها،

(١) الحج ٦٣.

ولم تَخُنْ الأرضُ من بَدْرِ نباتها ذرَّةً « فتصبح الأرضُ مخضرةً » .

أحضرت أمهات الزرع عن نباتها، واجتمعت الأغصان بالقطر بعد شتاتها،
وتزينت للناظرين بأنواع نباتها، ولقد كانت عرَّةً « فتصبح الأرضُ مخضرةً » .

فشت الزينة في الصحارى والبرى، وأظهرت عجائب القدرة فيما يرى، وأشاع
الثرى كما ترى من المكتوم سيره « فتصبح الأرضُ مخضرةً » .

ماتت تحت الأرض كل البذور، فإذا الرعد ينفخ في الصور، فضحك النورُ
بالنور لما سره « فتصبح الأرضُ مخضرةً » .

قام ميت البذر من حُفْرته، وقدم بعد طول سفْرتِه، ومنح النبات لكثرتِه
قاعة ومُعْتَرَّةً « فتصبح الأرضُ مخضرةً » .

تكلمت الأطيَّار، والمعنى مفهوم، وارتاحت بنطقها حتى البوم، وتبدلت
الأرضُ، الفرَح من الهموم، فانقلبت تلك الغموم كلها مسرَّةً « فتصبح الأرضُ
مخضرةً » .

جيدت الأرضُ فروت التراب، وأجيدت المواعظ فهل أحضرت
الألباب؟!، وما يؤثر اللوم والعتاب، إلا عند نفسٍ حرَّةً « فتصبح الأرضُ
مخضرةً » .

والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

المجلس الثالث في ذكر الصلاة

الحمد لله الذي أوضح سبيل هدايته لأرباب ولايته، وأبّهج وحرّك أهل عبادته إلى معاملته وأزعج، وأبدع بدائع قدرته في محكم صنعه وأخرج، وأوقد نيران محبته في أفئدة احبته وأجج، من عرف لطفه ثنى عطفه إليه وأدلج، ومن خاف عتبه ترك ذنبه وتحرّج، يُحب الإخلاص في الأعمال، ولا يخفى عليه البهرج، حلیم فإن غضب مكرّ بالعبد واستدرج، لا يُعترّ بجلمه، فكم عقاب في الحلم أدرج، واعتبر بأبيك إذ فسح لنفسه في شهوة وأمرج، وحام حول المنهى اغتراراً بالصفح وعرج، كيف أصبح إكرامه بمير الهوان يُمزج، وأضحى ينسج الصوف إذ عرى عما يُنسج، وصار مغتر القدمين بعد فرس العزّ المُسرج، ولم تزل تجري دموع عينيه إلى أن تاب عليه وفرج، لا يخفى عليه ضمير القلب، وإن تلوى اللسان ومجمّج، ولا يغيب عن بصره في سواد الليل طرّف أدعج، يُبصر جرّي اللبن يسري في العروق نحو المخرج، وينزل إلى السماء الدنيا فأين الذي بالمناجاة يلهج، فيستعرض الحوائج إلى أن يلوح الفجر ويتبلج، وما انتقل ومن عقل رأى الحق أبلج، هذا مذهب من القرآن القديم والنقل القويم مُستخرج، وهو المنهاج العظيم، فلا تعرّج عن المنهج.

أحمده على ما سرّ وما أزعج، وأشهد بوحدانيته بغير تلجّج، شهادة موقن ما لجلّج، وأن محمداً عبده ورسوله الذي محاسن الشرائع في شريعته تُدرّج، ﷺ وعلى أبي بكر أول من أنفق من ماله وأخرج، وعلى عمر الذي اضطر كسرى إلى الهرب وأحوّج، وعلى عثمان المظلوم، وقد عدل، وما عدل ولا عرج، وعلى

عليّ مبيد الطغاة، وآخرهم المخدج، وعلى عمه العباس الذي قرن الله نسبه بنسب الرسول وأزواج.

أخبرنا: هبة الله بن محمد، قال: حدثنا الحسين بن علي التميمي، أنبأنا أحمد ابن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا الوليد بن مسلم، سمعت الأوزاعي يقول: حدثني الوليد بن هشام المعيطي، حدثنا معدان بسنده إلى ابن أبي طلحة اليعمري، قال: لقيت ثوبان مولى رسول الله ﷺ فقلت: أخبرني بعملٍ أعمله يدخلني الجنة، أو قال: قلت بأحب الأعمال إلى الله فسكت، ثم سألته الثانية فسكت، ثم سألته الثالثة فقال: سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «عليك بكثرة السجود، فإنك لا تسجد لله سجدة، إلا رفعك الله بها درجة، وحطَّ عنك بها خطيئة» قال معدان: ثم لقيت أبا الدرداء، فسألته فقال لي مثل ما قال لي ثوبان.

انفرد بإخراجه مسلم.

إعلم ان الله عز وجل عظم قدر الصلاة، لأنها أوقى خدمة العبد، والمراد من العبد التعبد، وهي جامعة بين خضوع بدنه، ونطق لسانه، وحضور قلبه، وإن الله تعالى جعل عبادة ملائكته بين سجود وركوع وذكور، وذلك مجموع في الصلاة، وليس لنا فعل يدخل به الكافر في حكم الإسلام، ويخرج بتركه المسلم من الإسلام إلا الصلاة، فإن عندنا أن الكافر إذا صلى حُكِمَ بإسلامه، سواء صلى مع جماعة، أو منفرداً فيُجَبَّرُ عندنا على الإسلام.

وعن أبي حنيفة روايتان إحداهما: كقولنا. والثانية: اشترط ان يكون في جماعة. وقال الشافعي: إذا صلى الحرِّيُّ في دار الإسلام، حُكِمَ بإسلامه.

وأما تارك الصلاة فلا يختلف مذهبنا عن مذهب أحد رضي الله عنه أنه يقتل حدًّا أو كفرًا. فيه روايتان. إحداهما: يُقتل لكفره. وهو قول عمر وابن مسعود وابن عباس وجماعة وجابر والشَّعْبِي، والأوزاعي رضي الله عنهم. وقد دل على هذا ما أخرجه مسلم في أفرادهِ من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال:

« بَيِّن العبد وبين الكفر ترك صلاة » .

والرواية الثانية: يقتل حَدًّا، لا أنه يكفر. وهو قول مالك والشافعي. وقال أبو حنيفة: يُحْبَس ولا يستتاب، ولا يُقْتَل.

واعلم أن الشرع، عَظَّمَ أمر الصلاة، وضرب الأمثال بفضلها.

أخبرنا عبد الملك بن أبي القاسم، أنبأنا أبو عامر الأزدي، وأبو بكر الغُورَجِيّ، قالا: أخبرنا أبو محمد الجراحي، أنبأنا أبو العباس المحبوبي، أنبأنا الترمذي، حدثنا قتيبة، حدثنا الليث عن أبي الهادي، عن محمد بن إبراهيم، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء قالوا: لا. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » .

أخرجاه في الصحيحين.

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ انه قال: « الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفّرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » .

وفي أفراد من حديث عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم تؤت كبيرة، وذلك الدهر كله » .

أخبرنا سعيد بن أحمد بسنده إلى مجاهد، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « استقيموا ولن تُخْصُوا، واعلموا ان فضل أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » .

وقد فضّل الشرعُ تقديم الصلاة في أول الوقت.

ففي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله ﷺ أيّ العمل أحبُّ إلى الله تعالى؟ قال: « الصلاة على وقتها » .

وفضلت الصلاة في الجماعة .

ففي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال :
« صلاة الجماعة تفضل على الصلاة الفَذِّ بسبع وعشرين درجة » .

وروى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال : « من صلى أربعين يوماً في
جماعة لم تفته ركعة واحدة كتب الله له براءتين : براءة من النار ، وبراءة من
النفاق » .

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده قال البغوي : سمعت عبد الله بن عمر
القواريري يقول : لم تكن تفوتني صلاة العتمة في جماعة ، فنزل بي ضيف فشغلت
به ، فخرجت أطلب الصلاة في قبائل البصرة ، فإذا الناس قد صلّوا ، وخلت
القبائل ، فقلت في نفسي : روي عن النبي ﷺ أنه قال : « صلاة الجماعة تفضل
على صلاة الفذ خساً وعشرين درجة » . وروى « سبعاً وعشرين » . فانقلبت إلى
منزلي ، فصليت العتمة سبعاً وعشرين مرة ، ثم رقدت فرأيتني مع قومٍ راكبي
أفراس ، وأنا راكب فرساً كأفراسهم ، ونحن نتجاري فالتفت إليّ أحدهم ،
فقال : لا تُجهد فرسك ، فلستَ بلاحقنا . فقلت : فلم ذاك ؟ قال : إنا صلينا
العتمة في جماعة .

وورد الثوابُ لمنتظر الصلاة .

فروي في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه
قال : « لا يزال أحدكم في صلاة ما كانت الصلاة تحبسه لا يمنعه إلا انتظارها » .

وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : لا يزال أحدكم في صلاة ما
كانت الصلاة تحبسه لا يمنعه إلا انتظارها » .

وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : صلينا مع رسول الله ﷺ
المغرب فعقب من عقب ، ورجع من رجع ، فجاء رسول الله ﷺ يحسّر ثيابه عن
ركبتيه فقال : « أبشروا يا معشر المسلمين ، فهذا ربكم قد فتح باباً من أبواب

السماء يُباهي بكم الملائكة يقول: « هؤلاء عبادي قضاوا فريضة، وهم ينتظرون أخرى ».

وقد عظم الصف الأول فروى في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: « لو يعلم الناس ما في الصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا لاستهموا ».

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة أيضاً، عن النبي ﷺ أنه قال: « لو يعلم الناس ما في الصف المقدم لكانت قرعة ».

وقد أمر المصلي بخفض رأسه استعمالاً لأدب الخدمة، فروى مسلم في أفراده من حديث جابر بن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: « لَيَنْتَهَيْنَ أقوامٌ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، أو لا ترجع إليهم ».

وأمر المصلي بالثبوت في الركوع والسجود؛ حدثنا الكروخي بسنده، عن عمير، عن أبي معمر، عن أبي مسعود الأنصاري، قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تُجزى صلاةٌ لا يقيم فيها الرجل يعني صلُّه في الركوع والسجود ».

وفي حديث ابن شيبان عن النبي ﷺ أنه قال: لا ينظر الله تعالى إلى رجل لا يقيم صلُّه في الركوع والسجود ».

واعلم أن المقصود بالصلاة، إنما هو تعظيم المعبود، وتعظيمه لا يكون إلا بحضور القلب في الخدمة. وقد كان في السلف من يتغير إذا حضرت الصلاة ويقول: أترؤن بين يدي من أريد أن أقف؟!

وأنت تعلم أن من حضر قلبه في تعظيم سُلْطانه، فحضر بين يديه من يعرف من إلى جانبه امتلاً بهيبة المعظم، فإذا أردت استجلاب حضور قلبك الغائب، ففرِّغه من الشواغل مها استطعت.

وقد كان أرباب التفكير من السلف يشاهدون في كل شيء عبرة، فيذكرون بالأذان نداء العرض، وبطهارة البدن تطهير القلب، وبستر العورة طلب ستر

القبايح من عيوب الباطن، وباستقبال القبلة صرّف القلب إلى المقلّب، فمن لم تكن صلاته هكذا فقلبه غافل.

يا هذا إذا صلّيت والقلب غائب وجوده، فالصلاة كالعدم، وهو بالرّوم مقيم، وله بالشام قلب، يا ذاهل القلب في الصلاة حاضر الذهن في الهوى، جسده في الحراب وقلبه في بلاد الغفلة.

جاء مملوك إلى سيده فقال: ضاعت ميخلاة الفرس، فقام السيد يصلي، فلما فرغ من الصلاة قال: هي في موضع كذا، وكذا: فقال الغلام: يا سيدي أعد الصلاة، فإنك كنت تفتش على الميخلاة!

قال الحسن: يا ابن آدم إذا هانت عليك صلاتك، فما الذي يعزّ عليك؟

ولما كان المطلوب حضور القلب جاء الوعد بالثواب الجزيل عليه. أخبرنا ابن الحصين بسنده عن زيد بن أسلم، عن زيد بن خالد الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى سجدتين لا يسهو فيها، غفر الله له ما تقدم من ذنبه».

وفي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «من توضع فأسغ الوضوء ثم قام إلى الصلاة: فأتم ركوعها وسجودها، والقراءة فيها قالت: حفظك الله كما حفظتني. ثم يصعد بها إلى السماء، ولها ضوء ونور، فتفتح لها أبواب السماء حتى تنتهي إلى الله عز وجل، فتشفع لصاحبها. فإذا لم يتم ركوعها ولا سجودها ولا القراءة فيها قالت: ضيعك الله كما ضيعتني. ثم أصعدت إلى السماء وعليها ظلمة فأغلقت دونها أبواب السماء، فلقت كما يلف الثوب الخلق، فيضرب بها وجه صاحبها».

الكلام على البسمة

لا تأسفنَ لأمرٍ فاتٍ مَطْلَبه هيات ما فائت الدنيا بمرود
إذا اقتضت أخذتْ نَقْدًا وإن سئلت فدأبها بالأماني والمواعيد
وما السرورُ بها الموروث آخره أن يُتبع الحرصَ إلا قلبٌ مَكْدودٍ

وللتأسف يَبْقَى كُلُّ مُدَّخِرٍ وَلِلْمَنِيَّةِ يَغْدُو كُلُّ مَوْلُودٍ

يا مخلوقاً من علق، اكتف من الدنيا بالعلق، واحذر في ريّ الهوى من شرّق، وتذكّر يوم الرحيل ذاك القلق، وتفكّر في هاجمٍ يسوّي بين الملوك والسوق؛ وتأهب له، فرجماً بكّر، وربما طرق، يا من شاب وما تاب، استلب باقي الرمق، أبعد الحلم جهل، أم بعد الشيب نزع، كان الشباب غُصْنًا غُضًّا فحلّي عن ورق، وأنت في الشباب كالشيب تجري على نسق، يا غريقاً في الهوى صحّ من قبل الغرق، كم طالب خلاصاً لما فات ما اتفق.

ليأتينك من الموت ما لا يقبل رشوة، ولا مالا، إذا حال على القوى والقويم مالا، يا مختار الهوى جهلاً وضلالاً، لقد حملت أزرِك أوزاراً ثقّالا، إياك والمنى فكم وعد المنى مُحالاً، كم قال لطالب نِعَمٍ: نَعَم سَأعطيك نوالاً وقد نوى: لا.

كم سقى الموتُ من الحشرات كؤوساً، كم فرّغ ربّعاً عامراً مأنوساً، كم طمس بدوراً وشُموساً واستلب نعيماً، ثم أعطى بوساً، وأذل جابرة كانوا شوساً، وأغمض عيوناً ونكّس رؤوساً، وأبدل التراب عن الثياب ملبوساً.

إذا كان ما فيه الفتى عنه زائلاً فشتان فيه أدرك الحظ أو أخطأ
وليس يفي يوماً سرورٍ وغبطة بُحزن إذا المعطي استرد الذي أعطأ
ذهب الشاب الأسود، وانقضى العيش الأرغد، وقال الشيب: أنا الموت وما أبعد، هذا، وقلبُ الغافل كالجلمد:

لا يدع إن ضحكك القتير فبكي لضحكته الكبيرُ
عاصى العزاء عن الشبا ب وطاوع الدمع الغزيرُ
سُقياً لأيام مضت فطويلها عندي قصيرُ
سقى الشباب وإن عفى آثار معهده القتيرُ
ما كان إلا الملك أو دى بل هوى وهوى السرييرُ

هُوْنٌ عَلَيْكَ فَإِنِهَا خَلَعَ أَعَارِكَهَا مُعِيرُ
وَالدَّهْرُ يَقْسِمُ مَرَّةً نَفْلًا وَأَوْنَةً يُغَيِّرُ

كلُّ راحات الدنيا هموم وكروب، أما دوام العيش بالمشيب مشوب .

نظر سليمان بن وهب وزير المهدي يوماً في المرأة فرأى شيئاً كثيراً فقال:
عيبٌ لا عدمناء .

أنت كل يوم إلى القبر تتقرب، وسترحل إلى البلى وتتغرب، وسياًكل المحب
بعدك ويشرب، وكأنك إذا ذكرت أضرب، فخذ العدة، فخيّل الشدة تسرب
واسمع نصحي فنصحي مجرب، يا هذا إحذر الأمل، وبادر العمل، فكأنك
بالأجل على عجل. أما الأعمار كل يوم ناقصة، أما الفجائع واردة واقصة: أما
النكبات لأهلها معاقصة، أما كفّ الموت قابضة قانصة، فأنتي لساكن الدنيا
بالسلامة الخالصة، كأنك بالموت قد ثلّب وقدح، وأورى زناد الرحيل وقدح،
وخلت كفتك يا من تعب وكدح، وتساوى لديك من ذمّ ومن مدح، ما هذه
العمارة لدار خراب، كلما عمرها قومٌ صاح بينهم للبين غراب، أتبني وأنت
تنقض، هذا العجّاب:

رُبَّ شَرِيفِ الْبِنَاءِ عَلَيْهِ بِالشَّيْءِ وَالسَّاجِ كَانَ بَانِيهِ
كَأَنَّما الشَّمْسُ فِي جِوَانِبِهِ بِاللَّيْلِ مِنْ حُسْنِهِ تَبَاهِيهِ
تَحَارَ فِي صَحْنِهِ الرِّيحُ كَمَا يَحَارُ سَارِي الظَّلامِ فِي التَّيِّهِ
كَانَتْ صَحُونٌ فِيحٌ تَضِيقُ بِهِ فَالشَّبْرُ فِي القَبْرِ صارَ يَكْفِيهِ

الجِدَّةُ الجِدَّةُ قَبْلَ بَغْتَاتِ المَنِيَا، البِدَارُ البِدَارُ، قَبْلَ حُلُولِ الرِّزَايَا، لِيَحْلَنَ بِكُمْ
مِنَ المَوْتِ يَوْمَ ذُو ظَلَمٍ يَنسِيكُمْ مَعَاشِرَةَ اللِّذَاتِ وَالنَّعَمِ، وَلَا يُبْقِي فِي الأَفْوَاهِ إِلا
طَعْمَ النِّدَمِ:

سَلْ بِالزَّمَانِ خَبيراً إِنِّي بِهِ لَعَلِيمُ
وَإِهي الأَمَانَةُ ظَاعِنٌ بِالمرءِ وَهُوَ مَقِيمُ

لا تُخَدَعْنَ بِبُيُوتَةٍ أُمَّ الْخَلْسِ وَدِ عَقِيمٌ
 وَإِذَا الْمُنْيَةُ أَبْرَقَتْ فَرَجَاؤُكَ الْمَهْزُومُ
 عُشِقَ الْبَقَاءُ وَإِنَّمَا طَوَّلُ الْحَيَاةِ هَمُومٌ

ما هذه الخصال المذمومة، أيؤثر الفهُوم لذة مَسْمُومة، إن هذه لعقول
 مرجومة، متى تيقظ هذه النفوس الملوثة، إنها لظالمة وكأنها مظلومة، تُعاهدوا
 والعهودُ كلَّ يوم مهدومة، لتتمنين أن تكون في غد معدومة، لتعلمن أن
 اختياراتها كانت مشؤومة، من لها إذا بدت لها خصال مكتومة، كيف تصنع إذا
 نشرت الصحف محتومة، ما هذا الحرص الشديد والأرزاق مقسومة، تصحب
 حزينه وتسمي مهمومة، أتقدر على رد ما يُقَدَّر والأُمور محتومة، أسفاً لها الموتُ
 يطلبها وهو نُؤُومة، ما حاربت جندَ هوى إلا وعادت مهزومة، يا لها موعظة بين
 المواعظ كالأيام المعلومة أحسن من اللآلئ المنثورة. والعقود المنظومة.

الكلام على قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾^(١)

سبب نزولها أنه لما نزل: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ
 جَهَنَّمَ﴾^(٢) شق ذلك على قريش وقالوا: شتم آلهتنا، فجاء ابن الزبيري فقال: ما
 لكم؟ قالوا: شتم آلهتنا قال: وما قال؟ فأخبروه فقال: ادعوه لي. فلما دعى رسول
 الله ﷺ قال: يا محمد هذا شيء لآلهتنا خاصة، أول لكل من عبد من دون الله؟
 قال: بل لكان من عبْد من دون الله عز وجل. قال ابن الزبيري: خُصِمْتُ وربَّ
 هذه البنية! أأست تزعم أن الملائكة عبَاد صالحون، وأن عيسى عبد صالح، وأن
 عزيزاً عبْد صالح؟ فهذه بنو مليح يعبدون الملائكة، وهذه النصارى تعبد
 عيسى، وهذه اليهود تعبد عزيزاً. فضجَّ أهل مكة، فنزلت هذه الآية. قاله ابن
 عباس.

(٢) الأنبياء ٩٨.

(١) الأنبياء ١٠١.

اسم ابن الزَّبَعْرِيِّ: عبد الله كان يهجو أصحاب رسول الله ﷺ والزعبري:
بفتح الباء .

قال المفسرون: وإنما أراد بقوله: ﴿وما تعبدون﴾ الأصنام؛ لأنه لو أراد
الملائكة والناس لقال ومن .

والحسني عند العرب: كلمة توقع كل محبوب ومطلوب؛ قال امرؤ القيس:
فصيرنا إلى الحسنى ورقّ كلامنا ورُضت فذلت صعبةً أيّ إذلال
وقوله تعالى: ﴿أولئك عنها﴾ أي عن جهنم ﴿مُتَعَدُونَ﴾ والبعد طول
المسافة . والحسيس: الصوت تسمعه من الشيء، إذا مرّ قريباً منك .

وقال ابن عباس: لا يسمع أهل الجنة حسيس أهل النار، إذا نزلوا منازلهم
من الجنة ﴿وهم فيما اشتتهت أنفسهم خالِدُونَ﴾ (١) .

أخبرنا عبد الأول بسنده إلى عطاء بن يسار، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ
كان يوماً يحدث وعنده رجل من أهل البادية فقال: إن رجلاً من أهل الجنة
استأذن ربه في الزرع فقال له: أو لست فيما شئت؟ قال: بلى، ولكني أحب أن
أزرع. فأسرع وبذر فبادر الطرف نباته، واستواؤه واستحصاده، فيقول الله عز
وجل: دونك يا بن آدم لا يشبعك شيء. فقال الأعرابي: يا رسول الله لا نجد
هذا إلا قُرَشِيًّا، أو أنصاريًّا، فإنهم أصحاب زرع، فأما نحن فلنسنا بأصحاب
زرع. فضحك رسول الله ﷺ .

انفرد باخراجه البخاري .

قوله تعالى: ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه
النفخة الأخيرة رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني: أنها إطباق النار على أهلها . رواه ابن جبّير عن ابن عباس .

(١) الانبياء ١٠٢ .

والثالث: أنه ذَبَح الموت بين الجنة والنار . قاله ابن جُرَيْج .

والرابع: أنه حين يُؤمَّر بالعبد إلى النار . قاله الحسن .

قوله: ﴿وتتلقاهم الملائكة﴾ اختلفوا في محلِّ التَّلَقِّي على قولين: أحدهما: أنه إذا قاموا من قبورهم . قاله مُقَاتِل .

والثاني: على أبواب الجنة . قاله ابن السائب .

قوله: ﴿هذا يومُكم الذي كنتم توعدون﴾^(١) فيه إضمار: يقولون هذا يومكم الذي كنتم توعدون فيه الجنة .

أين من يعمل لذلك اليوم ، أين المتيقِّظ من سِنَةِ النوم ، أين من يلحق بأولئك القوم ، جدُّوا في الصلاة ، وأخروا في الصوم ، وعادوا على النفوس بالتوبيخ واللوم ، ليتك إن لم تقدر على الإشمام لطريقتهم حصَّلت الرِّوْم .

قوله تعالى: ﴿يوم نطوي السماء﴾ وذلك بمحو رسومها ، وتكدير نجومها ، وتكوير شمسها ﴿كطي السَّجَل﴾ وفي السجل أربعة أقوال:

أحدها: أنه ملك . قاله علي بن أبي طالب ، وابن عمَر ، والسُّدِّي .

والثاني: كاتب كان لرسول الله ﷺ . رواه أبو الجوزاء ، عن ابن عباس .

والثالث: السجل بمعنى الرجل . روي عن ابن عباس . قال: شيخنا أبو منصور اللُّغَوِي: وقد قيل: السجلّ بمعنى لغة الخبشة: الرجل .

والرابع: أنها الصحيفة . رواه ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس . وبه قال مجاهد والفرَّاء وابن قتيبة .

وقرأت على شيخنا أبي المنصور قال: قال أبو بكر بن دُرَيْد: السجل: الكتاب والله أعلم . ولا التفت إلى قولهم أنه فارسي معرب .

والمعنى: كما يُطَوَّى السجل على ما فيه من الكتاب . واللام بمعنى على . وقال

(١) الأنبياء ١٠٣

بعض العلماء: المراد بالكتاب المكتوب؛ فلما كان المكتوب ينطوي بانطواء الصحيفة جعل السجل كأنه يَطْوِي الكتاب.

ثم أستأنف فقال: ﴿ كما بدأنا أولَ خَلْقِ نُعيدُه ﴾^(١) وفي معناه أربعة أقوال:
أحدها: كما بدأناهم في بطون أمهاتهم حفاةً عراةً عُراً، كذلك نعيدهم يوم القيامة.

أخبرنا عبد الأول بسنده، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: « إنكم تُحشرون حفاةً عراةً عُراً، كما بدأنا أولَ خَلْقِ نُعيدُه وعداً علينا إنا كنا فاعلين ».

أخرجه في الصحيحين.

والغزل: القلف، يقال هو أقلف وأغرل وأغلف بمعنى واحد.

وفي بعض الأحاديث بهما. ومعناه: سالمين من عاهات الدنيا وآفاتها لا جذام بهم ولا برص ولا عَمَى، ولا غير ذلك من البلايا، لكنهم يحشرون بأجساد مصححة لخلود الأبد، إما في الجنة، وإما في النار، والبهم من قول العرب: أسود بهم وكُميت بهم وأشقر بهم: إذا كان لا يخالط لونه لون آخر، فكذلك هؤلاء يبعثون معافين عافية لا يخالطها سقم.

والثاني: أن المعنى: أنا نهلك كل شيء كما كان أول مرة، رواه العوفي عن ابن عباس.

والثالث: أن السماء تمطر أربعين يوماً كمنى الرجال، فينبتون بالمطر في قبورهم، كما ينبتون في بطون أمهاتهم. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والقول الرابع: أن المعنى: قُدرتنا على الإعادة، كقدرتنا على الإبتداء. قاله الزجاج.

(١) الأنبياء ١٠٤.

يا له من يوم ما أعجب أحواله، وما أصعب أهواله، وما أكثر أحواله، مريض طرده لا يُرجى له، ذُكر القيامة أزعج المتقين وخوف العرّض أقلق المذنبين، ويوم الحساب أبكى العابدين، وأرى قلبك عند ذكره لا يلين.

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن عبد الرحمن بن محمد المكارى، عن موسى الجهني قال: سمعت عون بن عبد الله يقول: ويحي كيف أغفل، ولا يُغفل عني، أم كيف تهنيئني أمعشتي، واليوم الثقيل ورائي، أم كيف لا يطول حزني ولا أدري ما فعل في ذنبي، أم كيف أؤخر عملي، ولا أعلم متى أجلي، أم كيف يشتد عَجبي بالدنيا، وليست بداري، أم كيف أجمع لها، وفي غيرها قراري، أم كيف تعظم رغبتني فيها، والقليل منها يكفيني، أم كيف آمن فيها، ولا يدوم فيها حالي، أم كيف يشتد حرصي عليها، ولا ينفعني ما تركت منها بعدي، أم كيف أوترها، وقد ضرت من أثرها قبلي، أم كيف لا أفك نفسي من قبل أن يعلّق رَهني.

قال عبد الله بن الحسن بن عبد العزيز الجروي، قال: حدثنا عبد الله بن يوسف الدمشقي، قال: حدثنا محمد بن سليمان بن بلال، أن أمه عثّامة كُفّ بصرها، فدخل عليها ابنها يوماً، وقد صلّى فقالت: أصليتم أيّ بني؟ فقال: نعم. فقالت:

عَثّام مالِكِ لاهية	حلّت بدارك داهية
ابكي الصلاة لوقتها	إن كنت يوماً باكية
وابكي القرآن إذا تُلي	أن كنت يوماً تالية
تتلينه بتفكّر	ودموع عينك جارية
فاليوم لا تتلينه	إلا وعندك تالية
لهفي عليك صباية	ما عشت طول حياته

يا غافلاً عن القيامة، ستدري بمن تقع الندامة، يا مُعرضاً عن الإستقامة، أين وجه السلامة، يا مبنياً بالقدرة سينقض بناؤك، ويا مستأنساً بداره ستخلو

أوطانك، يا كثير الخطايا سيخف ميزانك، يا مشغولاً بلهوه سينشر ديوانك، يا أعجمي الفهم متى تفهم، أتعاذي النصيح، وتوالي الأرقم، وتؤثر على طاعة الله كسب درهم، وتفرح بذنب عقوبته جهنم، ستعلم حالك غداً ستعلم، سترى من يبكي ومن يندم، إذا جثا الخليل وتزلزل ابن مريم، يا عاشق الدنيا، كم مات متيم، يا من إذا خطرت له معصية صمم، ما فعلك فعل من يريد أن يسلم، ما للفلاح علامة، والله أعلم إن كان ثم عذر فقل وتكلم.

أيها المثخن نفسه بجراحات الشباب، حسبك ما قد مضى سوّدت الكتاب، أبعد الشيب وعظ، أو زجر، أو عتاب، هيهات تفرقت وصل الوصل وتقطعت الأسباب.

حسبك ما قد مضى من اللعب فتب إلى الله فعل مرتقب
طواك مرّ السنين فاطو ثياب اللد هو واخلع جلايب الطرب
وتب فإن الجحيم تنتظر الأشد يب إن مات وهو لم يتب
تظهر منها عليه أغلظ ما تظهره للشباب من غضب

السّجع على قوله تعالى ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾.

يا من لا يؤثر عنده وعده ووعيدة، ولا يزعجه تخوفه وتهديده، يا مطلقاً ستعقله يده، ثم يفنيه البلى ويبيده، ثم ينفخ في الصور فيبتدأ تجديده ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾.

فرقنا بالموت ما جمعنا، ومزقنا بالتلف ما ضيعنا، فإذا نفخنا في الصور أسمعنا، نحكم الميعاد في الميعاد ونجيده ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾.

كم حسرة في يوم الحسرة، ومم سكرة من أجل سكرة، يوماً قد جعل حسين ألف سنة قدره، كل ساعة فيه أشد من ساعة العسرة، نبني فيه ما نقضناه ونشيد ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾.

قربنا الصالحين منا، وأبعدنا العاصين عنا، أحببنا في القدام وأبغضنا، فمن

قضينا عليه بالشقاء أهلكننا، فهو أسير البعد وطريدته، ومن سبقت لهم منا
الحسنى، فنحن نُنعم عليه ونفيده ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ .

يومٌ كلُّه أهوال، شُغله لا كالأشغال، يتقلقل فيه القلب والبال، فتذهل
عقول النساء والرجال، ومن شدة ذلك الحال لا ينادي وليده .

تجري العيون وابلاً وطلاً، وترى العاصي يقلق ويتقلّى، ويتمنى العودَ
فيقال: كلاً. والويلُ كل الويل لمن لا نريده. تخشع فيه الأملاك، وتطير فيه
الضحّاك، ويعز على المحبوس الفكّاك. فأما المؤمن التقي فذاك عبده .

إخواني: إرجعوا بحسن النّزوع والأوبة، واغسلوا بمياه الدموع ماضي الحوبة،
وقد نصّبنا للمذنب شرّك التوبة، أفترى اليوم تصيده .

يا من لا يزال مطالباً مطلوباً، يامن أصبح كل فعله محسوباً، إن حرّكك
الوعظُ إلى التوبة صرت محبوباً، وإن كان الشقا عليك مكتوباً فما ينفع ترديده .

المجلس الرابع

في ذكر الزكاة

الحمد لله الذي لا واضع لما رفع، ولا رافع لما وضع، ولا واصل لما قطع، ولا مفرّق لما جمع، سبحانه من مقدر ضرّ ونفع، زحكّم فالكل حُكّمه كيف وقع، أمرّض حتى ألقى على شفاً، ثم شفى الوجع، وواصل من شاء، ومن شاء قطع، جعل العصاة في خفارة الطائعين، وفي كنف القوم وسع، ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع﴾ (١).

أحمده على ما أعطى ومنع، وأشكره إذ كشف للبصائر سير الخدع، وأشهد بأنه واحد أحكم ما صنع، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله والكفر قد علا وارتفع، وفرّق بمجاهدته من شرّه ما اجتمع، ﷺ وعلى صاحبه أبي بكر الذي نجم نجم سعادته يوم الردّة وطلع، وعلى عمر الذي عزّ الإسلام به وامتنع، وعلى عثمان المقتول ظلماً وما ابتدع، وعلى عليّ الذي دحض الكفر بجهاده وقمّع، وعلى عمه العباس الذي سئل به سئل السحاب فهمع. اللهم يا من إلى بابه كلّ راغب رجع، اجعلنا ممن بالمواعظ انتفع، واحفظنا من موافقة الطّبع والطّمع وانفعني بما أقول وكل من استمع.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿والذين يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢).

الكنز: ما لم يؤدّ زكاته. أخبرنا عبد الأول بسنده عن الليث بن سعد، عن

(٢) التوبة ٣٤.

(١) الحج ٤٠.

نافع أن عبد الله بن عمر قال: ما كان من مال تؤدّي زكاته فليس بكنز، وإن كان مدفوناً، وما ليس مدفوناً لا تؤدى زكاته؛ فإنه الكنز الذي ذكره الله عز وجل في كتابه.

وفي قوله: ﴿ولا يُنفقونها﴾ قولان، ذكرهما الزجاج:

أحدهما: أن المعنى يرجع إلى الكنوز.

والثاني: إلى الفضة. وقال أبو عبيدة: العرب إذا أشركوا بين اثنين قصرّوا فأخبروا عن أحدهما استغناءً بذلك، وتخفيفاً بمعرفة السامع أن الآخر قد شاركه ودخل معه في ذلك الخبر:

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقّارٌ بها لغريبٌ
قوله تعالى: ﴿فبشرهم بعذابٍ أليمٍ﴾. أي اجعل مكان الإشارة هذا.

قوله عز وجل: ﴿يوم يُحْمَى عليها في نار جهنم﴾^(١). يعني الأموال. قال ابن مسعود: ما من رجل يُكْوَى بكنز فيوضع دينار على دينار، ولا درهم على درهم، ولكن يوسّع في جلده فيوضع كل دينار على حدّته.

وقال ابن عباس: هي حية تطوى على جنبه وجبهته فتقول: أنل مالك الذي بخلت به.

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن المحرور بن سويد، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في ظل الكعبة فقال: هم الأخرسون وربّ الكعبة. قالها ثلاث مرات. قال: فأخذي غمّ وجعلت أنتفس، قال: قلت هذا شرّ حدث فيّ. قال: قلت: من هم؟ فذاك أبي وأمي؟ قال: الأكثرون أموالاً إلا من قال في عباد الله، هكذا وهكذا، وقليل ما هم، ما من رجل يموت فيترك غمّاً أو إبلاً، أو بقراً ولا يؤدّي زكاتها، إلا جاءته يوم القيامة أعظم ما تكون، وأسمّن حتى تطأه بأظلافها وتنطحه بقرونها حتى يقضي الله بين الناس،

(١) التوبة ٣٥.

ثم تعود أولاهها على أخراها .

أخراها في الصحيحين (١)

وبالإسناد عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من صاحب إبل لا يفعل فيها حقها إلا جاءته يوم القيامة أكثر ما كانت قط، وقعد لها بقاع قرقر تنطحه بقرونها وتطؤه بقوائمها، ولا صاحب غنم لا يفعل بها حقها إلا جاءت أكثر ما كانت، وقعد لها بقاع قرقر تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها ليس فيها جماء ولا منكس قرنها، ولا صاحب كنز لا يفعل فيه حقه، إلا جاء يوم القيامة شجاعاً أقرع يتبعه فاغراً فاه، فإذا أتاه مرّ منه فيناديه ربه: خذ كنزك الذي خبأته فإني عنه أغنى منك، فإذا رأى أن لا بد له منه سلك بيده في فيه فيقضمها قضم الفحل .»

انفرد بإخراجه مسلم .

وفي أفراد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة صُفّحت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوي بها جبهته، وجنبه وظهره، كلما تردّت أعيدت إليه أولاهها أعيدت أخراها أعيدت إليه في يوم كان مقداره: خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله، إما إلى الجنة، وإما إلى النار .»

أخبرنا عبد الأول بسنده عن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته مثل له ماله شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه، يعني شذقيه يقول: أنا مالك، أنا كنزك، وتلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ الآية» (١) .

إنفرد بإخراجه البخاري .

(١) آل عمران ١٨٠ .

فإن قيل: لم يخص الجبّاه والجُنُوب والظهور من بقية البدن؟

فجوابه من وجهين: أحدهما: أن هذه المواضع مجوّفة فيصل الحرّ إلى أجوافها، بخلاف اليد والرجل، وكان أبو ذر يقول: بشر الكنازين بكَيّ في الجبّاه، وكَيّ في الجُنُوب، وكَيّ في الظهر حتى يلتقي الحرّ في أجوافهم.

الثاني: أن الغني إذا رأى الفقير انقبض، وإذا ضمه وإياه مجلس ازورّ عنه، وولاه ظهّره، فكُويت تلك المواضع منه، قال أبو بكر الورّاق.

قوله تعالى: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾^(١) المعنى: هذا ما ادخرتم لأنفسكم ﴿فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنُزُونَ﴾ أي عذاب ذلك اليوم.

واعلم أن الزكاة أحد أركان الإسلام. قال عليه السلام: «بُنِيَ الإسلام على خمس» فذكر منهن الزكاة.

وينبغي للمتيقظ أن يفهم المراد من الزكاة، وذلك ثلاثة أشياء.

أحدها: الابتلاء بإخراج المحبوب. **والثاني:** التنزه عن صفة البخل المهلك. **والثالث:** شكر نعمة المال، فليتذكر إنعام الله عليه إذ هو المعطي لا المعطى.

وعليه ألا يؤخّرها إذا حال الحول، لأنها حق للفقير، ويجوز تقديمها على الحول، ولا يجوز إعطاء العوّض باعتبار القيمة. وينبغي أن ينتقي الأجود للفقير، فإن الذي يعطيه هو الذي يلقاه يوم القيامة، فليتخير لنفسه ما يصدّق به، وأن يقدم فقراء أهله ويتحرى بها أهل الدين، ولا يبطل صدقته بالمن والأذى، فليعط الفقير بانسراح ولطف حتى كأن الفقير هو الذي يُنعم بما يأخذه، وليستر عطاءه أهل المروءات فإنهم لا يؤثرون كشف ستر الحاجة، فإن خطر له أن الزكاة ينبغي أن تشاع لئلا يتهم الإنسان، ففي من لا يستحي إذا أخذها كثرة، فليشعها عند أولئك، وليترك أرباب الأنفة تحت ستر الله عز وجل.

(١) التوبة ٣٥.

الكلام على البسمة

غَوَالِبُ رَاحَةِ الدُّنْيَا عَنَاءٌ وَمَا تَعْطِيهِ مِنْ هَيْبَةِ هَبَاءٍ
 وَمَا دَامَتْ عَلَى عَهْدٍ بِخَلْقٍ وَلَا وَعَدَتْ فَكَانَ لَهَا وَفَاءٌ
 تُذِيقُ حَلَاوَةً وَتُذِيقُ مُرًّا وَليْسَ لَذَا وَلَا هَذَا بَقَاءٌ
 وَتَجْلُو نَفْسَهَا لَكَ فِي الْمَعَاصِي وَفِي ذَاكَ الْجَلَاءِ لَهَا الْجَلَاءُ
 إِذَا نَشَرْتَ لِهَوَا الْمَلِكِ فِيهَا لَوَى قَلْبَ الْغَنِيِّ لَهَا اللَّوَاءُ
 فَدَعَّهَا رَاغِبًا فِي ظِلِّ عَيْشٍ وَمُلِكَ مَالَهُ أَبَدًا فَنَاءُ

عجباً لمن عرف الدنيا، ثم اغتر، أما يقيس ما بقي بما مرّ، أيؤثر لبيب على الخير الشرّ، أيجتر الفطن على النفع الضر، كم نعمة عليك قد سلّفتها، وما قمت بفريضة كلّمتها، إذا دعيت إلى التوبة سوّفتها، وإن جاءت الصلاة ضيّعتها، وإذا قمت في العبادة خفّفتها، وإذا لاح لك وجه الدنيا ترشّفتها، لقد آفتك آفة الدنيا وما أفّتها، إنها لدار قلّعة تضيّفتها، أو ليس قد شيّت وما عرفتها، كم حيلة في مكاسبها تلطّفتها، ولو شغلتك عنها آيات تأفّفتها، كم بادية في أرباحها تعسّفتها، كم قفار في طلبها طفّتها، كم كذبات من أجل الدنيا زخرّفتها، لقد استشعرت محبتها، إي والله والتحقّفتها، تحضر المسجد وقلبك مع النبي ألفتها، أو ما يكفيك أموالك وقد ألفتها، تا الله لو علمت ما تجني عفتها. أنسيت تلك الذنوب التي أسلفتها، ألسّت الذي تذكّرتنا، ثم خفّفتها، آه لمراحل أيام قطعها وخلّفتها، آه لبضائع عمر بدّرت فيها وأتلفتها، لو أردت خيراً وبجّنتها وعفّتها، لو قبلتها بالوفاق، فهلا خالفتها؟

إخواني: قولوا للمفرط الجاني، قال لك الشيب: أما تراني، أنا كتاب المنون والضعف عنواني، وليس في السطور إلا أنك فاني:

أنكرت سلّمى مشيباً عراني ورأتني غير ما قد تراني
 أشرف الشيب على لمتي وشباب المرء ظلّ للزمان
 إنما أنت لما قد ترى لا يغرنك ضمان للأمان

هل ترى من عائش خالدٍ كم ترى من هالكٍ قد صار فاني
لو أعنت العين إذا أبصرت واعظاتي بفؤادي لكفاني
أي شيء أتقيسي والردى بين جنبي بعيني يداني
كل يوم ناقصٌ دولةً من بقائي جاذبٌ مني عنائي
وألاقيه بلا جنة فإذا شاء أن يذمي لحنيني رماني
تابعٌ يتبع ماضيي كما يتبع العاملُ جرّاً للساني
لذة الدنيا إذا ما حضروا فإذا غابوا فشغل للأماني
ما اطمان الدهرُ حتى تقضوا فكأن لم أرهم في مكانٍ

أين أهل العرائم، رحلوا وماتوا، أين أهل اليقظة ذهبوا وفاتوا، قف على
قبورهم تجد ريح العزم، تنفس عندها تحب روح الحزم، أقبلوا بالقلوب على
مقلبيها، وأقاموا النفوس لدى مؤدبها، ومدّوا الباع من باع التسليم إلى صاحبها،
وأحضروا الأخرى فنظروا إلى غايتها وسهروا الليالي كأنهم قد وكلوا برعى
كواكبها، ونادوا نفوسهم صبراً على نار البلاء لمن كواكبها، ومقتوا الدنيا فما
مال الملاء إلى ملاعبها، واشتاقوا إلى الحبيب، فاستطالوا مدة المقام بها.

أنتم على البعد همومي إذا غيبتم وأشجاني على القرب
لا أتبع القلب إلى غيركم عني لكم عين على قلبي

إن لم تكن معهم في السحر، فتلمح آثار الحبيب عليهم وقت الضحى، واقراً
في صحائف الوجوه سطوير القبول بمداد الأنوار، وجوة ينهاها الحسن أن تتقنعا.

أين أنت من القوم، كم بين اليقظة والنوم، يا بعيد السلامة، قد قربت منك
النعامة يا عديم الاستقامة، ما أرى لنجاتك علامة، أعمالك لا تصلح للجنة،
وخصالك الباطنة أوصاف.

إلى متى إلى متى جدّ في غير الجد والكماش، إلى كم في الظلام، وقد نسخت
الأعباش، تمكّن حبّ الدنيا من القلب، فما يخرج منه منقش، ولاح نور الفلاح
وكيف يبصر خفاش، أمّا النهار فأسير الهوى في المعاش، وأما الليل فقتيل المنام

في الفراش، كيف يصحب الصلحاء مَنْ هَمَّتْهُ صُحْبَةُ الأوباش، وهل يبارز في
صف الحرب خَوَارٍ ضَعِيفِ الجاش، دخل حب الدنيا، فاستبطن بَطْنَ المَشَاش.

مِثْلُ الشَّيْبَةِ كَالرَّيْبِ إِذَا مَا جِيَدٌ فَاخْضَرَّتْ لَهُ الأَرْضُ
فَالشَّيْبُ كَالْمَحَلِّ الْجَمَادِ لَهُ لَوْنَانِ مُعَبَّرٌ وَمُبَيَّنٌ
سَنَحَتْ لَهُ ذَهْيَاءُ مِنْ كَثَبٍ دَانَتْ خُطَاهُ وَمَا بِهِ أَيْضُ
تَرَكَ الْجَدِيدُ جَدِيدَهُ هَمَلًا لَا الصَّوْنُ يُرْجِعُهُ، وَلَا الرَّحْضُ
وَتَعَاقَبَ التَّفْتِيشُ يَقْدَحُ فِي صَمِّ الصَّفَا فَيُظَلُّ يَرْفُضُ

الكلام على قوله عز وجل:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ (١)

المعنى: لن تنالوا البر الكامل، وبعض المفسرين يقول: المراد بالبرها هنا
الجنة، ولن يدرك الفضل الكامل، إلا ببذل محبوب النفس.

أخبرنا عبد الأول بسنده عن إسحاق بن عبد الله بن طلحة، أنه سمع أنس
بن مالك يقول: «كان أبو طلحة أكثر أنصاريٍّ بالمدينة مالاً من نخل، وكان
أحب أمواله إليه بئر حاء وكانت مستقبلية المسجد، وكان رسول الله ﷺ
يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَنْ
تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ قام أبو طلحة فقال: يا رسول الله إن الله
تعالى يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إليَّ
بئر حاء، وإنها صدقة لله أرجو برّها وذُخْرُهَا عند الله فضعها حيث أراك الله.
قال: فقال رسول الله ﷺ: «بَخِ ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، أَوْ رَائِحٌ - شَكَ ابْنُ مَسَلَمَةَ -
وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ». قال أبو طلحة: أفعل
ذلك يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه.

أخرجاه في الصحيحين. ورواه حميد عن أنس فقال فيه: لو استطعت أن

(١) آل عمران ٩٢.

أَسْرَهَا لَمْ أَعْلَمَهَا . فَقَالَ : اجْعَلْهُ فِي فَقْرَاءِ أَهْلِكَ .

وقال مجاهد : كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى أن يبتاع له جارية من سبِّي جلولاء ففعل ، فدعاها عمر فأعتقها ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ ﴾ .

وقال ابن عمر : خَطَرَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِيَالِي : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ ﴾ . ففكرت فيما أعطاني الله عز وجل ، فما وجدت شيئاً أحب إلي من جارييتي رميثة فقلت : هي حُرَّة لوجه الله ، فلولا أني لا أعود في شيء جعلته لله لنكحتها . فأنكحها نافعاً فهي أم ولده .

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده ، عن عبد العزيز بن رواد ، عن نافع ، قال : كان ابن عمر إذا اشتد عُجْبُهُ بشيء من ماله قربه لربه عز وجل . قال نافع : كان بعض رقيقه قد عرفوا ذلك منه ، فربما شمر أحدهم ، فلزم المسجد فإذا رآه ابن عمر على تلك الحالة الحسنة أعتقه ، فيقول له أصحابه : يا أبا عبد الرحمن والله ما بهم إلا أن يخذعوك ! فيقول ابن عمر : فمن خدعنا بالله المخذعنا له ! .

قال نافع : فلقد رأيتنا ذات عشية ، وراح ابن عمر على نَجِيبٍ له قد أخذه بمال ، فلما أعجبه سيره أناخه مكانه ، ثم نزل عنه وقال : يا نافع انزعوا زِمَامَهُ وَرَحْلَهُ وَجَلَّلُوهُ وَأَشْعَرُوهُ وَأَدْخِلُوهُ فِي الْبُدْنِ .

وروى بشر بن دعلوف عن الربيع بن خثيم أنه وقف سائل على بابه فقال : أطمعوه سكرًا ، فإن الربيع يحب السكر .

واعلم أن الإنفاق يقع على الزكاة المفروضة ، وعلى الصدقة النافلة ، وعلى الإيثار والمواساة للإخوان ، فمن أخرج لله عز وجل شيئاً ، فليكن من أطيب ماله ، وليوقن المضاعفة .

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن سعيد بن يسار ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تَصَدَّقَ بِعِدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ - وَلَا

يصعد إلى الله إلا الطيب - فإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربها لصاحبها كما يربي أحدكم فلؤه حتى يكون مثل الجبل .»

وفي أفراد مسلم من حديث أبي مسعود الأنصاري قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ بناقة مخطومة فقال : هذه في سبيل الله . فقال رسول الله ﷺ : « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة » .

أخبرنا يحيى بن علي بسنده ، عن يونس بن عبيد ، عن الحسن ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الصدقة لتطفئ غضب الرب ، وتدفع ميتة السوء » .

أخبرنا موهوب بن أحمد بسنده عن يزيد الرقاشي ، عن أنس ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تصدقوا فإن الصدقة فكاك من النار ، والصدقة تمنع سبعين نوعاً من البلاء أهونها الجدّام والبرص » .

وفي حديث بُرَيْدَةَ رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ . أنه قال : ما يُخرج أحد شيئاً من الصدقة حتى يفك لِحْيِي سبعين شيطاناً .

وينبغي للمتصدق أن يُصلح نيته ، فيقصد بالصدقة وجه الله عز وجل ، فإن لم يقصد وجه الله لم تُقبل منه . وينبغي ان يتخير الحلال .

ففي أفراد مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : لا يقبل الله صدقةً من غُلُولٍ .»

وكان الحسن يقول : أيها المتصدق على المسكين برحمة ، ارحم من ظلمت .

وأن يتخير الأجود ، فقد قال الله تعالى : ﴿ أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ، وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ (١) . وقال عروة بن الزبير : إذا جعل أحدكم لله شيئاً ، فلا يجعل له ما يستحي ان يجعل لكرّيمه ، فإن الله تعالى أكرم الكرماء وأحق من اختيار له .

ثم ينبغي ان يكون إخراج المحبوب في زمان صحة المعطي ، وزمان فاقة

(١) البقرة ٢٦٧ .

المعطى، وليقدّم الأقرباء، ويقدم من الأقارب من لا يميل إليه بالطبع. ففي حديث أبي أيوب الأنصاري عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الصدقة الصدقة على ذي الرحم الكاشح».

وليخرج المعطي ما سهل وإن قلّ. فقد روى جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ أنه: سئل: أي الصدقة أفضل؟ فقال: جهداً المقلّ.

وقال الحسن: أدركنا أقواماً كانوا لا يردون سائلاً إلا بشيء، ولقد كان الرجل منهم يخرج من بيته فيأمر أهله ألا يردوا سائلاً.

ومن آداب العطاء ان يكون سراً، فإن صدقة السر تطفئ غضب الرب عز وجل، قال عبد العزيز بن عمير: الصلاة تُبلغك نصف الطريق، والصوم يبلغك باب الملك، والصدقة تُدخلك عليه.

الكرِيم حر لأنه يملك ماله، والبخيل عبْدٌ لأن ماله يملكه، أما علمت ان رسول الله ﷺ طُبع على أشرف الأخلاق وقد وصف نفسه عليه الصلاة والسلام فقال: «يأتى الله لي البخل» وأعطى غنماً بين جبلين فتحير الذي أعطاه في صفة جوده فقال: هذا عطاء من لا يخشى الفقر، فلما سار في فيافي الكرم تبعه صديقه فجاء بكل ماله فقال: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت الله ورسوله:

سبق الناس إليها صَفْقَةً لم يُعد رائدها عنها بَعْبِنُ
هِرَّةً للجُود صالت نَشْوَى لم يكذّر عندها العُرْفُ بَمَنْ
طلبوا الشاء فوافى سابقاً جَذَعٌ غَبَّرَ في وجه المسن

نزع أبو بكر مَخِيطَ الهوى فمزّقه عليّ، رمى الصديقُ جهازَ المطلّقة فوافقه عليّ حتى رمى الخاتم: -

جَبَّبَ الفقرَ إليه أنه سُودِدَ وهو بذاك الفقرِ يَغْنَى
وشريفُ القوم من بقى لهم شرفَ الذكرِ وخالَى المالَ يَفْنَى
ما اطمانَ الوَفْرُ في بَحْبُوحَةِ فرأيتَ المجدَ فيها مُطْمَئِنّاً

تُهدم الأموال من أساسها أبداً ما دامت العلياء تُبنى
كان السلف يؤثرون عند الحاجة ، ويقدمون الأجودَ المحبوب .

أخبرنا عبد الأول بسنده إلى أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً
أتى رسول الله ﷺ فبعث إلى نسائه فقلن ما عندنا إلا الماء فقال رسول الله
ﷺ : من يَضُم هذا أو يُضِيف هذا ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا فانطلق به إلى
امرأته فقال : أكرمي ضيف رسول الله ﷺ فقالت : ما عندنا إلا قوتُ
الصبيان ، فقال : هيئي طعامك وأصلي سراجك ونومي صبيانك إذا أرادوا
عشاء ففعلت ثم قامت كأنها تُصلح سراجها فأطفاه فجعل يريانه أنها يأكلان ،
فباتا طاويين ، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال : ضحك الله الليلة ، أو
عجب ، من فعالكما . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ
خَصَاصَةٌ وَمَنْ يوقِ شَحِّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

أخبرنا عبد الوهاب بسنده إلى محمد بن عبيد ، عن ابن الأعرابي قال استشهد
باليرموك عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن أبي جهل وسهيل بن عمرو بن الحارث
ابن هشام وجماعة من بني المغيرة ، فأتوا بماء وهم صرعى ، فتدافعوه حتى ماتوا ولم
يدوقوه ! أتى عكرمة بالماء فنظر إلى الحارث بن هشام ينظر إليه فقال : ابدأوا
بهذا فنظر سهيل إلى الحارث بن هشام ينظر إليه فقال : ابدأوا بهذا فماتوا كلهم
قبل ان يشربوا ، فمر بهم خالد بن الوليد فقال : بنفسي أنتم !

نقّه ابن عمر من مرض فاشتهدى سمكة ، فلما قدمت إليه جاء سائل فناوله
إياها .

واشتهى الربيع بن خثيم حلواء ، فلما صنعت دعا بالفقراء فأكلوا ، فقال أهله :
أتعبتنا ولم تأكل فقال : وهل أكل غيري !

كم بينك وبين الموصوفين كما بين المجهولين والمعروفين ، آثرت الدنيا وآثروا
الدين ، فتلمح تفاوت الأمر يا مسكين ، أمّا الفقير فما يخطر ببالك ، فإذا جاء

سائلٌ أغلظت له في مقالِك، فإن أعطيته فحقيراً يسيراً من رديء مالك . إلى كم
تتعب في جمع الحطام وتشقى، وتؤثر ما يفنى على ما يبقى: -

يُحصي الفتى ما كان من نفقاته ويضيع من أنفاسه ما أنفقا
لم يعتصم ملك يشيد ملكه حصناً يُغرّ به ويحفر خندقاً
وكأنما دنيا ابن آدم عرسه أخذت جميع ترائه إذ طلقا

السجع

على قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾

عباد الله: إلى متى تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، والجد في
بيوتكم تدخرون، والرديء إلى الفقير تُخرجون ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا
تَحِبُّونَ﴾ .

حركوا هممكم إلى الخير وأزعجوا، وحثوا عزائمكم إلى الجدِّ وأدليجوا،
والتفتوا عن الحرص على المال وعرجوا، وآثروا الفقير بما تؤثرون .

ويحكم! السيرُ حثيث، ولا مُنجد لكم ولا مُغيث، فبادروا بالصدقة
المواريث، ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ كم قطعت الأمالُ بتاً . كم مُصيف
ما أربع ولا شتى، كم عازم على إخراج المال ما تأتي، سبقتهُ المنون، ﴿لَنْ تَنَالُوا
الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ يا حريصاً ما يستقر، يا طالباً للدنيا ما يقِر، إن
كنت تُصدّق بالثواب فتصدّق في السر بالمحجوب المصون ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى
تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ .

يا بخيلاً بالفتيل شحيحاً بالنّقيير، يا صريعاً بالهوى إلى متى عقير، تختار
لنفسك الأجدود، ولربك الحقير، ما لا يصلح لك من الشيء تُعطيه الفقير، فما
تختار لنا كذا يكون .

اكتسابك على أغراضك أنفقت، أمرجت نفسك في الشهوات وأطلقت،

ونسيت الحسابَ غداً وما أشفقت فإذا رحمت الفقير وتصدقت أعطيتَ الرديَّ
الدُّونَ .

أما المسكينُ أخوك من الوالدين فكيف كففت عن إعطائه اليدين ، كيف
تحتُّ على النَّفلِ ، والزكاةُ عليك دينٌ ؟ وأنتم فيها تتأولون .

يا وحيداً عن قليل في رَمْسِه ، يا مستوحشاً في قبره بعد طول أنسه ، لو قدَّم
خيراً نفعه في حَبْسِه . ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (١) .

تجمع الدينار على الدينار لغيرك ، وينساک من أخذ كلَّ خيرك ، ولا تزودت
منه شيئاً لسيرك ، هذا هو الجنون ﴿ لن تنالوا البرَّ حتى تُنفقوا مما تحبون ﴾ .

(١) الحشر ٩ .

المجلس الخامس في ذكر الصيام

الحمد لله خالق الدُّجَى والصباح ومُسَبِّب الهدى والصلاح، ومقدِّر الغُوم والأفراح، الجائد بالفضل الزائد والسَّمَاح، مالك الملك المنجي من الملُك، ومسير الفلُك والفلُك مسير الجَنَاح، عزَّ فارتفع، وفرَّق وجمع، ووصل وقطع، وحرَّم وأباح، ملك وقدر، وطوى ونشر، وخلق البشر وفطر الأشباح، رفع السماء وأنزل الماء، وعلم آدم الأسماء، وذرى الرياح، أعطى ومنع، وأنعم ومدح، وعفا عمن اجترح، وداوى الجراح، علم ما كان ويكون، وخلق الحركة والسُّكون، وإليه الرجوع والركون في الغد والرواح، يتصرف في الطُّول والعرض، وينصب ميزان العدل يوم العَرْض ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾^(١).

أحمده وأستعينه، وأتوكل عليه وأسأله التوفيق لعملٍ يقرب إليه، وأشهد بوحدانيته عن أدلة صِحاح، وأن محمداً عبده المقدم، ورسوله المعظم، وحبيبه المكرَّم، تفديه الأرواح، صلى الله عليه وسلم وعلى أبي بكر رفيقه في الغار، وعلى عمر فتاح الأمصار، وعلى عثمان شهيد الدار، وعلى عليّ الذي يفتك رُعبه قبل لبس السلاح، وعلى العباس عمه صنو أبيه أقرب من في نسبه يليه.

اعلموا ان الصوم من أشرف العبادات، وله فضيلة ينفرد بها عن جميع التعبُّدات، وهي إضافته إلى الله عز وجل بقوله عز وجل: «الصوم لي وأنا أجزي به».

(١) النور ٣٥.

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « كلُّ عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله، يقول الله عز وجل: إلا الصوم فإنه لي، وأنا أجزي به، يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخلاف فيه أطيّب عند الله من ريح المسك، الصوم جنة.

قال أحد: وحدثنا أحمد بن عبد الملك، عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ أنه قال: « إن للجنة باباً يقال له: الريان يقال يوم القيامة: أين الصائمون؟ هلموا إلى باب الريان، فإذا دخل آخرهم أغلق ذلك الباب. وفي لفظ: فلم يدخل منه أحدٌ غيرهم.

هذان الحديثان في الصحيحين.

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن رجاء بن حيوة، عن أبي أمامة قال: أنشأ رسول الله ﷺ غزواً فأتيته فقلت: يا رسول الله ادع لي بالشهادة. فقال: اللهم سلّمهم وغنّمهم. قال: فعزونا فسلمنا وغنمنا. قال: ثم أنشأ رسول الله ﷺ غزواً ثانياً فأتيته فقلت: يا رسول الله ادع لي بالشهادة. فقال: اللهم سلّمهم وغنّمهم. قال: فعزونا فسلمنا وغنمنا، ثم أنشأ رسول الله ﷺ غزواً ثالثاً، فقلت: يا رسول الله قد أتيتك مرتين أسألك أن تدعو الله لي بالشهادة فقلت: اللهم سلّمهم وغنّمهم، يا رسول الله فادع الله لي بالشهادة. فقال: اللهم سلّمهم وغنّمهم. قال: فعزونا، فسلمنا وغنمنا، ثم أتيت بعد ذلك فقلت: يا رسول الله مرني بعمل آخذه عنك ينفعني الله به. قال: « عليك بالصوم، لأنه لا مثل له ».

وكان أبو أمامة وامرأته وخادمه لا يلقون إلا صياماً، فإذا رأوا عندهم ناراً أو دخاناً بالنهار في منزلهم عرفوا أن قد اعتراهم ضيف. قال: ثم أتيت بعد ذلك فقلت: يا رسول الله إنك قد أمرتني بأمر، وأرجو أن يكون الله عز وجل قد نفعني به، فمرني بأمر آخر ينفعني الله به، قال: « اعلم أنك لا تسجد لله سجدة

إلا رفع الله لك بها درجة أو حط، أو قال وَحَطَّ - شك مَهْدِيّ - عنك بها خطيئة.

أخبرنا عبد الوهاب الخافظ بسنده عن أبي بُرْدَةَ، عن أبي موسى قال: خرجنا غازين في البحر، فبينما نحن والريحُ لنا طيبةً، والشراعُ لنا مرفوع، فسمعنا منادياً ينادي: يا أهل السفينة قِفُوا أخبركم حتى والى بين سبعة أصوات. قال أبو موسى: فقمتم على صدر السفينة فقلت: من أنت، ومن أين أنت؟ أو ما ترى ما نحن فيه، وهل نستطيع وقوفاً؟ فأجابني الصوت: ألا أخبركم بقضاءِ قضاءه الله عز وجل على نفسه؟ قال: قلت: بلى أخبرنا. قال: فإن الله سبحانه قضى على نفسه أنه من عطش نفسه لله في يوم حارّ كان حقاً على الله أن يُرويه يوم القيامة. قال: فكان أبو موسى يتوحّى ذلك اليوم الحار الشديد الحر الذي يكاد ينسلخ فيه الإنسان فيصومه!

واعلم ان للصوم آداباً منها: كَفَّ النظر واللسان عن الفضول، والإفطار على الحلال وتعجيله، وأن يفطر على تمر. قال وهب بن منبه: إذا صام الإنسان زاع بصره فإذا أفطر على حللوة عاد بصره.

ويقول إذا أفطر: اللهم لك صُمت، وعلى رزقك أفطرت، وعليك توكلت. ويستحب السحور وتأخيرَه.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا كان أحدكم يوماً صائماً، فلا يَجْهَل، ولا يَرُقُث، فإن امرؤ قاتله، أو شتمه فليقل: إني صائم».

وقد لا تَخْلُص النية، ولا يَحْصُل الأجر: أخبرنا أبو بكر بن عبد الباقي بسنده عن أبي سعيد المَقْبُرِي، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: رُبَّ صائمٍ حظه من صيامه الجوعُ والعطش، ورب قائمٍ حظه من قيامه السهر».

فأما ما يستحب صيامه، فقد كان جماعة من السلف يصومون المحرم.

وقد اخرج مسلم في أفراده من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ انه قال: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم».

وفي أفراده من حديث أبي قتادة عن النبي ﷺ أنه قال في صوم يوم عاشوراء: «يكفر السنة الماضية».

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: ما كان رسول الله ﷺ يصوم في شهر من السنة أكثر من صيامه من شعبان، كان يصومه كله.

وفي أفراده من حديث أبي أيوب، عن النبي ﷺ أنه قال: «من صام رمضان، ثم أتبعه ستاً من شوال، فذلك صيام الدهر».

وفي أفراده من حديث أبي قتادة أن النبي ﷺ قال: «من صام يوم عرفة إني أحتسب على الله ان يكفر السنة التي قبله، والسنة التي بعده».

وفي أفراده من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن أبواب الجنة تُفتح في يوم الإثنين والخميس».

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن أبي سعيد المقبري قال: حدثني أسامة بن زيد قال: قلت: يا رسول الله، إنك تصوم لا تكاد تُفطر، وتُفطر لا تكاد تصوم إلا يومين إن دخلاً في صيامك، وإلا صُمتها. قال: أي يومين؟ قلت: يوم، الإثنين والخميس. قال: ذاك يومان تُعرض فيها الأعمال على رب العالمين، فأحب أن يُعرض عملي وأنا صائم».

ويستحب صيام ثلاثة أيام من كل شهر. ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أوصاني خليلي ﷺ بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام».

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: إذا صمت من الشهر ثلاثة أيام، فصم ثالثَ عشر، ورابعَ عشر، وخامسَ عشر».

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

« أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: كَانَ يَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ » وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ يَغْتَنِمُونَ الْعَمْرَ، فَيَسْرُدُونَ الصَّوْمَ وَلَا يَفْطِرُونَ إِلَّا الْأَيَّامَ الْمُحَرَّمَاتِ. وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَسْرُدُ الصَّوْمَ، وَسَرَدَهُ أَبُو طَلْحَةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَأَبُو أَمَامَةَ. وَسَرَدَتْهُ عَائِشَةُ، وَعُرْوَةُ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ.

أَخْبَرَنَا الْمُحَمَّدَانُ: ابْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَابْنُ نَاصِرٍ قَالَا: أُنْبَأْنَا أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ خَيْرُونَ قَالَ: قَرِئَ عَلَيَّ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ شَاذَانَ: أَخْبَرَكُم أَبُو بَكْرٍ الْأَرْمَوِيُّ الْقَارِيءُ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ قَالَ: قَالَ نَافِعٌ: خَرَجْتُ مَعَ ابْنِ عُمَرَ فِي بَعْضِ نَوَاحِي الْمَدِينَةِ، وَمَعَهُ أَصْحَابٌ لَهُ، فَوَضَعُوا سَفْرَةَ لَهُمْ فَمَرَّ بِهِمْ رَاعٍ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ: هَلُمَّ يَا رَاعِي فَأَصِيبُ مِنْ هَذِهِ السَّفْرَةِ فَقَالَ: إِنِّي صَائِمٌ. فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ: فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ الشَّدِيدِ حَرِّهِ، وَأَنْتَ بَيْنَ هَذِهِ الشَّعَابِ فِي آثَارِ هَذِهِ الْغَنَمِ، وَبَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ تَرَعَى هَذِهِ الْغَنَمَ وَأَنْتَ صَائِمٌ؟ فَقَالَ الرَّاعِي: أَبَادِرُ أَيَّامِي الْخَالِيَةَ. فَعَجِبَ ابْنُ عُمَرَ وَقَالَ: هَلْ لَكَ أَنْ تَبِيعَنَا شَاةً مِنْ غَنَمِكَ نَجْتَزِرُهَا نُطْعِمَكَ مِنْ لَحْمِهَا مَا تُفْطِرُ عَلَيْهِ وَنُعْطِيكَ ثَمَنَهَا؟ قَالَ: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِي إِنَّهَا لِلْمَوْلَايِ. قَالَ: فَمَا عَسَيْتَ أَنْ يَقُولَ لَكَ مَوْلَاكَ إِنْ قُلْتَ: أَكَلَهَا الذُّئْبُ؟ فَمَضَى الرَّاعِي، وَهُوَ رَافِعٌ إصْبَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَهُوَ يَقُولُ: فَأَيْنَ اللَّهُ؟

قَالَ: فَلَمَّ يَزِلُّ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: قَالَ الرَّاعِي، فَأَيْنَ اللَّهُ! فَمَا عَدَا أَنْ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، فَبِعَثَ إِلَى سَيِّدِهِ فَاشْتَرَى مِنْهُ الرَّاعِي وَالْغَنَمَ فَأَعْتَقَ الرَّاعِي، وَوَهَبَ لَهُ الْغَنَمَ.

وَقَدْ كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَبْكِي عِنْدَ الْمَوْتِ فَقِيلَ: مَا يَبْكِيكَ! قَالَ: أَبْكِي عَلَى يَوْمٍ مَا صُمَّمْتَهُ وَوَلِيَلَةٍ مَا قُتِمْتُهَا!

فَاغْتَنِمُوا إِخْوَانِي زَمَنَكُمْ، وَبَادِرُوا بِالصَّحَّةِ سَقْمَكُمْ، وَاحْفَظُوا أَمَانَةَ التَّكْلِيفِ لِمَنْ أَمِنَكُمْ، وَكَأَنَّكُمْ بِالْحَمِيمِ، وَقَدْ دَفَنَكُمْ، وَبِالْعَمَلِ فِي الْقَبْرِ قَدْ ارْتَهَنَكُمْ.

الكلام على البسمة

ألم يأن تركي ما عليّ ولا ليَا وعزّمي على ما فيه إصلاحُ حالِيَا
 وقد نال مني الدهر وبيضَ مفرّقي بكرّ الليالي والليالي كما هيَا
 أصوتُ بالدينا وليست تجيبي أحاول أن أبقي وكيف بقائِيَا
 وما تَبْرُحُ الأيام تحذف مُدَّتِي بعد حساب لا كعدّ حسابِيَا
 أليس الليالي غاصباتي مُهَجَّتِي كما غصبتُ قبلي القرون الخواليَا
 وتُسكِنني لحداً لذي حُفْرة بها يطول إلى أخرى الليالي ثوآيَا
 فيا ليتني من بعد موتي ومبعثي أكون تراباً لا عليّ ولا ليَا

يا من ذنوبه كثيرة لا تُعدّ ووجه صحيفته بمخالفته قد اسودّ، كم ندعوك إلى
 الوصال وتأتبي إلا الصدّة، أما الموت قد سعى نحوك وجدّ، أما عزّم ان يُلْحَقك
 بالأب والجد. أما ترى مُعَمّاً أثربَ الثرى منه الخد، كم عاينت متجبّراً كفّ
 الموتُ كفّه الممتد، فاحذر ان يأتي على المعاصي، فإنه إذا أتى أبي الردّ، إلى كم
 ذا الصبّ والمراح، أبقى الشيبُ موضعاً للمزاح، لقد أغنى الصباحُ عن المصباح،
 وقام حربُ المنون من غير سلاح، اعوجّت القناةُ بلا قنأ ولا صِفَاح، فعاد ذو
 الشيبة بالضعف ثخين الجراح، ونطقت ألسنُ الفناء بالوعظ الصّراح، وأسفا
 صمّت المسامع والمواعظُ فصّاح، لقد صاح لسان التحذير، يا صاح يا صاح،
 وأتّى بالفهم لمخمور غير صاح، لقد أسكرك الهوى سكرأ شديداً لا يُزاح، وما
 تفيق حتى يقول الموت: لا برّاح.

ألا تُبصر الآجال كيف تخرّمت وكل امرئٍ للهلك والموتِ صائرُ
 وأنت بكأس القوم لا بد شاربُ فهل أنت فيما يصلح النفس ناظرُ

لقد وعظ الزمن بالآفات والمحن، ولقد حدّث بالطعن كل من قد ظعن،
 ولقد أنذر المطلق في أغراضه المرتهن، تالله لو صفت الفطن أبصرت ما بطن.

إخواني: أمر الموت قد علن، كم طحّطح الردى، وم طحن، يا بائعاً لليقين

مشترياً للظنن، يا مؤثراً للردائل في اختيار الفتن، إنَّ السُّرور والشُّرور في قرآن،
أنت في المعاصي مُطلق الرِّسن، وفي الطاعة كذبي وسن، يا رضيع الدنيا، وقد آن
فِطامه، يا طالب الهوى، وقد حان حِمَامه .

قال وهب بن منبه: إنَّ لله منادياً ينادي كل ليلة: أبناء الخمسين: هلموا
للحساب، أبناء الستين، ماذا قدَّمتم، وماذا أخَّرتم؟ يا أبناء السبعين عدُّوا أنفسكم
في الموتى:

كَبَّرْتَ وَقَارِبْتَ نِصْفَ الْمَائَةِ وَبَدَّلْتَ يَا شَيْخَ بِالتَّسْمِيَةِ
وَقَدْ نَشَرَ الشَّيْبُ فِي عَسْكَرِ الدِّ شَبَابٍ عَلَى رَأْسِكَ الْأَلْوِيَةِ
تَحَوَّلَ إِلَى تَوْبَةٍ لَا تَحُورُ عَسَاهَا تَكُونُ هِيَ الْمُنْجِيَةِ
وَلَا تُطْلِقُ اللَّحْظَ فِي رِيْبَةٍ وَلَا تَسْأَلُنْ فِتْنَةَ مَا هِيَ
وَهَلْ غَيْرَهَا قَدْ تَذَوَّقْتَهُ فَكَمْ تَعْتَدُ الْإِثْمَ وَالْمَعْصِيَةَ

إلى كم يا ذا المشيب، أما الأمر منك قريب، كم تعب في وعظك خطيب، كم
عالجك طبيب، إنه لمرض عجيب، إنه لداء غريب عَظْمٌ واهن، وقلْبٌ صليب،
يا هذا لا شيء أقل من الدنيا، ولا أعزَّ من نفسك، وها أنت تُنْفِقُ أَنْفَاسَ
النفس النفيسة على تحصيل الدنيا الخسيسة، متى يقنعك الكفَّاف، متى يردك
العفَّاف متى يقوِّمك الثَّقَّاف، إنك لتأبى إلا الخلاف، مقاليدك تُقال، وركعاتك
خِفاف، يا قبيح الخصال يا سئء الأوصاف، يا مُشْتَرِيًّا بِسِنِّي الخِصْبِ السنين
العجاف، قف متدبراً لحالك، فالمؤمن وقَّاف، وتذكَّرْ وعيد العصاة، ويحك أما
تخاف:

مَا مِنْ الْخِزْمِ أَنْ تَقَارِبَ أَمْرًا تَطْلُبُ الْبُعْدَ عَنْهُ بَعْدَ قَلِيلٍ
وَإِذَا مَا هَمَّتْ بِالشَّيْءِ فَانظُرْ كَيْفَ مِنْهُ الْخُرُوجُ قَبْلَ الدَّخُولِ
لَا مَقْرَأًا مِنَ الْمَقَادِيرِ لَكِنْ لِلْمَعَاذِيرِ عِنْدَ أَهْلِ الْعُقُولِ

ويحك إن الدنيا فتنة، وكم فيها من محنة، غير أنها لا تحفَى على أهل الفطنة،
لا يَعْزِ ذَلِيلُهَا، ولا يُودى قَتِيلُهَا، من سكنها خرج، وساكنها منزوع:

إنما الدنيا بلاءٌ ليس في الدنيا ثبوتٌ
 إنما الدنيا كيبستِ نسجتْهُ العنكبوتُ
 كلُّ من فيها لعمري عن قريب سيموتُ
 إنما يكفيك منها أيها الراغبُ قوتُ

يا هذا انتقم من حرصك بالقناعة، فمن مات حرصه، عاشت مروءته. خلَّ
 فضول الدنيا وقد سلمت، إن لم تقبل نصحي ندمت، البلغة منها ما يقوت،
 والزاهد فيها ما يموت، فأعرض عنها جانباً، وكن لأهلها مُجانِباً، وإذا أقلقك
 هَجِير المجاعة فلذَّ بالصبر في ظل القناعة.

الكلام على قوله تعالى

(١) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَّمْ مَا تَوْسَّوسُ بِهِ نَفْسَهُ﴾

الإنسان: ابنُ آدم، وما تَوْسَّوسُ به نفسه: ما تحدّثه به، ويُكنّهُ في قلبه. وهذا
 يبحث على تطهير القلب من مُسَاكِنَةِ الوساوس الرديئة تعظيماً لمن يعلم.

قال بعض السلف: إذا نطقتَ فاذكر من يَسْمَعُ، وإذا نظرتَ فاذكر من
 يَرَى، وإذا عزمتَ فاذكر من يعلم.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ الوريد: عِرْقٌ في باطنِ
 العنق، وهما وريدان بين الحلقوم والعلياوين، والعلياوان: القصبستان الصفراوان في
 متن العنق، وحبل الوريد هو الوريد، فأضيف إلى نفسه لاختلاف لفظي اسمه.

سجع على قوله تعالى:

(٢) ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾

يا مُطْلِقاً نَفْسَهُ فيما يشتهي ويريد، اذكر عند خطواتك المبدئ المعيد، وخَفُّ
 قُبْحِ ما جرى، فالملك يرى، والملك شهيد ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ
 الْوَرِيدِ﴾.

هَلَّا اسْتَحَيْتَ مَنْ يِرَاكُ إِذْ رَكِبْتَ مِنْ هَوَاكَ مَا نَهَاكَ ، سَتَبْكِي وَاللَّهِ عَيْنَاكَ
مِمَّا جَنَّتْ يَدَاكَ ، أَمَا تَعْلَمُ أَنَّهُ بِالْمُرْصَادِ فَقُلْ لِي أَيْنَ تَحْمِيدُ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ
حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ .

لَوْ صَدَقَ عِلْمُكَ بِهِ لِرَاقِبَتِهِ ، وَلَوْ خِفْتُ وَعِيدَهُ فِي الْحَرَامِ مَا قَارَبْتَهُ ، وَلَوْ
عَلِمْتَ سُمُومَ الْجَزَاءِ فِي كَأْسِ الْهَوَى مَا شَرِبْتَهُ ، لَقَدْ أَضَعْنَا الْحَدِيثَ عِنْدَ سَكْرَانٍ
يَمِيدُ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ .

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : مَرَرْتُ بِرَجُلٍ مَنفَرْدٍ فَقُلْتُ لَهُ : أَنْتَ وَحَدُوكَ ؟ فَقَالَ : مَعِيَ
رَبِّي وَمَلَكَايَايَ . فَقُلْتُ : أَيْنَ الطَّرِيقُ ؟ فَأَشَارَ نَحْوَ السَّمَاءِ ثُمَّ مَضَى وَهُوَ يَقُولُ : أَكْثَرُ
خَلْقِكَ شَاغِلٌ عَنْكَ .

رَاوَدَ رَجُلٌ امْرَأَةً فَقَالَتْ : أَلَا تَسْتَحْيِي ؟ فَقَالَ : مَا يَرَانَا إِلَّا الْكَوَاكِبُ .
فَقَالَتْ : وَأَيْنَ مَكُونِكُهَا ؟

كَأَنَّ رَقِيبًا مِنْكَ يَرَعَى خَوَاطِرِي وَآخِرَ يَرَعَى نَاطِرِي وَلِسَانِي
فَمَا نَظَرْتُ عَيْنَايَ بَعْدَكَ نَظْرَةً لَغَيْرِكَ إِلَّا قَلْتُ قَدْ رَمَقَانِي
وَلَا بَدَرْتُ مِنْ فِي بَعْدِكَ لَفْظَةً لَغَيْرِكَ إِلَّا قَلْتُ قَدْ سَمِعَانِي
وَلَا خَطَرْتُ فِي غَيْرِ ذِكْرِكَ خَطْرَةً عَلَى الْقَلْبِ إِلَّا عَرَجَّتْ بَعِينَانِي

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ وَهُمَا الْمَلَكَانِ يَتَلَقِيَانِ الْقَوْلَ وَيَكْتَبَانِهِ ، عَنْ
الْيَمِينِ كَاتِبِ الْحَسَنَاتِ ، وَعَنِ الشَّمَالِ كَاتِبِ السَّيِّئَاتِ ﴿ قَعِيدٌ ﴾ أَيُّ قَاعِدٍ .
وَالْمَعْنَى : عَنْ الْيَمِينِ قَعِيدٌ ، وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ .

وَرَوَى أَبُو أَمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « كَاتِبُ الْحَسَنَاتِ عَلَى يَمِينِ الرَّجُلِ ،
وَكَاتِبُ السَّيِّئَاتِ عَلَى شِمَالِهِ ، وَكَاتِبُ الْحَسَنَاتِ أَمِينٌ عَلَى كَاتِبِ السَّيِّئَاتِ ، فَإِذَا
عَمِلَ حَسَنَةً كَتَبَهَا لَهُ صَاحِبُ الْيَمِينِ عَشْرًا ، وَإِذَا عَمِلَ سَيِّئَةً قَالَ لِمُصَاحِبِ الشَّمَالِ :
أَمْسِكْ . فَيَمْسِكُ عَنْهُ سَبْعَ سَاعَاتٍ ، فَإِنْ اسْتَغْفَرَ مِنْهَا لَمْ يَكْتُبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، وَإِنْ لَمْ
يَسْتَغْفِرْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ . »

وفي حديث علي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَقْعَدُ مَلِيكَكَ عَلَى تَنِيَّتِكَ، فَلَسانِكَ قَلَمُها وَرِيقُكَ مِدَادُها» .

سجع على قوله تعالى:

﴿عَنْ اليمين وعن الشمال قعيد﴾ (١)

ما ظنك بمن يحصي جميع كلماتك، ويضبط كلَّ حركاتك، ويشهد عليك بحسناتك تُرْفَعُ الصَّحائفُ، وهي سُودٌ، وعمل المنافق مَرْدُودٌ، يحضره الملكان لدى المعبود، يا شرَّ العبيد ﴿عَنْ اليمين وعن الشمال قعيد﴾ .

يضبطان على العبد ما يجري من حركاته، وما يكون من نظراته وكلماته، واختلاف أموره وحالاته، لا ينقص ولا يزيد ﴿عَنْ اليمين وعن الشمال قعيد﴾ .

قال سفيان الثوري يوماً لأصحابه: أخبروني لو كان معكم من يرفع الحديث إلى السلطان، أكنتم تتكلمون بشيء؟ قالوا: لا . قال: فإن معكم من يرفع الحديث إلى الله عز وجل .

قوله تعالى: ﴿ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد﴾ (٢) أي: ما يتكلم من كلام فيلفظه، أي يرميه من فيه إلا لديه رقيب عتيد، أي حافظ، وهو الملك الموكل به، والعتيد الحاضر معه أينما كان .

السجع على قوله تعالى:

﴿ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد﴾

يا كثير الكلام حسابك شديد، يا عظيم الإجمام عذابك جديد، يا مؤثراً ما يضره ما رأيك شديد، يا ناطقاً بما لا يُجدي، ولا يُفيد ﴿ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد﴾ .

(٢) ق ١٨ .

(١) ق ١٧ .

كلامك مكتوب وقولك محسوب، وأنت يا هذا مطلوب، ولك ذنوب وما تتوب، وشمسُ الحياة قد أخذت في الغروب، فما أقسى قلبك من بين القلوب، وقد أتاه ما يصدع الحديد ﴿ ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد ﴾ .

أتظن أنك متروك مهمل، أم تحسب أنه ينسى ما تعمل، أو تعتقد أن الكاتب يغفل، هذا صائح النصائح من أقبل، يا قاتلاً نفسه بكفّه لا تفعل، يا من أجله ينقص وأمله يزيد، ﴿ ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد ﴾ .

أنا من خَوْفِ الوعيدِ	في قيامٍ وقعودِ
كيف لا أزداد خَوْفاً	وعلى النمار ورودي
كيف جَحْدِي ما تجرّمـ	ت وأعضائي شهودي
كيف إنكاري ذنوبي	أم تُرى كيف جُحودي
وعليّ القولُ يُحصّـي	برقيبٍ وعتيدِ

قوله تعالى: ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ﴾ وهي غمّته وشدته التي تَغشى الإنسان، وتغلب على عقله. وفي قوله: ﴿ بالحق ﴾. قولان ذكرهما الفراء: أحدهما: بحقيقة الموت. والثاني: بالحق من أمر الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ ذلك ﴾ أي ذلك الموت. ﴿ ما كنت منه تجيد ﴾. أي تهرب وتفتر.

قوله تعالى: ﴿ ونفخ في الصور ﴾. وهي نفخة البعث ﴿ ذلك يومُ الوعيد ﴾ أي يوم وقوع الوعيد.

قوله تعالى: ﴿ وجاءت كُلُّ نفسٍ معها سائقٌ وشهيد ﴾. وفيه قولان: أحدهما: أنه ملك يسوقها إلى محشرها. قاله أبو هريرة. والثاني: أنه قرينها من الشياطين سمي سائقاً، لأنه يتبعها، وإن لم يحثها.

وفي الشهيد ثلاث أقوال: أحدها: أنه ملك يشهد عليها بعملها. قاله عثمان بن عفان والحسن. وقال مجاهد: الملكان سائق وشهيد. وقال ابن السائب السائق:

الذي يكتب عليه السيئات . والشهيد : هو الذي كان يكتب له الحسنات .

والثاني : أنه العمل يشهد على الإنسان . قاله أبو هريرة .

والثالث : الأيدي والأرجل تشهد عليه بعمله . قاله الضحّاك .

إخواني احذروا من العَرَضِ على مَأْلك الطُّول والعَرَضِ ، وأعدُّوا الجواب إذا سئِلتم عن الفَرَضِ ، أين الحياء من قُبْح المضمّرات ، أين البكاء على سالف الخطّرات ، أين الخوف من الجواء على خُطوات الخطيئات .

كتب يوسف بن أسباط إلى حذيفة المرعشيّ : أما بعد : فإنني أوصيك بتقوى الله سبحانه ، والعمل بما علّمك الله تعالى ، والمراقبة حيث لا يراك إلا الله عز وجل ، والاستعداد لما ليس لأحدٍ فيه حيلة ، ولا يُنتفع بالندم عند نزوله ، فاحسِرْ عن رأسك قِناعَ الغافلين ، وانتبه من رَقدة الموتى ، وشمرْ للسباق غداً ، فإن الدنيا ميدان المسابِقين ، ولا تغترّ بمن أظهر النُّسك ، وتشاغل بالوصف ، وترك العمل بالموصوف ، واعلم يا أخي أنه لا بُدَّ لي ولك من المقام بين يدي الله تعالى ، يسألنا عن الدقيق الخفيّ ، وعن الجليل الخافي ، ولست آمنُ أن يسألني ، وإياك عن وسواس الصدور ولحظات العيون ، والإصغاء للاستماع ، واعلم أنه لا يُجزِي من العمل القول ، ولا من البذل العِدّة ولا من التوقّي التّلاوم .

يا من معاصيه كثيرة مشهورة ، يا من نفسه بمن يجني عليها مسرورة ، أفي العين كمه أم عشيّ ، أم الأمر إليك يجري كما تشأ ، أعلّى القلب حجاب أم غشا ، أيا من إذا قعد عصي ، وكذا إذا مشى ، كلُّ فعلك غلط ، كل عملك سَقَط ، أترى هذا العقل اختلط ، أما قومٌ بهذا الشَّمَط ، أما علّم الشَّيبُ على حُرُوف الموت ونقَط ، لقد عزم الأجل على النهوض ، وطال ما أقام والدنيا قروض ، قَصْرُ يَبْنَى وجسْمٌ منقوض ، شَيْبٌ وعيبٌ يزحلق الفروض :

إلى متى أنت في ذنوبٍ قلبك من أجلها مريضُ
أقرضتَ عمراً فمرّاً خلّسا وأن أن تطلّب القروض
فاحذر مجيء الحِمَامِ بَعْتَا وأنت في باطلٍ تخوضُ

سجع على قوله تعالى :

﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ (١)

كأنك بالعمر قد انقضى، وهجم عليك المرض، وفات كلُّ مراد وغرض،
وإذا بالتلف قد عَرَضَ أَخْذَا ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ .
شَخَّصَ البَصْرُ، وسكن الصَوْتُ، ولم يمكن التداركُ للَفَوْتُ، ونزل بك ملك
الموت، فسامت الرُّوحَ وحازَى ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ .
عالجت أشدَّ الشدائد، فيا عجباً مما تُكابِد، كأنك قد سَقِيت سَمَّ الأَسَاوِدِ،
فقطَّعَ أَفْلاذًا ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ .
ثم درجوك في الكفن، وحلوك إلى بيت العفن، على العيب القبيح والأفن،
وإذا الحبيب من التراب قد حَفَنَ، وصرت في القبر جُدَاذًا ﴿ لقد كنت في غفلة
من هذا ﴾ .

وتسرَّبت عنك الأقارب تسري، تقدُّ في مالك وتَفْرِي، وغاية أمرهم أن
تجري دموعهم رِذَاذًا ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ .

بلغت الروحُ إلى التراقي، ولم تعرف الراقِي من الساقِي، ولم تدرِ عن الرِّحِيلِ
ما تلاقِي، عِيَاذًا بالله عِيَاذًا ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ .
قفلوا الأقفال وبضعوا البضاعة، ونسوا ذِكْرَكَ يا حبيهم بعد ساعة، وبقيت
هناك إلى أن تقوم الساعة، لا تجد وَزْرًا ولا معَاذًا ﴿ لقد كنت في غفلة من
هذا ﴾ .

ثم قمت من قبرك فقيرا، لا تملك من المال نَقِيرًا، وأصبحت بالذنوب
عَقِيرًا، فلو قدَّمت من الخير حقيرًا صار ملجأً وملاذًا، ﴿ لقد كنت في غفلة من
هذا ﴾ .

ونُصِبَ الصراط والميزان، وتغيَّرت الوجوه والألوان، ونودي: شَقِي فلان
بن فلان، وما ترى للعُدْر نفاذا ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ .
كم بالغ عدولك في الملام، وكم قعد في زَجْرِكَ وقام، فإذا قلبك ما استقام،
قطع الكلام على ذا ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ .

وصلى الله على محمد وآله وصحبه .

(١) ق ٢٠ .

المجلس السادس في ذكر الحج

الحمد لله الملك القديم، الواحد العزيز العظيم، الشاهد سامع ذكّر الذاكِر، وحمّد الحامد، وعالم ضمير المرید ونية القاصد، لعظمتِه خضع الراكع، وذلّ الساجد، وبهده اهتدى الطالب وأدرك الواجد، رفع السماء فعلاًها، ولم يحتج إلى مساعد، وألقى في الأرض رواسي راسخات القواعد، تنزه عن شريك مُشاقق، أو نِدّ معانِد، وعزّ عن ولد وجلّ عن والد، وأحاط علماً بالأسرار والعقائد، وأبصر حتى ديبب النمل في الجلامد، وسطاً فسالت هيبته صِعاب الجوامد، ويقول في الليل: «هل من سائل»؟ فانتبه يا راقِد. بني بيتاً أمر بقصده، وتلقّى الوافِد، وأقسم على وُحْدانيته وما ينكر إلا معانِد ﴿والصفات صفّاً فالزاجرات زَجراً فالتاليات ذِكراً إن إلهكم لوَاحِد﴾.

أحمده على الرخاء والشدائد، وأقرّ بتوحيده إقرار عابد، وأصلي على رسوله الذي كان لا يخيب السائل القاصد، وعلى صاحبه أبي بكر التقي النقي الزاهد، وعلى عمر العادل، فلا يراقب الولد ولا الوالد، وعلى عثمان المقتول ظلماً بكف الحاسد، وعلى عليّ البحر الخضمّ، والبطل المجاهد، وعلى عمه العباس أقرب الأقارب والأبعد.

قال الله تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت﴾ (١) فرض الله عز وجل حج البيت بهذه الآية.

وقوله: ﴿من استطاع إليه سبيلاً﴾. قال النحويون: ﴿من﴾ بدل من الناس،

(١) آل عمران ٩٧.

وهذا بدل البعض كما تقول: ضربتُ زيداً رأسه.

أخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد الله النسفي بسنده عن محمد بن عبّاد بن جعفر، عن عبد الله بن عمر قال: قيل: يا رسول الله ما الاستطاعة إلى الحج؟ قال: «الزاد والراحلة».

واعلم أن المجيب قد يجيب عن المشكّل، ويترك الظاهر ثقةً بعلم السامع، وإلا فقد يكون له زاد وراحلة، فإذا أخرج إلى الحج لم يكن له ما يترك لعياله، أو لم يكن له ما يدبّره في معاشه.

واعلم أن وجوب الحج موقوف على وجود البلوغ، والعقل، والحرية، والإسلام، والزاد والراحلة. ويشترط في وجود الراحلة أن تكون صالحة لمثلها ورحلها وآلتها، لأنه قد يكون كبير السنّ، فلا يمكنه الركوب على القتب، وأن يكون وجود الزاد والراحلة فاضلاً عما يحتاج إليه من مسكن وخادم إن احتاج إليه، ونفقة لعياله إلى أن يعود وقضاء دين إن كان عليه، وأن يكون له إذا رجع ما يقوم بكفايته من عقار، أو بضاعة، أو صناعة، ثم ينبغي أن ينظر في أمن الطريق وسعة الوقت. إلى غير ذلك.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من قدر على الحج، ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً، وإن شاء نصرانياً».

وقال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١) قال: طريق مكة يمنعهم من الحج.

وقد ذكرنا في أول هذا الكتاب بناء البيت وفوائده، وفضل الحجّ الأسود.

وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال في الركن اليماني: «وكَلَّ اللهُ عز وجل به سبعين ألف ملك، فمن قال: أسألك العفو والعافية، ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار قالوا: آمين».

(١) الأعراف ١٦٠.

وعن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: « من طاف بالبيت سبعاً وصلى خلف المقام ركعتين، فهو عدلٌ مُحَرَّرٌ ».

أخبرنا يحيى بن علي بسنده عن الأوزاعي، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « إن لله عز وجل في كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة تنزل على هذا البيت: ستون للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين ».

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: « من طاف بالبيت لم يرفع قدماً ولم يضع أخرى إلا كتب الله عز وجل لها بها حسنة، وخطأ عنه بها خطيئة، ورفع له بها درجة ».

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: « من طاف بالبيت خمسين مرة خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ».

وفي حديث بُرَيْدَةَ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: « النفقة في الحج تُصَاعَفُ، كالنفقة في سبيل الله تعالى: الدرهم بسبعائة درهم ».

فأما حج الماشي: فأخبرنا أبو منصور، وعبد الرحمن بن محمد، بسندهما عن إسماعيل بن أبي خالد، عن زاذان قال: مرض ابن عباس مرضاً شديداً، فدعا ولده فجمعهم فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من حجَّ من مكة ماشياً حتى يرجع إلى مكة كتب الله له بكل خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحرم. فقيل له: وما حسنات الحرم؟ قال: بكل حسنة مائة ألف حسنة ».

وروت عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الملائكة لتصافح رُكبان الحج، وتعتنق المشاة ».

وأما فضيلة الحج: فأخبرنا هبة الله بن محمد بسنده، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، والعمرتان - أو العُمرَة - إلى العمرة تكفّر ما بينهما ».

أخبرنا محمد بن محمد الوراق بسنده عن أبي حازم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حجَّ هذا البيت، فلم يرفث، ولم يفسق رجع كما ولدته أمه».

الحديثان في الصحيحين.

وروي عن عليّ كرم الله وجهه، عن النبي ﷺ أنه قال: «من أراد دنيا وآخرة، فليؤمَّ هذا البيت، ما أتاه عبدٌ يسأل الله تعالى دنيا إلا أعطاه منها ولا آخرة إلا ادخر له منها».

وينبغي لمن أراد الحج أن يفهم معنى الحج، فإنه يشار به إلى التجرد لله عز وجل ومفارقة المحبوبات.

وليتذكر بأهوال الطريق الأهوال بعد الموت وفي القيامة، وبالإحرام الكفن، وبالتلبية إجابة الداعي، وليحضّر قلبه لتعظيم البيت، وليتذكر بالالتجاء إليه التجاء المذنب، وبالطواف، الطواف حول دار السيد ليرضي، وبالسعي بين الصفا والمروة التردد إلى فناء الدار، وبرمي الجمار رمي العدو.

وكما أن للأبدان حجًا، فللقلوب حج؛ فإنها تنهض بأقدام العزائم، وتمتطي غوارب الشوق، وتفارق كلَّ محبوب للنفس، وتصابر في الطريق شدة الجهد، وترد مناهل الوفاء لا غدُران الغدر، فإذا وصلت إلى ميقات الوصل، نزعت مخطط الآمال الدنيوية، واغتسلت من عين العين، ونزلت بعرفات العرفان، ولبت من لباب اللب، ثم طافت حول الإجلال، وسعت بين صفا الصفا، ومرورة المروءة، فرمت جمار الهوى بأحجار، فوصلت إلى قُرب الحبيب، فلو ترنّمت بشرح حالها لقال: :

لا والذي قصد الحجيح لبيته
والحجر والحجر المقبل تلتقي
لا كان موضعك الذي ملكته
لي أنة الشاكي إذا بعد المدى
من بين ناء طارق وقريب
فيه الشفاه وركنه المحجوب
من قلب عبدك بعد ذا لحبيب
ما بيننا وتنفس المكروب

ولما عبر الخليل هذه الحالة قيل له: قد بقي عليك ذبّح يجانس هذا الحج، ليس له إلا الولد، وما المراد إراقة دمه، بل فراغ قلبك عنه، يا خليلي من المسنون استسنان الإبل، وألاً يكون في المذبوح عيب، فاختر ذبّحك هل فيه عيب، أو هو سليم مُسَلَّم؟ فقال له: ﴿إني أرى في المنام أني أذبحك﴾ فأجابه: ﴿افعل ما تؤمر﴾. فعلم حصول الكمال وعدم العيوب، ثم قال له: استخذد مدّيتك، وأسرع مرّ السكين على حلقني وإذا عدت إلى أمي، فسلم عليها عني. هذا قول من لم يلمّ بقلبه خوف ألم!

مِخْنَتِي فِيكَ أَنْي لَا أَبَالِي بِمِخْنَتِي
يَا شَفَائِي مِنَ السَّقَا م وَإِنْ كُنْتَ عَلَيَّ

وإذا وصل الحاج إلى المدينة المشرفة، فيجعل على فكره تعظيم من يقصده، وليتخايل في مساجدها وطرقاتها نقل أقدام المصطفى هناك وأصحابه، وليتأدب في الوقوف، وليستشفع بالحبيب، وليأسف إذ لم يحظ برؤيته، ولم يكن في صحابته.

وما رُمْتُ من بعد الأحيّة سلوةً ولكنني للنائبات حمولُ
وما شرقي بالماء إلا تذكُّراً لماء به أهل الحبيب نزولُ
وينبغي لمن عاد من الحج أن يتقوى رجاءه للقبول، ومحو ما سلف، وليحذر من تجديد زلّل.

وقد سئل الحسن البصري: ما الحج المبرور؟ فقال: أن تعود زاهداً في الدنيا راجباً في الآخرة.

أخبرنا أبو منصور القرّاز بسنده عن عبد الرحمن بن عبد الباقي قال: سمعت بعض مشايخنا يقول: قال علي بن الموقّ: لما تمّ لي ستون حجّة خرجت من الطواف وجلست بجذاء الميزاب، وجعلت أفكر لا أدري أيّ شيء حالي عند الله عز وجل، وقد كثر تودّدي إلى هذا المكان؟ فغلبتني عيني، فكأن قائلاً يقول لي: يا عليّ أتدعو إلى بيتك إلا من تحبه؟ قال: فانتبهت، وقد سرّى عني ما

(الكلام على البسمة)

غفلتُ وليس الموتُ في غفلةٍ عني
أشيّد بُنياني وأعلم أنني
كفانيَ بالموت المنعص واعظاً
وكم للمنايا من فنون كثيرة
ولو طرقتُ ما استأذنتُ من يجني
وقد كنت أفدي ناظريه من القدي
ستسجنني يارب في القبر برهة
ولي عند ربي سيئات كثيرة

وما أحدٌ يجني عليّ كما أجني
أزولُ، لمن شيدته ولن أني
بما أبصرت عيني وما سمعت أذني
تميتُ وقد وطنتُ نفسي على فن
كما أفقدتني من أحبُّ بلا إذن
فغطيت ما قد كنت أفديه بالعين
فلا تجعل النيران من بعده سجنني
ولكنني عبدٌ به حسن الظن

من للعاصي إذا دُعي فحضر، ونشر كتابه ونظر، لم يُسمع عذره وقد
اعتذر، وناقشه المولى فما غفر، آه لراحلٍ لم يتزود للسفر، ولخاسر إذا ربح
المتقون افتقر، ولمحروم جنة الفردوس حلّ في سقر، ولفاجر فضحه فجوره
فاشتهر، وملتكبر بالذل بين الكل قد ظهر، وإلى محمول إلى جهنم، فلا ملجأ له
ولا وزر، آه يوم تكور فيه الشمس والقمر، يا كثير الرياء قل إلى متى تُخلص،
يا ناسي الأتكال إن كالأمتلصص، ما يتخلص من معامل، ولا هو عند الله
مخلص، الدهر حريص على قتلك يا من يحرص، تفكر فيمن أصبح مسروراً
فأمسى وهو متنعص، ومتى أردت لذة فاذا ذكر قبلها المنعص، وتعلم أن الهوى
ظلّ والظل متخلص، وخذ على نفسك لا تسامحها ولا ترخص، حائط الباطل
خراب، فإلى كم تجصص، أين الهم المجتمع تفرق فما ينتفع، يدعوك الهوى
فتتبع، وتحدثك المنى فتستمع، كم زجرك ناصح فلم تطع، سار الصالحون يا
منقطع، مالذي عاقك لهو مُختدع، شرواً ما يبقى بما يفنى، وأنت لم تشر ولم
تبع، أين تعبههم؟ نسخ بالروح ولم يضع، تلمح العواقب، فلتلمحها العقل
وضيع، كأنه ما جاع قط من شع.

جُزَّ على الشونيزية أو على قبر أحمد، وميَّز من أطاع ممن أضاع فمن أحمَد؟
قبور الصالحين تؤنس الزائر، وقبور الظلِّمة عليها ظلام متوافر، جُدُّ على قبور
العَبَاد ونادٍ في ذلك النادِ: أيتها الأودية والوهاد، ما فعلت تلك الأوراد:

تعاهدتك العهاد يا طَلَلُ	خَبَّر عن الظاعنين ما فعلُوا
فقال لم أدر غير أنهم	صاح غرابُ البين فاحتملُوا
لا طابَ ليلي ولا النهار لمن	يَسْكُنني أو يردُّهم قَقَلُ
ولا تحليت بالرياض وبالنَوُ	ر ومغنايَ منهم عَطِلُ
خلَّ هذا فما عليك لهم	قلت أنينٌ وأذمع هُطَلُ
وأني مُقَفَّل الضائر عن	حُبِّ سِواهم ما حَتَّ الإبلُ
فقال هلا اتبعتهم أبداً	إن نزلوا منزلاً، وإن رحلُوا

سبحان من قسَم الأقسام، فلقومٍ يقظةٌ ولقومٍ منام.

قال وهب بن منبه: كان في بني إسرائيل رجلان بلغت بهما عبادتهما أن مشياً
على الماء، فبينما هما يمشيان في البحر إذا هما برجل يمشي في الهواء فقالا له: يا عبد
الله بأي شيء أدركت هذه المنزلة؟ فقال: بيسير من الدنيا: فطمتُ نفسي عن
الشهوات وكففتُ لساني عما لا يعنيني، ورغبت فيما دعاني، ولزمت الصمت.
فإن أقسمت على الله أبرَّ قسَمي، وإن سألته أعطاني.

يا بعيداً عن الصالحين، يا مطروداً عن المفلحين، لقد نصَّب الشيطانُ
الأشراك وجعل حَبَّ الفخِّ هواك، وم رأيت مأسوراً وسط ذاك، وليس المراد
الآن إلآك، احذر فحَّه فهو بعيد الفكاك، كم يومٍ غابت شمسُه وقلبك غائب،
وكم ظلام أسبل ستره وأنت في عجائب، كم ليلةٍ بالخطايا قطعَتها، وم من
أعمال قبيحة رفعتها، وم من ذنوب جمعتها والصحف أودعتها، كم نظرة ما تحلُّ
ما خِفْتُ ولا منعَتها، كم من موعظة تَعِيها وكأنك ما سمعتها، وم من ذنوب
تعيب غيرك بها أنت صنعتها، وم أمرتكَ النفس بما يؤذي فأطعتها، يا موافقاً
لنفسه آذيتها، خالفها وقد نفعَتها:

طوى نفسه عنك الشبابُ المزايلُ
 نسير إلى الآجال في كل ساعةٍ
 ولم أرَ مثلَ الموتِ حقاً كأنه
 وما أقبحَ التفريطَ في زمنِ الصِّبَا
 ترحلَّ عن الدنيا بزادٍ من التَّقَى
 وأسلمتَ للشَّيبِ الذي لا يزائلُ
 وأيامنا تُطوى وهنَّ مراحِلُ
 إذا ما تخطَّته الأمانِيُّ باطلُ
 فكيف به والشَّيبُ في الرأسِ شاملُ
 فعُمرك أيامٌ وهنَّ قلائِلُ

الكلام على قوله تعالى

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ (١)

كان مُطَرِّف بن عبد الله يقول: هذه آية القراء .

ومعنى يتلون يقرءون .

وفي أفراد البخاري من حديث عثمان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال:
 «خيركم من تعلَّم القرآن وعلمه» .

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده، عن عبد الرحمن بن زيد العقبلي، عن أبيه عن
 أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله عز وجل أهلين من الناس . فقيل: مَنْ
 أهلُ الله منهم؟ قال: أهلُ القرآن هم أهلُ الله وخاصته» .

أخبرنا علي بن عبيد الله، وأحمد بن الحسن، وعبد الرحمن بن محمد بإسنادهم،
 وعن عتبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يعذب الله قلباً وعى
 القرآن» .

أخبرنا الكروخي بسنده عن محمد بن كعب القرشي قال: سمعت عبد الله بن
 مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى
 فله به حسنةٌ، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول آلم حرف، ولكن الألف حرف،

(١) فاطر ٢٩ .

واللام حرف، والميم حرف.»

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال: «يقال لصاحب القرآن يوم القيامة: اقرأ وارْقَ وارْتَل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها.»

واعلم أن لتلاوة القرآن آداباً: منها: أن يقرأ وهو على وضوء متأدباً مُطَرَقاً مرتلاً بتحزين وبكاء، مُسِرّاً معظماً للكلام والمتكلم به، مُحَضِراً لقلبه، متدبراً لما يتلوه.

وقد كان في السلف من يَخْتَم في كل يوم وليلة. وقد كان عثمان رضي الله عنه يَخْتَم في الوتر. ومنهم من كان يَخْتَم خَمْتين.

وقد كان الشافعي رضي الله عنه يَخْتَم في رمضان ستين ختمة، ومنهم من يَخْتَم ثلاث ختمات، وهؤلاء الذين غلب عليهم انتهاب العمر، ومنهم من كان يَخْتَم في كل أسبوع اشتغالاً بنشر العلم، ومنهم من كان يَخْتَم كل شهر إقبالاً على التدبر.

وقد روى أبو ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قام ليلة بآية يرددها: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنْهُمْ عِبَادُكُمْ﴾^(١).

وقام تميم الداري بآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾^(٢). وكذلك قام بها الربيع بن خثيم.

وقال أبو سليمان الداراني: إني لأقيم في الآية أربع ليال، أو خمس ليال.

وقد بقي بعض السلف سنتين في ختمة.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: من ختم القرآن فله دعوة مستجابة.

وقال عبد الرحمن بن الأسود: من ختم القرآن نهراً غُفِر له ذلك اليوم، ومن ختمه ليلاً غُفِر له تلك الليلة.

(٢) سورة الجاثية ٢١.

(١) سورة المائدة ١١٨.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أنبأنا ابن النُّقُور، أنبأنا ابن حبابة، حدثنا البغوي حدثنا هُدْبَةَ، حدثنا حماد بن مسلمة، عن أبي مسكين، عن طلحة بن مصرف قال: من ختم القرآن في أي ساعة من النهار كانت صلَّت عليه الملائكةُ حتى يُمسي، أو أي ساعة من الليل كانت، صلَّت عليه الملائكةُ حتى يُصبح.

وقد روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الرجل الذي ليس في جوفه من القرآن شيء كالبيت الحَرَبِ».

وروى سعد بن عبادة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من امرئ يقرأ القرآن، ثم ينساه إلا لقي الله عز وجل يوم القيامة، وهو أجذَم».

وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «اقرأوا القرآن، وابتغوا به الله عز وجل من قَبْل أن يأتي قومٌ يقيمونه مقامَ القِدْح يتعجلونه ولا يتأجلونه».

قال ابن مسعود: ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليته إذ الناس نائمون، وبنهاره إذ الناس مفرطون، وبجُزئه إذ الناس يفرحون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبصمته إذ الناس يخوضون.

أخبرنا ابن ناصر قال: حدثنا عبد القادر، أنبأنا يوسف، أنبأنا الحسن بن علي التميمي، حدثنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا علي بن مسلم، حدثنا سيَّار، حدثنا جعفر قال: سمعت مالك بن دينار يقول: يا حَمَلَةَ القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيعُ المؤمنين، كما أن الغيث ربيع الأرض، وقد ينزل الغيثُ من السماء إلى الأرض فيصيب الحُشَّ فتكون فيه الحَبَّة فلا يمنعها تن موضعها أن تخضرَّ وتهتزَّ وتحسُن، فيا حملة القرآن، ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟

قال الفُضَيْل رحمه الله: حاملُ القرآن حاملُ راية الإسلام، لا ينبغي أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا ينبغي أن يكون له إلى أحد حاجة، «إلى الخلفاء إلى من دونهم»، وينبغي أن تكون حوائج الناس إليه.

وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه: رأيت ربَّ العزة عز وجل في المنام فقلت يا رب: ما أفضل ما يتقرب به المتقربون إليك، فقال: بكلامي يا أحمد. فقلت: يا رب بفهم، أو بغير فهم؟ فقال: بفهم، وبغير فهم.

قوله تعالى: ﴿وأقاموا الصلاة﴾ المعنى: ويقومون الصلاة، وهو إتمامها بحدودها في مواقيتها.

قال بعض السلف: رأيت بجبل اللكام شأباً مُصَفَّرًا يصلِّي العشاء الآخرة، ثم يصفُ قدميه، فيختم القرآن في ركعتين، ثم يبكي إلى الفجر.

قوله تعالى: ﴿وأنفقوا مما رزقناهم سِرًّا وعلانية﴾ كانوا إذا قدروا على السرِّ لم يُخْرِجُوا الصدقة علانية، لأن صدقة السرِّ تزيد على العلانية سبعين ضعفاً.

وفي الصحيحين أن أبا طلحة قال: أحب أموالي إليّ بئرحاء، وهي صدقة لله تعالى لو قدرت أن أسره لم أعلنه.

يا مقصراً في أعماله بخيلاً بماله، لا تسألوا عن حاله يوم ترحاله، يا دائم الخسران فما يربح، يا مقبلاً على المعاصي ما يبرح، متى رأيت من فعل فعلك أفلح، تقبل من العدو، ولا تقبل ممن ينصح، قم على قدم الطلب فاقرع الباب بالأدب يفتح، صاحب أهل الخير تكن منهم، واستفد خصالهم وخذ عنهم.

قوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً﴾ أي يرجون بفعلهم تجارة ﴿لن تبور﴾ أي لن تفسد ولن تكسد. وهذا جواب قوله تعالى: ﴿إن الذين يتلون كتاب الله﴾.

لَمَّا سَمِعُوا مِضَاعِفَةَ الْأَجْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سَنبَلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾^(١). ثم سمعوا قوله تعالى: ﴿فِيضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾^(٢). قال ابن عباس: لا ينقضى عددها.

(٢) البقرة ٢٤٥.

(١) البقرة ٢٦١.

وقال أبو هريرة: إن الله تعالى يكتب للمؤمن بالحسنة الواحدة ألف حسنة، ولما سمعوا لفظ «القرضُ في ذمة الله» بادروا بالأموال.

أخبرنا يحيى بن علف المدير، بسنده، عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً، فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ (١). قال أبو الدحداح يعني لرسول الله ﷺ: وإن الله تعالى ليريد منا القرض؟ قال: نعم: قال: أرني يدك يا رسول الله. قال: فناوله يده فقال: إني قد أقرضتُ ربي حائطي. قال: وحائطه فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، فجاء أبو الدحداح فنادى: يا أم الدحداح. قالت: لبيك. قال: اخرجي من الحائط، فقد أقرضته ربي عز وجل، وفي رواية أخرى أنها لما سمعت ذلك عمدت إلى صبيانها تخرج ما في أفواههم وتنفض ما في أكمامهم، فقال النبي ﷺ: «كم من عِدْق رَدَّاح في الجنة لأبي الدحداح».

سبحان من خلق تلك النفوس واختارها، وصفأها بالتقى، ورفع أقدارها، وجعل حِمَى معرفته وجنته دارها، فإذا مرّت على النار أطفأ نورها نارها، قوم تيقظوا في أمورهم وعقلوا، وحاسبوا أنفسهم فما أضاعوا ولا غفلوا، وحاربوا جنود الهوى فأسروا وقتلوا، وتدبروا منازل اليقين مع سادة المتقين ونزلوا، فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا.

إخواني: رحل من أصفه وبقي من لا أعرفه، سلّ عنهم الشعثُ الغبور، وزر إذا اشتفتهم القبور.

لَمَنْ الطُّولُ كَأَنَّهُنَّ (م) بَجَزَعٍ ذِي سَلَمٍ سَطُورُ
تَطْوَى مَعَالِمَهَا الصَّبَا طَوْرًا وَتَنْشُرُهَا الدَّبُورُ
وَكَفَتْ بِهَا مَنْ أَدْمَعِي فِي الرِّكْبِ غَادِيَّةٌ دَرُورُ
وَلَقَلَّ مَا تُجْدِي الدَّمُو عٌ وَيَنْفَعُ الصَّبَّ الزَّفِيرُ
أَقْوَتُ مِنَ الْحَيِّ الدِّيَا رُ فَمَا لَهَا فِي الْعَيْنِ نَوْرُ

سجع على قوله تعالى ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾^(١)

كانوا يقومون الدّيجور، ببكاء مطرودٍ مهجور، ورعدٌ قلوبهم مُقلق زَجُور، فامتلات بالخيرات الحُجُور ﴿يرجون تجارةً لن تبور﴾.

رفضوا الدنيا شُغلاً عن الزينة، وأذلوا نفوسهم فعادت مسكينة، وعلّموا أن الدنيا سفينة، فتهيأوا للعبور ﴿يرجون تجارةً لن تبور﴾.

يؤثرون بالطعام، ويؤثرون الصيام، ويأملون فضل الإنعام، فما كانت إلا أيام حتى اخضرت البذور ﴿يرجون تجارةً لن تبور﴾ بعثوا الأموال الحبيبة إلى بلاد البعث الغربية، فإذا الأرباح عن قريب قريبة، وعلى هذا التجارة تدور ﴿يرجون تجارةً لن تبور﴾.

العليل عليل، والأنين طويل، والعيون تسيل، وما مضى إلا القليل حتى فرح الصّبُور ﴿يرجون تجارةً لن تبور﴾.

يقفون وقوف مسكين، ويدلون ذلّ مُسْتَكِين، فنالوا المقام الأمين، وانشعب قلبُ الحزين بأكمل الحُبُور ﴿يرجون تجارةً لن تبور﴾ سليمهم كالسليم، وحزنهم مقيم، يحذرون الجحيم، ويرجون النعيم في كمال الحبور ﴿يرجون تجارةً لن تبور﴾.

للقلب مع الدنيا نبا، كلما عارضه الهوى نبا، يندبون نذب الأُسرى الغُربا، والزفراءُ على ذنوب الصّبا، تزيد على الصّبا والدّبُور ﴿يرجون تجارةً لن تبور﴾.

يا من يدفن ماله تحت الأرض، ولا يفهم معنى القرض، سيخرج الوارث بالقرض إلى الدرهم والدّور. ﴿يرجون تجارةً لن تبور﴾.

سبحان من قضى لقومٍ سرورا، وعلى آخرين ثُورا، فما لهم من نور ﴿يرجون تجارةً لن تبور﴾.
والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) فاطر ٢٩.

المجلس السابع في الأخوة والصدقة

الحمد لله الذي لطف بالبرايا إذ برأهم وبرَّ، وروَّح أرواح أهل الصلاح براح
الفلاح وسرَّ، واطَّلَع على ضمير من نوى سيرٍ من أسرَّ، وقَدَّرَ الأشياء، فقضى
الخير، وقضى الشر، وأمات وأحيا وأفقر وأغنى، ونفعَ وضرَّ، جفَّ القلم
بتقديره فمضى الأمرُ واستقرَّ، بقدرته تقطع المراكبُ البحرَ والمركوبُ البرَّ،
لُطفه عظيم وجوده عميم قد استمر «رُبَّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرَّ»
سميع يسمع المدنَّف المضطر، بصير يرى في دُجَى الليل الذرَّ، علم بانكسار من
نَدِم وإصرار من أصرَّ، حلِيم فإن سَطَا رأيت الأمرَ الأمرَّ، ما أَلطفه بعبده
يدعوه لرفع ما عرَّ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَهُ مَرَّ﴾ (١).

يمدُّ رواق الظلام، فإذا لاح الصباح فرَّ، وينير النهار، فإذا انقضى عاد الليل
وكرَّ، فالقمر آية الليل والشمسُ تجري لمستقر.

أحمده على إنعام، كلما احتلبَ درَّ، وأقر بوحدانيته عن دليل قد استقر،
وأصلي على رسوله محمد الذي عمَّت رسالته البحر والبر، وعلى صاحبه أبي بكر
المنفيق حتى تخلَّل وَرَرَ، وعلى عمر الزاهد، فما غرَّه ما غرَّ، وعلى عثمان الذي
ارتفع بالكرم فبرَّ وأبرَّ، وعلى عليّ الذي ما أقدم قط ففرَّ، وعلى عمه العباس
المقدم نسباً، والفخر قد استقر.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) أيديك بمعنى قوَّاك
بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم. التأليف: الجمع على ما يشاكل. والمراد بالآية

(٢) الأنفال ٦٢.

(١) يونس ١٢

الأوس والخزرج، وهم الأنصار، وكانت بينهم عداوة في الجاهلية، فألف الله عز وجل بينهم، وهذا من أعجب الآيات، لأنهم كانوا ذوي أنفة شديدة، فلو أن رجلاً لطم رجلاً لقاتلت عنه قبيلته حتى تُدرك ثأره، قال لهم الإسلام إلى أن يقتل الرجل ابنه وأباه في طاعة الله عز وجل.

وقد روى أبو الأحوص، عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾^(١) قال: هم المتحابون في الله تعالى.

أعلم أن المعنى الجامع بين المسلمين الإسلام، فقد اكتسبوا به أخوة أصلية، ووجب عليهم بذلك حقوق لبعضهم على بعض.

وفي الصحيحين من حديث النعمان بن بشير، عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

وفي الصحيحين من حديث النعمان بن بشير، عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

وفيها من حديث أبي موسى، عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه.

وفيها من حديث أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

وفي حديث مسلم: لجاره أو لأخيه.

وفيها من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «حق المسلم على المسلم خمس: يسلم عليه إذا لقيه، ويشمته إذا عطس، ويعوده إذا مرض، ويشهد جنازته إذا مات، ويحييه إذا دعاه».

(١) الأنفال ٦٣.

وإذا ثبتت هذه الحقوق للاشتراك في الإسلام، فكلما زادت المخالطة وصفاً زادت الحقوق، مثل القرابة والمجاورة والضيافة والصحبة والصداقة، والأخوة الخاصة في الله عز وجل.

فأما حق القرابة، فمعلوم: وجوب بر الوالدين، وتقديم الأم في البر ووجوب صلة الرحم.

وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُوسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ».

وأما حق الجار ففي الصحيحين من حديث ابن عمر، وعائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورَّثُهُ».

وأما حق الضيف، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ».

وأما حق الصحبة فقال مجاهد: صحبت ابن عمر، وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمني أكثر.

وأما حق الصداقة، فإنها تُطلق على ما دون الأخوة، فالأخوة هي المرتبة العليا، وإنما تقع الأخوة الصادقة إذا حصل التشاكل بين الأخوين في أصل الوضع، وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال: «الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مَجْنُونَةٌ فَهَا تَعَارَفَ مِنْهَا اثْتَلَفَ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ».

قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله: ومعنى هذا الحديث: الإخبار عن مبدأ كَوْنِ الأرواح وتقدّمها الأجساد، على ما روى أن الله عز وجل خلق الأرواح قبل الأجساد بكذا وكذا، فأعلم النبي ﷺ أنها خُلِقَتْ على ائتلاف واختلاف، فتأتلف الأجساد في الدنيا، وتختلف على حسب ما وقع في مبدأ، الخَلْقَةِ.

وفي هذا الحديث دليل على أن الأرواح ليست بأعراض وأنها كانت موجودة قبل الأجساد، وأنها تبقى بعد الأجساد، ويؤيد هذا معنى قوله عليه الصلاة

والسلام: «أرواح الشهداء في حواصل طير خُضِرَ تَعْلُقُ في ثمر الجنة».

وهذه الأخوة الخاصة هي التي عقدها رسول الله ﷺ بين أصحابه، وقد علم أن الأخوة العامة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ واقعة قبل عقده، غير أنه أراد الأمر الخاص.

وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه آخى بين عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن الربيع. وقد آخى بين خلق كثير ذكرتهم في كتاب التلقيح.

وهذه الأخوة هي التي توجب المحبة في الله عز وجل، وهي أوثق عرى الإيمان، كذلك روى البراء بن عازب، عن النبي ﷺ أنه قال: «أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله، وتُبغِضَ في الله».

ومن جملة ثواب المتحابين ما روي في الصحيحين من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه» فذكر منهم رجلين تحابَّتا في الله عز وجل اجتمعا عليه، وتفرقا عليه.

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده، عن أبي الحباب، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: أين المتحابُّون بجلالي؟ اليوم أظلمهم في ظلِّي، يوم لا ظلَّ إلا ظلي».

انفرد بإخراجه مسلم.

وبالإسناد عن أبي مسلم الخولاني قال: أتيت مسجد أهل دمشق، فإذا حلقة فيها كهول من أصحاب محمد ﷺ، وإذا شاب فيهم أكحل العين برآق الثنايا، كما اختلفوا في شيء ردَّوه إلى الفتى، فقلت لجليس لي: ما هذا؟ قال: هذا معاذ ابن جبل فجنَّت من العشيِّ، فلم يحضر، فغدوت من الغد، فلم يجيء، فخرجت فإذا أنا بالشاب يصلِّي إلى سارية، فركعت، ثم تحوَّلت إليه، وقال: فسلم فدنوت منه فقلت: إني أحبك في الله تعالى. قال: فمدني إليه وقال: كيف قلت؟ قلت: إني أحبك في الله. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المتحابُّون في الله

على منابر من نور، في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله» .

قال: فخرجت حتى لقيت عبادة بن الصامت، فذكرت حديث معاذ بن جبل فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يحكي عن ربه عز وجل يقول: « حَقَّتْ محبتي للمتحابِّين فيّ، وحقت محبتي للمتباذلين فيّ، وحقت محبتي للمتزاوِّرين فيّ، والمتحابون في الله على منابر من نور في ظل العرش، يوم لا ظل إلا ظله» .

وفي حديث عمرو بن عبَّسة، عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الله عز وجل يقول: حقت محبتي للذين يتحابُّون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتصافون من أجلي» .

وفي حديث أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الله عز وجل عباداً على منابر من نور في ظل العرش يَغْبِطُهُمُ الشَّهَدَاءُ . قيل: من هم؟ قال: المتحابُّون في جلال الله عز وجل» .

واعلم أن هذا الثواب في هذه المحبة إنما يكون إذا كانت لله تعالى خالصة لا يشوبها شيء من الكدر، ومتى قويت محبة الله سبحانه وتعالى في القلب، قويت محبة أوليائه والصالحين من عباده، فلينظر الإنسان من يؤاخي، ومَن يحب، ولا ينبغي أن يتخير إلا من قد سلَّم عقله ودينه . وقد قال عليه السلام: « المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يُخالل» .

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: المرء من أحبَّ» .

فإذا أحبَّ شخصاً، فليُعلمه، وروى المقدم بن معدي كَرِب، عن النبي ﷺ أنه قال: إذا أحبَّ أحدكم أخاه، فليُعلمه إياه .

وقال عمران بن حطان: لقد أحببتُ في الله عز وجل ألفَ أخٍ كلهم أعرف اسمه واسم أبيه وقبيلته، ومكان داره .

وقال أبو زُرعة بن عمرو بن جرير: ما تحاب رجلان في الله عز وجل، إلا

كان أفضلها أشدهما حباً لصاحبه .

وكان يقول: اصحب من إذا صحبته زانك، وإن خدمته صانك، وإذا أصابتك خصاصة مانك، وإن رأى منك حسنة سر بها، وإن رأى منك سقطة سترها، ومن إذا قلت صدق قولك، ومن هو فوقك في الدين، ودونك في الدنيا، وكل أخ وجليس، وصاحب لا تستفيد منه في دينك خيراً، فانبذ عنك صحبته .

فإذا صفت المحبة وخلصت وقع الشوق والتزاور، وصار بذل المال أحقر الأشياء، فأما التزاور فقد ذكرنا فضيلته .

وقد كان عمر بن الخطاب يذكر الأخ من إخوانه في بعض الليل فيقول: يا طُولها من ليلة! فإذا صَلَّى المكتوبة غدا إليه فاعتنقه .

وقال مجاهد: إذا مشى أحد المتحابين إلى الآخر، فأخذ بيده، فضحك إليه تحاتت خطاياها، كما يتحات ورق الشجر .

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد، قال: أنبأنا أبو بكر الخطيب، أخبرني عبد العزيز الأزجي، حدثنا عبد الله بن محمد بن سليم العلاف، [عن معروف الكرخي] قال: إمش ميلاً صلّ جماعة، امش ميلين صل جمعة امش ثلاثة أميال عدّ مريضاً، امش أربعة أميال شيع جنازة، امش خمسة أميال شيع حاجاً، أو معتمراً، امش ستة أميال شيع غازياً في سبيل الله، امش سبعة أميال بصدقة من رجل إلى رجل، امش ثمانية أميال أصلح بين الناس، امش تسعة أميال صلّ رَحماً وقرابة، امش عشرة أميال في حاجة عيالك، امش أحد عشر ميلاً في معاونة أخيك، امش بَرِيداً والبريد اثنا عشر ميلاً - زُرْ أَخاً في الله عز وجل!

وأما بذل المال فهل ثلاث مراتب: أهونها: المساهمة في المال، وأوسطها: المواساة، وأعلىها: تقديم الأخ في المال على النفس .

وقد روينا أنفا: « حَقَّتْ محبتي للمتبادلين في » .

قال ابن عمر : لقد رأيتنا ، وما أحدنا بأحقّ بديناره ودرهمه من أخيه المسلم .

وقال الحسن : كنا نعدُّ البخيلَ الذي يُقرض أخاه !

وقال : ليس من المروءة أن يربح الرجلُ على صديقه .

وقال أبو جعفر الباقر لأصحابه : هل يُدخل أحدكم يده في كُمِّ صاحبه ،

فتأخذ منه ما يريد ؟ قالوا : لا . قال : فلستم بإخوان .

وقد كان بعضهم يتلطف في إيصال البرِّ إلى إخوانه فيأتي بالصرّة فيها

الأربعائة والخمسةائة ، فيودعها أحدهم ، ثم يلقاه بعد فيقول : انتفعوا بها فهي لكم .

وعلى هذا لا ينبغي للأخ أن يُجحف بأخيه فيما يأخذ منه ، وإن علم أنه لا

كلفة عليه في ذلك ، فإن النبي ﷺ قال له أبو بكرٍ زمن الهجرة : قد علقت ناقتين ، فخذ إحداها فقال : بالثمن .

هيهات ! رحل الإخوان ، وأقام الخوّان ، وقلّ أن ترى في الزمان ، إلا من إذا

دُعِيَ مان .

الكلام على البسمة

أجِدُّ الديارَ كما عهدتُ وإنما
يا وِحدتي ما أكثر الإخوان لي
في كلِّ مَطْرَحِ نظرةٍ حولي أخ
راعٍ معي أبداً ، فإن هي أعجفت
أشريه من خَفْضِ المعيشةِ غالياً
ألقاهمُ عددَ الكواكبِ كثرةً
شكّوايَ أي أفقدُ الجيرانا
نظراً وأكثرَ فيهم الخوّاناً !
صنوّ إذا همز الغنى الأفتاناً
إيلي تقلّب ، أو يعدن سمانا
ويبيعي في صنكها مجاناً
حولي وألقى وحدي الحدثاناً

إخواني : إن البخل والجهل للقلوب قد خالط ، فما يُعرف من يُخالط .

كان السلف يتعاشرون بنزع الغلّ على مناصحة النفوس ، فصارت عشرة

العشيرة على موافقة الهوى بدخن الضمير، كانوا يميلون على الدنيا بالذم، فصار الميل إليها بالقلب، تمالأوا على حبها ومالوا، فإذا فرّت عن صديقهم أعرضوا ومالوا، فافتح بصر البصيرة، فعلى هذا تراهم، ثم التفت عنهم وإياك وإياهم:

اسمعي مني أثبتك شاني إنما يُبدي ضميري لساني
كم أخ لي كان مني فلما أن رأى الدهر جفاني قد جفاني
لم يرعني غير خيل غادر موتر نحري لقوس الزمان
مستعدّ لي بسهم عندما أن رأى الدهر رماني قد رماني

كان الأخ في الله يخلف أخاه في أهله، إذا مات أربعين سنة! وكان الرجل إذا أراد شين أخيه طلب حاجته من غيره.

خرج إبراهيم بن أدهم رحمه الله في سفر، ومعه ثلاثة نفر، فدخلوا مسجداً في بعض المفاوز والبرد شديد، وليس للمسجد باب، فلما ناموا قام إبراهيم، فوقف على الباب إلى الصباح، فقبل له: لم تم؟ فقال: خشيت أن يصيبكم البرد، فقمتم مقام الباب!

وجاء رجل من السلف إلى بيت صديق له، فخرج إليه فقال: ما جاء بك؟ قال: علي أربعائة درهم، فدخل الدار فوزنها، ثم خرج فأعطاه، ثم عاد إلى الدار باكياً فقالت زوجته: هلاً تعلّلت عليه إذا كان إعطاؤه يشقّ عليك؟ فقال: إنما أبكي لأني لم أفتقد حاله فاحتاج أن يقول لي ذلك!

هل تحسان لي رفيقاً رفيقاً أو تصيبان لي صديقاً صدوقاً
قد فشا العدر والخيانة في النا س فما إن أرى رفيقاً شفيقاً

أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك بسنده عن رباح بن الجراح قال: جاء فتّح الموصلي إلى منزل صديق له يقال له: عيسى التّمّار، فلم يجده في المنزل، فقال للخادم: أخرجني لي كيس أخي. فأخرجته ففتحه فأخذ منه درهمين. وجاء عيسى فأخبرته الخادم فقال: إن كنت صادقة فأنت حرة. فنظر فإذا هي صادقة. فعتقت!

أخبرنا أبو بكر بن حبيب قال أبو سليمان الداراني: كان لي أخ في الله عز وجل فقلت له يوماً، أعطني دراهم. فقال: كم تريد؟ فسقط من عيني، وخرجت أخوته من قلبي بقوله: كم تريد.

واعلم أنه إذا علت مرتبة الأخوة وقع فداء الأخ بالنفس.

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بسنده، عن محمد بن داود قال: سمعت أبا بكر القرطبي وأبا عمرو الأدمي يقولان وكان يتأخيان في الله تعالى: خرجنا من بغداد نريد الكوفة، فلما سرنا في بعض الطريق، إذا نحن بسبعين رابضين على الطريق، فقال أبو بكر لأبي عمرو: أنا أكبر منك سنًا فدعني أتقدمك، فإن كان حادثة اشتغلا بي عنك وجزت أنت، فقال له أبو عمرو: نفسي ما تسأخني بهذا، ولكن نكون جميعاً في مكان واحد، فإن كانت حادثة كنا جميعاً فجازا جميعاً بين السبعين، فلم يتحركا ومرّا سالمين.

وركب أخوان في الله تعالى في البحر، فكسّر بهما المركب، فجعللا يسبحان ويتعلق أحدهما بالآخر، فقال أحدهما للآخر: إن تعلقت بي هلكتنا جميعاً، فدعني فرمما سلم أحدنا فقال: ظننتُ أي أنا أنت، فإذا وقع الفراق فنعم. ففتحني عنه، فقدّرت لها السلامة فلم يصحبه ذلك باقي عمره.

إخواني: نسخ في هذا الزمان رسم الأخوة وحكمه، فلم يبق إلا الحديث عن القدماء، فإن سمعت ياخوان صديق فلا تصدّق.

ما هذه الألف التي قد زدتم فِدَعَوْتُمُ الْخُوَانَ بِالْإِخْوَانِ
ما صحَّ لي أحدٌ أصيّرهُ أَخاً فِي اللَّهِ حَقّاً، لَا وَلَا الشَّيْطَانَ
إِذَا مَوْلٌ عَنِ وِدَادِي مَالَهُ وَجْهٌ وَإِمَامٌ لَه وَجْهَانِ

الكلام على قوله تعالى :

﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ (١)

في المراد بهذا الذكر ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الذكر في الصلاة ، يصلي الإنسان قائماً ، فإن لم يستطع فقاعداً ، فإن لم يستطع فعلى جنب . هذا قول عليّ وابن مسعود ، وابن عباس وقتادة .

والثاني : أنه ذكر في الصلاة وغيرها .

والثالث : أنه الخوف . فالمعنى يخافون الله في جميع تصرفاتهم .

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده ، عن أبي صالح قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجل : « أنا عند ظنّ عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منه ، ومن تقرب إلى شبراً تقربت منه ذراعاً ، ومن تقرب إلى ذراعاً ، تقربت إليه باعاً ، ومن جاءني يمشي جثته هرولة » .

أخرجاه في الصحيحين .

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال : سبق المفردون قالوا : وما المفردون ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً ، والذاكرات » .

وفي أفراد من حديث أبي هريرة أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال : لا يقعد قومٌ يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وعشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده » .

وفي حديث أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك إلا وجه الله إلا ناداهم منادٍ من السماء : قوموا مغفوراً لكم ، قد بُدلت سيئاتكم حسنات .

(١) آل عمران ١٩١

أخبرنا محمد بن عبد الباقي البزار بسنده عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « إن الله تعالى ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تنادوا: هلموا إلى حاجتكم. فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء، قال: فيسألهم ربهم تبارك وتعالى - وهو أعلم بهم: ما يقول عبادي؟ قالوا: يذكرونك ويسبحونك ويمجدونك. قال: وهل رأوني؟ فيقولون: لا والله يا رب ما رأوك. قال: فيقول: فكيف لو رأوني؟ قال: فيقولون: لو أنهم رأوك لكانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيداً، وأكثر تسبيحاً. قال: فيقول: وما يسألوني؟ قالوا: يسألونك الجنة قال: فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا والله يا رب ما رأوها. فيقول: فكيف لو رأوها فيقولون: لو رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً وأعظم فيها رغبة فيقول: فممن يتعوذون! يتعوذون! قال: يقولون: من النار قال: يقول: فهل رأوها؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوها. قال: يقول: كيف لو رأوها؟ قال يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشد لها مخافة قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم. قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة فيقول، هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم».

أخرجاه في الصحيحين.

وفي حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: « إن الله عز وجل يقول: أنا مع عبدي ما ذكرني، وتحركت بي شفتاه».

وفي حديث أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: « يقول الله تعالى: أخرجوا من النار من ذكرني يوماً، أو خافني في مقام».

وفي حديثه عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا». قالوا: يا رسول الله، وما رياض الجنة؟ قال: « مجالس الذكر».

وكان داود عليه الصلاة والسلام يقول: إلهي مررتُ على ملاء يذكرونك فجاوزتهم، فاكسر الرجل التي تليهم.

واعلم أن الذاكرين تختلف أحوالهم .

فمنهم من يؤثر قراءة القرآن ويقدمه على كل ذكر . وقد كان فيهم من يختم كل يوم ومنهم من يختم ختمتين .

ومنهم من أكثر ذكره التهليل والتسبيح والتحميد .

ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : من قال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير في كل يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ومُحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ، ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحدٌ بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك . ومن قال في يومه مائة مرة : سبحان الله وبجمده حُطَّت خطاياها ، وإن كانت مثل زبد البحر . »

وقال سعيد بن عبد العزيز قلت لعمر بن هانيء : أرى لسانك لا يفتر من ذكر الله عز وجل ، فكم تسبح كل يوم ؟ قال : مائة ألف ، إلا أن تُخطيء الأصابع .

وقال محمد بن ثابت البناني : ذهبت ألقتُ أبي ، وهو في الموت فقلت : يا أبت قل : لا إله إلا الله . فقال : يا بني خلّ عني فإني في وردي السادس ، أو السابع !

ذَكَرَكَ لِي مُؤَنَسٌ يُعَارِضُنِي يَعِدُنِي عَنْكَ مِنْكَ بِالظَّفَرِ
وَكَيْفَ أُنْسَاكَ يَا مَدَى هِمَمِي وَأَنْتَ مَنِّي بِمَوْضِعِ النَّظَرِ

ومن الذاكرين من غلب على قلبه حبُّ المذكور ، فلا يزال في الذكر والتعبّد .

أخبرنا ابن حبيب بسنده قال : سمعت فاطمة أخت أبي عليّ الروذباري تقول : سمعت أخي يقول : سمعت الجنيّد يقول : ما رأيت أعبد الله من سريّ

السَّقَطِي، أتت عليه ثمان وسبعون سنة ما رُئي مُضْطَجِعاً، إلا في علة الموت.
ومن الذاكرين من صار الذكر له إلفاً لا عن كلفة، فما له هم غيره، فهو
يذكر أبدأً على جهة الحضور.

وقال بِمَجْمَشِ الْجَلَّاب: صحبت أبا حفص النيسابوري اثنتين وعشرين سنة، فما
رأيته ذكر الله تعالى على حد الغفلة والانبساط، ما كان يذكر الله إلا على سبيل
الحضور والحُرْمَة والتعظيم، وكان إذا ذكر الله تعالى تغيّر عليه حاله، حتى كان
يرى ذلك جميعاً من حضره.

وقال بعض السلف: صحبت في طريقي رجلاً أسود، فكان إذا ذكر الله
تعالى أبيضاً!

وشُغِلت عني فَهَمُ الحديثِ سِوَى ما كان منك وعندكم شُغلي
وأديم نحو محدثي نظري أن قد فهمتُ وعندكم عقلي
أين أهل الأذكار، أين قوَّام الأسحار، أين صوَّام النهار، خلت والله منهم
الديار، وامتلات بهم القفار، فصل إليهم، وصل عليهم فهم الأحرار.

سلامٌ على أهل الحِمَى عدد الرملِ وقلَّ له التسليم من تائقٍ مثلي
وقفت وقوف العَيْثِ بَيْنَ طُلُولِهِ بِمُنْسَكِبِ سَحٍّ ومنهملٍ وبُل
وما رِمت حتى خالني الرِّيمُ رِمَةً وأذرفَ أطيَّارُ الحِمَى الدمعَ من أجلي
خليلاً قد عذبتاني ملامَةً كأن لم يطفُ في دِمْنَة أحدٍ قبلي
فلا برحتُ عيني تنوبُ عن الحيا بدمعٍ على تلك المَناهِلِ مُنْهَلٍ
ليالي لا روضُ الكَيْسِبِ بلا ندى ولا شجراتُ الأبرقَيْنِ بلا طَلِّ

السجع على قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾^(١)

سبحان من قضى على الغافلين كسلاً وقُعُوداً، ورفق المتقين علواً وصعوداً، ومنحهم من إنعامه فوزاً وسُعُوداً بمطلوبهم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

أنعم عليهم فأعطاهم، واستخلصهم واصطفاهم، وقليل ما هم، اشتغل الناس بدنياهم واشتغلوا بذكر محبوبهم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

قنعوا بأذون المطعم واللباس، وألقوا نفوسهم في المساجد كالأخلاس، يمشون بالسكينة بين الناس وما دروا بهم في دروبهم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

اكتفوا من الليل بيسير النوم، واشتغلوا بالصلاة وبالصوم، وكانت والله همم القوم في صلاح قلوبهم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

تناولوا لقم الترتيل وقالوا: هذه للجوع تُزيل، فهم يقنعون بالقليل في مطعمومهم ومشروبهم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

قاموا قيام المستعد، ووردوا بحر الجود العبد، وتسلحوا سلاح العزم والجِدّة في جميع حروبهم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

لبسوا ثياب السفر، ورحلوا على أكوار السهر، فلو سمعت وقت السحر ترم طروبهم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

تناولوا كؤوس الدمع يتجرعون، فلو رأيتهم في طريق الخضوع يتضرعون والقوم يقلقون ويضرعون في ستر عيوبهم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

(١) آل عمران ١٩١.

يستغيثون إلى الحق ويشكون، واليتامى في الذل يحكون، وجملة الأمر أنهم
يبكون على قبح مكتوبهم ﴿يذكرون الله قياماً وقياماً وعوداً وعلى جنوبهم﴾.

يعتذرون من زلل القدم، ويتمنون بعد الوجود العدم، وقد بعثوا رسالة
الندم مع مندوبهم ﴿يذكرون الله قياماً وقياماً وعوداً وعلى جنوبهم﴾.

قلبتهم الأشجان، وغيّرتهم الأحزان، ينزعجون لما قد كان من سالف ذنوبهم
﴿يذكرون الله قياماً وقياماً وعوداً وعلى جنوبهم﴾.

أما الليل فسهارى، وأما النهار فأسارى، وكأنهم بالحبّة سكارى في شروقهم
وغروبهم ﴿يذكرون الله قياماً وقياماً وعوداً وعلى جنوبهم﴾.

لو أصغيت في الدجى واستمعت، وأحضرت قلبك عندهم وجممت،
وهيئات لبتك اطلعت على بعض كروبهم ﴿يذكرون الله قياماً وقياماً وعوداً وعلى
جنوبهم﴾.

كانت رقدة ثم بقيت النياحة، فانتقلوا من حضرة الحظر إلى الإباحة،
واستبدلوا بالرياضة الراحة، فلم يبق أثر لجذوبهم ﴿يذكرون الله قياماً وقياماً وعوداً
وعلى جنوبهم﴾.

المجلس الثامن

في ذكر العزلة

الحمد لله الواحد القديم الجبّار، القادر العظيم القهار، والمتعالي عن درك
الخواطر والأفكار، المنفرد بالعز والقهر والإقتدار، الذي وسّم كلَّ مخلوق بسمته
الإفتقار، فأظهر آثار قدرته بتصرف الليل والنهار، سميع يسمع لا كالأسماع،
بصير يُبصر لا كالأبصار، قادر مرید حکيم، علم بالأسرار، يُبصر ذبيب النملة
السوداء في الليلة الظلماء على القار، ويسمع أنين المذنب يشكو ما به من أضرار،
كَلَّمَ موسى كِفَاحاً لما قضى الأجل وسار، ورآه نبينا ﷺ دلَّ على ذلك القرآن
والأخبار، ويراه المؤمنون إذا نزلوا دار القرار، صِفَاتُهُ كذاتهِ، والمشبهة كُفَّار،
نَقَّرَ ونَمَّرَ وأربابُ البحث في خَسَار، هذا سيف السُّنَّة، فتناوَلَهُ باليمين لا
باليَسَار، واضرب به كَفَّ « كَيْفَ » ورأس « لِمَ » وعُنُق « ثُم » وخُذْ للتنزيه من
التشبيه بالثَّار ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ
بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ﴾ (١).

أَحْمَدُهُ فِي الإِعْلَانِ وَالإِسْرَارِ، وَأَشْهَدُ بِوَحْدَانِيَّتِهِ بِأَصْحِ إِقْرَارِ، وَأَصْلِي عَلَى
رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الأنبياءِ الأطهارِ، وَعَلَى أَبِي بَكْرٍ رَفِيقِهِ فِي الدَّارِ وَالغَارِ، وَعَلَى
عَمْرِ قَامِعِ الكفارِ، وَعَلَى عَثْمَانَ شَهِيدِ الدَّارِ، وَعَلَى عَلِيٍّ قَسِيمِ النَّارِ، وَعَلَى عَمِّهِ
العَبَّاسِ أَخِذِ البَيْعَةِ لَيْلَةَ العَقْبَةِ عَلَى الأنصارِ.

أخبرنا عبد الأول بسنده عن عطاء بن يزيد، عن أبي سعيد الخدري قيل: يا
رسول الله أي الناس خير؟ قال: رجلٌ يجاهد بنفسه وماله، ورجلٌ في شِعْبٍ من

(١) التوبة ١٠٩.

الشعاب يَعْبُدُ رَبَّهُ، وَيَدْعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ.

أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ.

أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبِزَارِ، قَالَ: أَنْبَأَنَا رِزْقُ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ بِسَنَدِهِ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ خَيْرِ مَعَايِشِ النَّاسِ لِمَنْ رَجُلٌ مُمَسِّكٌ بِعَنَانِ فَرَسِهِ يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ، كَلِمًا سَمِعَ هَيْعَةً، أَوْ قَرَعَةً طَارَ عَلَى مَتْنِ فَرَسِهِ يَلْتَمِسُ الْمَوْتَ وَالْقِتْلَ مَكَانَهُ، وَرَجُلٌ فِي رَأْسِ شَعْفَةٍ مِنَ الشَّعَافِ، أَوْ بَطْنِ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ يَقِيمُ الصَّلَاةَ وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ، لَيْسَ مِنَ النَّاسِ، إِلَّا فِي سَبِيلِ خَيْرٍ.

قال أبو عبيدة: الهَيْعَةُ: الصَّوْتُ. قال الطَّرْمَاحُ:

أَنَا ابْنُ حُمَاةِ الْمَجْدِ مِنْ آلِ مَالِكٍ إِذَا جَعَلَتْ خُورُ الرِّجَالِ تَهْبَعُ وَالخُنُورُ جَمْعُ خَوَّارٍ وَهُوَ الضَّعِيفُ. وَالشَّعْفَةُ وَاحِدَةُ الشَّعَافِ، وَهِيَ رَعُوسُ الْجِبَالِ، وَهِيَ الشَّمَارِيخُ، وَالشَّنَاخِيبُ وَاحِدُهَا شُنُخُوبَةٌ.

وروي عن عقبه بن عامر قال: قلت يا رسول الله: ما النجاة؟ قال: «املكْ عليك لسانك، وليسعك بيتك وابك على خطيئتك.

قال الشيخ: وهذه الأحاديث تدل على فضل العزلة.

وقد كان السلف يُؤثرونها ويمدحونها فقال عمر بن الخطاب: خذوا بحظكم من العزلة.

وقال سعد بن أبي وقاص: والله لو ددت أن بيني وبين الناس باباً من حديد لا يكلمني أحدٌ، ولا أكلمه حتى ألحق بالله تعالى.

وقال ابن مسعود لأصحابه: كونوا ينابيع العلم مصابيح الليل أحلاس البيوت، جدد القلوب خلقتان الثياب، تعرفون في أهل السماء وتحفون على أهل الأرض.

وقال أبو الدرداء: نِعِمَّ صَوْمَعَةُ الرَّجُلِ بَيْتَهُ يَكْفُفُ فِيهَا بَصْرَهُ وَلِسَانَهُ، وَإِيَّامَ
وَالسُّوقِ، فَإِنَّهَا تُلْهِي وَتُلْغِي.

وقال ابن عباس: لولا مخافة الوسواس لرحلت إلى بلاد لا أنيس بها، وهل
يُفسد الناس إلا الناس!

كان أبو جهم الأنصاري بدرياً وكان لا يجالس الناس، وكان يعتزل في
بيته، فقالوا له: لو جالست الناس وجالسوك؟ فقال: وجدت مقاربة الناس
شراً.

وقال أبو حذيفة: والله لوددت أن لي إنساناً يكون في مالي، ثم أغلق عليّ باباً
فلا يدخل عليّ أحد حتى ألقى بالله عز وجل.

وقال الحسن: صوامع المؤمنين بيوتهم.

وقال سعيد بن المسيب وابن سيرين: العزلة عبادة.

وقال عمر بن عبد العزيز: إذا رأيت الرجل يطيل الصمت، ويهرب من الناس
فاقربوا منه، فإنه يلقى الحكمة.

وكان عثمان بن أبي دهرش إذا رأى الفجر أقبل عليه بثه وقال: الآن أصير
مع الناس، فلا أدري ما أجني على نفسي!

وقال داود الطائي: فرّ من الناس كما تفر من الأسد.

وأوصى سفيان الثوري بعض أصحابه فقال: إن استطعت أن لا تخالط في
زمانك هذا أحداً فافعل، وليكن همك مرمّة جهازك.

وكان يقول: هذا زمان السكوت، ولزوم البيوت.

وجاء رجل إلى الفضيل فجلس إليه فقال: ما أجلسك إليّ؟ فقال: رأيتك
وحدك. فقال: إما أن تقوم عني، وإما أن أقوم عنك. فقال: أنا أقوم أو صني.
فقال: أخف مكانك، واحفظ لسانك.

وجاء رجل إلى شُعَيْب بن حرب فقال: ما جاء بك؟ فقال: جئت أونسك.
فقال: أنا أعالج الوحدة منذ أربعين سنة!

وقال مالك بن أنس: كان الناس الذين مضوا يحبون العزلة والإنفراد من
الناس.

وقال بشر الخافي: مَنْ عامل الله بالصدق استوحش من الناس.

وقد كان أحمد بن حنبل يحب العزلة، وإبراهيم بن أدهم، وسليمان الخواص،
ويوسف بن أسباط، وحذيفة المرعشي في خلق كثير.

واعلم أن العزلة لا ينبغي أن تقطع عن العلم والجماعات، ومجالس الذكر
والاحتراف للعائلة، وإنما ينبغي أن يعتزل الإنسان ما يؤذي، وقد يخاف من
المخالطة المباحة أذى فيجتهد الإنسان في ترك ما يخاف عواقبه.

ويبعد حضور القلب مع المخالطة للناس، إلا أن يكون لمعنى.

وقد قال شعيب بن حرب: الناس ثلاثة: رجلٌ تعلّمه فيقبل منك، ورجل
تتعلم منه، واهرب من الثالث.

وقد كان الثوري يقول: أقلّ من معرفة الناس.

وقال إبراهيم بن أدهم: لا تتعرّف إلى من لا تعرف، وأنكر مَنْ تعرّف!

إنني نظرتُ إلى الزمنا	ن وأهليه نظراً كفاني
فعرفتُهُ وعرفتُهُم	وعرفت عِزِّي مِنْ هَوَانِي
فحملت نفسي بالقننا	عة عنهم وعن الزمانِ
وتركتها بعفافها	والزهدي في أعلى مكانِ
فلذاك أجتنب الصيدِ	ق فلا أراه ولا يراني
فتعجّبوا لمعالتِ	وهب الأقصي والأداني
وانسلّ من بين الزحّا	م فماله في الخلق ثاني

وفصل الخطاب في هذا: أن الناس على ضربين: عالم وعابد. فالعالم لا ينبغي له أن يتقطع عن نفع الناس، فإنه خلف الأنبياء، وليعلم أن هداية الخلق أفضل من كل عبادة.

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال لعليّ عليه السلام: «والله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمُر النَّعَم». فمتى ما جاء الشيطان فحسن للعالم الانقطاع عن الخلق في الجملة، فذاك خديعة منه، ولقد حسن لكثير من السلف دَفَنَ كتبهم ومَحَوْ علمهم، وهذا من الخطأ العجيب، بل ينبغي للعالم أن يعتزل عن شرٍّ ما يؤذي، ويبرز لمن يستفيد، فظهوره أفضل من إخفائه.

فأما إن كان عابداً فالعابد لا ينافس في هذا، فإن من القوم من شغلته العبادة، كما روي أن الحسن رأى رجلاً متعبداً فأتاه فقال: يا عبد الله ما يمنعك من مجالسة الناس؟ قال: ما أشغلي عن الناس. قال: فما منعك أن تأتي الحسن؟ فقال: ما أشغلي عن الحسن. قال: فما الذي شغلك عن الحسن؟ قال: إني أمسي وأصبح بين ذنوب ونعمة، فرأيت أن أشغل نفسي بالاستغفار للذنوب، والشكر لله تعالى على النعمة. فقال له: أنت عندي أفقه من الحسن!

وقال رجل لعامر بن عبد قيس: قِفْ فكلّمني. فقال: أمسك الشمس!

ومن القوم من استغرقتهم محبة الله تعالى والأنس به فاستوحش من الخلق. قيل لغزوان الزاهد: لو جالست إخوانك؟ فقال: إني أصيب راحة قلبي في مجالسة من عنده حاجتي.

تعبني راحتني وأنسي انفرادي وشفائي الضنا ونومي سهادي
لست أشكو بَعَادَ من صدّ عني أيّ بُعد وقد توى في فؤادي
هو يختال بين قلبي وعيني هو ذاك الذي يرى في السوادِ

فهؤلاء عزلتهم أصلح لهم، بل لا ينبغي أن تشغلهم العزلة عن الجماعات ومجالسة العلماء، فإن فعلوا كان ذلك من الشيطان. وإنما نأمر العوامّ باعتزال الشر، فحسب فإنه الجهاد في حقهم.

واعلم ان السمع يوصل إلى القلب خبرَ المسموعات، والبصرُ خبرَ المنظورات، ورب نظرة نقشت في القلب صورة فَبَعُدَ محوُّها، فإن الإنسان ليمشي في الأسواق فيتغيّر قلبه، والعزلة توجب السلامة من ذلك؛ وقد كان في الصالحين من إذا خرج للسوق فكسب ما يكفيه قام إلى المسجد.

فالبَدَارَ البَدَارَ إلى حفظ القلوب بالعزلة عن كل ما يؤذي.

الكلام على البسمة

ما عُذِرُ من جَرِّ عاصياً رَسْتَهُ ما عُذِرَ بعدَ أربعين سَنَهُ
أكلما طالت الحياةُ به أطال عن أخذِ حِذْرِهِ وَسَنَهُ
قل لي إذا متَّ كيف تنقص من سيئة أو تزيد في حَسَنَتِهِ

يا مريضاً ما يعرف أوجاعه، يا مضيع العمر بالساعة والساعة، يا كثير الغفلة وقد دنت الساعة، يا ناسياً ذِكرَ النارِ إنها لنزاعة، كأنه وملك الموت قد أزعجه وأراعه، وصاح بالنفس صيحة فقلت: سمعاً وطاعة، ونهضت تعرض كاسد التوبة، وهيهات غلق الباعة يا سيء النظر لنفسه في وجه شمس، فهمك غيم، بين دائك ودوائك حجاب، لو أهمتك نفسك سعيت لها في الخلاص، لو رضيت بالبلغة ما استرهن قلبك كسب الحطام، لو قنعت كلاب الصيد بالمنبوذ ما كانت السواجير في حلوقها.

طَلَبْتُكَ يا دُنْيَا فأعددت في الطلبِ فما نِلْتُ إلا الهمَّ والغَمَّ والنَّصَبَ
فلما بدا لي أنني لست واصلاً إلى لذة إلا بأضعافها تَعَبَ
وأسرعت في ذنبي ولم أقضِ شهوتي هربت بديني منك إن نفع الهربِ
تسرَّبتُ أخلاقي قُنوعاً وعِفَّةً فعندي بأخلاقي كنوزٌ من الذهبِ
ولم أرَ حظاً كالقُنوع لأهله وأن يُجَمِّلَ الإنسانُ ما عاش في الطَلَبِ

يا من قد مال بالآمال إلى جمع المال، كأنك به إلى غيرك قد مال، واعجباً بالحرص تجمعونه، وبالأمل تحفظونه، وبالغفلة تأكلونه، وفي الهوى تصرفونه،

المال نعمة فمن أنفق بعضه في الخير أقام للباقي حارساً، إذا سمعت النعمة نعمة الشكر ألبت، ولبت بالمزيد، وإذا لم تشكر، وقد وفرت نفرت، وما كل شاردٍ بمرود، واعجابه ممن فرح بلذة يعلم سرعة زوالها، وأعجب من ذلك الحساب عليها.

أشد الغم عني في سرور تيقن عنه صاحبُه زوالاً
 أين من لبس الحرير والقز، وحرَّك الجواد تحته وهزَّ، وتعاظم على أبناء جنسه وعزَّ، وقهر وغلب وسلَّب وبزَّ، ذبحه سيفُ المنون وما قطع ولا حزَّ، فتسلَّب الحبيبُ بعد فراقه وجزَّ، وأكله الدودُ، وقد كان يستزري الأوز، بينا هو قد ركض في أغراضه وكرَّ خرَّ فليل: كيف بات؟ قيل: مرَّ. فألبسه الغاسل ثوباً لا كفه ولا زرَّ، فرحل عن داره التي بها اغتر، واستعمل الحفارَ لتمهيد لحدِّه المرَّ، واستلبه جذباً عنيماً وجرَّ، ورجع أهله لا يقدرُّون له على نفع ولا ضرر، وندم حين سكن البرَّ إذ ما اتقى ولا برَّ، وطولب بما أعلن من عمل وأسرَّ، ووجد الله، وقد أحصى عليه الدرَّ، وبقي مكانه أسيراً لا يرى إلا الشر.

هذي منازلهم وقد رحلوا	وعلى الكراهة غيرها نزلوا
رحلوا وأبقوها لغيرهم	إن المنازل والغنى دُول
شادوا مبانيها وما سكنوا	إلا نزول الضيف وانتقلوا
وتفرقت عنهم أقاربهم	وجنودهم وخلوا بما عملوا
يا أمل الدنيا وقد عصفت	بالناس قبلك خانك الأمل
أتروم جهلاً أن تقيم بها	ووراءك الأيام والأجل

يا هذا إذا أسلمك الأتراب، تسلّمك التراب، كيف يفرح بحياته من يعلم أنها مطية ممانته، يا من هجم الشيطان عليه، وهو في بادية المخالفة، فسباه فباء: فاشتره الهوى بثمان بخس، تالله لو كنت في حصن التقى ما قدر عليك، إلى كم يستخدمك اهوى وأنت حرّ طال تشبّهك في التشبُّط بزحل، فانهض بحركة عطارد في الهرب مما يؤذي.

تَعَرَّضَ لِجِيَادِ الْمُجَاهِدِينَ ، لَعَلَّ بَعْضَهُمْ يَسْتَصْحَبُكَ .

أَمَا بَلْفَكَ لُطْفٌ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ ؟ أَمَا سَمِعْتَ عَفْوٌ : هَلْ مِنْ تَائِبٍ ؟ .

☆ وَتَذَنِّبُونَ فَنَاتِيكُمْ فَنُعْتَذِرُ ☆

لا تَيْأَسْ فَبَابِ الرَّجَاءِ مَفْتُوحٌ ، لَا تُلْقُ بِيَدِكَ فَعَلَمَ الْقَبُولِ يُلُوحُ :

عَسَى وَعَسَى مِنْ بَعْدِ طُولِ التَّفَرُّقِ عَلَى كُلِّ مَا نَرْجُو مِنَ العَيْشِ نَلْتَقِي
وَلَوْ ظَفِرَتْ عَيْنِي بِرُؤْيَاكَ سَاعَةً لَكُنْتُ عَلَى عَيْنِي مِنَ العَيْنِ أَتَقِي

إِخْوَانِي : لَيْسَ كُلُّ مَنْ قَالَ : أَنَا تَائِبٌ كَانَ تَائِبًا ، إِنَّمَا التَّائِبُ مَنْ صَبَرَ عَلَى
فَقْدِ الأَغْرَاضِ صَبْرَ السَّحْرَةِ عَلَى الصَّلْبِ ، وَاعْتَذَرَ مِنْ جُنَايَاتِهِ اعْتِذَارَ النَّابِغَةِ إِلَى
النِّعْمَانِ ، وَخَضَعَ خَضُوعَ الجَرَبِ لِلطَّلَاطِي ، وَتَضَرَّعَ تَضَرَّعَ الصَّبِيِّ إِلَى المُوَدَّبِ .

لَا تَتَأَنَّ وَإِنْ طُرِدْتَ ، وَلَا تَبْرَحْ وَإِنْ زُجِرْتَ : -

إِذَا هَجَرُوا عِزًّا وَصَلْنَا تَذَلُّلًا وَإِنْ بَعَدُوا يَأْسًا قَرُبْنَا تَعَلُّلًا
وَإِنْ أَغْلَقُوا بِالمُهْجَرِ أَبْوَابَ وَصْلِهِمْ وَقَالُوا ابْعُدُوا عَنَا طَلَبْنَا التَّوَصُّلًا
وَإِنْ مَنَعُونَا أَنْ نَجُوزَ بِأَرْضِهِمْ وَلَمْ يَسْمَعُوا الشُّكْوَى وَرَدُّوا التَّوَسُّلًا
أَشْرْنَا بِتَسْلِيمٍ وَإِنْ بَعُدَ المَدَى إِلَيْهِمْ وَكَلَّفْنَا الرِّيَاحَ لِتَحْمِيلًا

الكلام على قوله تعالى :

﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ ﴾ (١)

تتجافى : أي ترتفع . والآية في قُوَامِ اللَّيْلِ .

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده ، عن معاذ بن جبل ، عن النبي ﷺ : ﴿ تتجافى
جنوبهم عن المضاجع ﴾ قال : قيام العبد من الليل .

قال أحمد : وحدثنا علي بن عبد الله بسنده ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال

(١) السجدة ١٦ .

رسول الله ﷺ: «ثلاثة يضحك الله إليهم: رجل يقوم من الليل، والقوم قد صفوا للصلاة، والقوم إذا صفوا للقتال».

قال أحمد: وحدثنا رَوْحٌ وعفان، قال: أنبأنا حاد بن سلمة، قال: أخبرنا عطاء بن السائب، عن مَرَّةَ عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال «عَجِبَ رَبُّنا من رجلين: رجلٌ ثار عن وِطائِهِ ولحافِهِ من بين حِجَّتِهِ وأهلِهِ إلى صلاتِهِ، فيقول ربُّنا: يا ملائكتي انظروا إلى عبدِي ثار من فراشِهِ ولحافِهِ من بين حِجَّتِهِ وأهلِهِ إلى صلاتِهِ، رغبةً فيما عندي، وشفقةً مما عندي. ورجلٌ غزا في سبيلِ الله عز وجل فانهزم، فعلم ما عليه في الفرار، وما لَه في الرجوع، فرجع حتى أُهريقَ دَمُهُ، فيقول الله عز وجل: انظروا إلى عبدِي رجع رغبةً فيما عندي، ورهبةً مما عندي حتى أُهريقَ دمه».

وروى أبو أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «عليكم بقيام الليل، فإن ذأب الصالحين قبلكم، وهو قُرْبَةٌ إلى ربكم، ومغفرةٌ للسيئات، ومَنْهَةٌ عن الإثم».

وقال الحسن البصري: لم أجد من العبادة شيئاً أشدَّ من الصلاة في جوف هذا الليل.

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: فينا نزلت معاشرَ الأنصار: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾^(١) كنا نصلي المغرب، فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع النبي ﷺ.

واعلم ان السلف كانوا في قيام الليل على سبع طبقات.

الطبقة الأولى: كانوا يُحْيُونَ كَلَّ الليل، وفيهم من كان يصلي الصبح بوضوء العشاء. وكان ابن عمر يحبي الليل. ومن القوم سعيد بن المسيب وصفوان

(١) السجدة ١٦

بن سليم المدتيان، وفُضَيْل بن عِيَّاض، ووهيب ابن الورد المكيان، وطاووس ووهب ابن منبّه اليمنيان، والربيع بن خثيم والحكم الكوفيان، وأبو سليمان الداراني وعلي بن بكّار الشاميان، وأبو عبيد الله الخواص، وأبو عاصم البغداديان، ومنصور بن زاذان وهشيم الواسطيان، وحبيب أبو محمد، وأبو جابر السلمي الفارسيان، ومالك بن دينار، وسليمان التيمي، ويزيد الرقاشي، وحبيب بن أبي ثابت، ويحيى البكاء البصريون.

الطبقة الثانية: كانوا يقومون شَطْرَ الليل، منهم عبد الله بن عباس. قال ابن أبي مُلَيْكَةَ: صحبته وكان يقوم شَطْرَ الليل يُكثر في ذلك والله التسبيح.

الطبقة الثالثة: كانوا يقومون ثلث الليل. وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ انه قال: «أحب الصلاة إلى الله عز وجل صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه».

وفي حديث عمرو بن عَبْسة، عن النبي ﷺ أنه قال: «أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله عز وجل في تلك الساعة فكن».

وروي أن داود عليه السلام قال: يا رب أيّ ساعة أقوم لك؟ فأوحى الله عز وجل إليه: لا تقم أول الليل ولا آخره، ولكن قم في وسط الليل، حتى تخلو بي، وأخلو بك وارفع إليّ حوائجك.

وسأل داود عليه السلام جبريل عليه السلام: أيّ الليل أفضل فقال: ما أدري، إلا أن العرش يهتز في السحر.

الطبقة الرابعة: كانوا يقومون سُدس الليل، أو حُمْسه.

الطبقة الخامسة: كانوا لا يراعون التقدير، وإنما كان أحدهم يقوم إلى أن يغلبه النوم، فينام، فإذا انتبه قام. قال سفیان الثوري: إنما هي أول نومة، فإذا انتبهت فلا أقبلها.

الطبقة السادسة: قوم كانوا يصلُّون من الليل أربع ركعات أو ركعتين. وقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال: « صلُّوا من الليل ولو أربعاً صلُّوا، ولو ركعتين ». وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: « من استيقظ في الليل، وأيقظ امرأته فصلِّيا جميعاً ركعتين، كُتِبَا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات ».

الطبقة السابعة: قوم يُحيُّون ما بين العشاءين، ويصلُّون في السحر، فيجمعون بين الطرفين.

وفي أفراد مسلم من حديث جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: « إن في الليل لساعة لا يوافقها عبد مسلم، يسأل الله فيها خيراً إلا آتاه إياه وذلك كل ليلة ».

ومن أراد قيام الليل، فلا يكثر من الأكل والشرب، ولا يُتعب أعضائه في النهار بالكدِّ، ولا يعمل معصية، وليستعن بالقيولة.

وأما آداب الباطن: فأن يكون القلب سليماً للمسلمين، ولا بد له من خوفٍ مُقلق، أو شوقٍ مُزعج.

كان شدَّاد بن أوس إذا أوى إلى فراشه كأنه حَبَّة على مَقْلَى، ثم يقول: اللهم إن جهنم لا تدعني أنام، فيقوم إلى مُصَلَّاه.

وكان طاووس يفرش فراشه، ثم يضطجع، فيتقلَّى كما تتقلَّى الحبة على المقلَّى، ثم يثب فيتطهر ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول: طير ذكر جهنم نوم العابدين!

وقالت بنت الربيع بن خثيم له: يا أبت مالي أرى الناس ينامون، ولا أراك تنام فقال: يا بنية إن أباك يخاف البيات.

وقالت أم عمر بن المنكدر: يا بني أشتهي أن أراك نائماً. فقال: يا أماه والله إن الليل ليردُّ عليَّ فيهُولني فينقضي عني، وما قضيتُ منه أربي.

وكان زَمْعَةُ العابد يقوم فيصليّ ليلاً طويلاً، فإذا كان السَّحَر نادى بأعلى صوته: يا أيها الرِّكْبُ المرسون، أَكُلْ هذا الليل تَرَقِدون، ألا تقومون فترحلون!!

فيسمع من ها هنا باكٍ، ومن ها هنا داعٍ، ومن ههنا متوضيٍّ؟ فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته يقول: عِنْد الصبّاح يَحْمَدُ القومُ السُّرَى .

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، بسنده عن أحمد بن أبي الحواري. قال: دخلت على أبي سليمان، وهو يبكي فقلت له: ما يبكيك؟ فقال لي: يا أحمد، ولم لا أبكي، وإذا جَنَّ الليلُ ونامت العيون وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه، وافترش أهلُ المحبة أقدامهم، وجرت دموعهم على خدودهم، وقطرت في محاريبهم، أشرف الجليل سبحانه وتعالى فنادى جبريلَ، بَعِينِي من تلذُّذٍ بكلامي، فلم لا تنادي فيهم: ما هذا البكاء؟ هل رأيتم حبيباً يعذبُ أحبّابه؟! أم كيف يَجْمَلُ بي أن أعذب قوماً إذا جَنَّهم الليلُ تملّقوني؟ فيبي حلفتُ إذا وردوا عليّ في القيامة لأكشِفَن لهم عن وجهي الكريم، حتى ينظروا إليّ وأنظر إليهم.

وقال أحمد بن أبي الحواري أيضاً: سمعت أبا سليمان يقول: بينا أنا ساجد ذهب بي النوم، فإذا أنا بجوّراء قد ركضتني برجلها، وقالت: حبيبي أترقد والمَلِكُ يَقْظان ينظر في المتهجّدين في تهجدهم! بؤساً لعينٍ آثرت لذة نومٍ على لذة مناجاة العزيز، قم فقد دنا الفراغُ، ولقي المحبُّون بعضهم بعضاً، فما هذا الرقاد، حبيبي وقرّة عيني؟ أترقد عينك وأنا أرتبي لك في الخدور؟ فوثبتُ فزعاً، وقد عرقتُ استحياء من توبيخها إياي، وإنّ حلاوة منطقتها لفي سمعي وقلبي.

وكان أبو بكر رضي الله عنه لِقِصَرَ أمّله، يوتر أولَ الليل وعمر لتأميل الخِدْمَةِ يؤخره إلى آخر الليل. وعثمان يتهجّد في آناء الليل. وعليّ يستغفر في أواخر الليل.

قام القومُ على أقدام ﴿قُمَ الليلَ﴾ فبان في القوم سرٌّ ﴿وتقلّبك في

الساجدين ﴿١﴾ لولا قيام تلك الأقدام ما كان يؤدَّى حق «هل من سائل» يا غافلين عما نالوا، لقد ملّتم عن التقى، وما مالوا، قاموا في غفلات الراقدين، فقبولوا بجزاء لم يطلع عليه غير غيرة لهم.

ما أطيب أملهم في المناجاة، ما أقربهم من طريق النجاة، ما أقل ما تعبوا، وما أيسر ما نصبوا، وما كان إلا القليل ثم نالوا ما طلبوا، لو ذاق الغافل شراب أنسهم في الظلام، أو سمع الجاهل صوت حنينهم في القيام، وقد نصبوا لِمَا انتصبوا له الأقدام، وترنّموا بأشرف الذكر، وأحلى الكلام، وضربوا على شواطئ أنهار الصدق الخيام، وركزوا على باب اليقين بالحق الأعلام، وزمّوا مطايا الشوق إلى دار السلام، وسارت جنود حبّهم والناس في الغفلة نيام، وشكّوا في الأسحار ما يلقون من وقع الغرام، ووجدوا من لذة الليل، ما لا يحظر على الأوهام، وإذا أسفر النهار تلقّوه بالصيام، وصابروا الهواجر بهجر الشراب، وترك الطعام، وتدرّعوا دروع التقى خوفاً من الزلزل والآثام، فنورهم يُخجل شمس الضحى، ويؤزري بدر التمام، فلاجلهم تُنبت الأرض ومن جرّاهم يجري الغمام، وبهم يُسامح الخطّاءون، ويصْفَح عن أهل الإجمام، فإذا نازهم الموت طاب لهم كأس الحِمَام، وإذا دفنوا في الأرض فخرت بحفظها تلك العظام، فعلى الدنيا إذا ماتوا من بعدهم السلام.

عن لذيذ المضاجع	تتجافى جنسهم
مُستجيري وطامع	كلهم بين خائف
للعيون الهواجع	تركوا لذة الكرى
طالعا بعد طالع	ورعوا أنجم الدجى
بانصباب المدامع	واستهلت دموعهم
لم تقنع في المسامع	فأجيبوا إجابة
أو ليائي بضائع	ليس ما تصنعونه

(١) الشعراء ٢١٩.

تأجروني بطاعتي ترهبوا في البضائع
وابذلوا لي نفوسكم إنها في ودائعهم

لو رأيت رياح الأسحار تحرك أشجار القلوب، فتقع ثمار المحبة!

يا لذة خلوتهم بالحبي، يا وفور نصيبهم من ذلك النصيب.

هبت رياح وصالهم سحرا لحدائق الأشواق في قلبي
واهتز عود الوصل من طرب وتساقطت ثمرة من الحب
ومضت خيول الهجر سادرة مطرودة بعساكر القرب
وبدت شمس الوصل خارقة بشعاعها لسرادق الحجب
وصفا لنا وقت أضاء به وجه الرضا عن ظلمة العتب
وبقيت ما شيء شاهده إلا ظننت بأنه حبي

السجع على قوله تعالى:

﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ (١)

لو رأيتهم بين ساجد وراكع، وذليل مخمول متواضع، ومنكسر الطرف من الخوف خاشع، فإذا جن الليل حن الجازع ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾.

نفوسهم بالمحبة علقبت، وقلوبهم بالأشواق فلققت، وأبدانهم للخدمة خلقت، يقومون إذا انطبقت أجفان الهاجع: ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾.

يبادرون بالعمل الأجل، ويمجتهدون في سد الخلل، ويعتذرون من ماضي الزلل، والدمع لهم شافع ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾.

سبق والله القوم، بكثرة الصلاة والصوم، فإذا أقبل الليل حاربوا النوم والعزم في الطوالع ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾.

(١) السجدة ١٦.

ينادي منادي تائبهم: لا أعود، والمنعم ينعم بالقبول ويجود، هم والله من الكون المقصود، فما حيلة المطرود والمعطي مانع ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾.

كن يا هذا رفيقهم، ولُج وإن شقَّ مَضيقهم، واسلك ولو يوماً طريقهم، فالطريق واسع ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾.

اهجر بالنهار طيبَ الطعام، ودَع في الدَجَى لذيذَ المنام، وقل لأغراض النفس: سلام، والله يدعو إلى دار السلام، فما يُقعد السامع ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾.

يا من يرجو مقام الصالحين، وهو مقيم مع الغافلين، ويأمل منازل المقربين، وهو ينزل مع المذنبين، دَع هذا الواقع. الصدق الصدق فيه تَسْلَم، الجِدَّ الجِدَّ فيه تَعَنَّم، البِدَار البِدَار، قبل أن تَنَدَم، هذا هو الدواء النافع ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ والله أعلم.

المجلس التاسع في ذكر الأمر بالمعروف

الحمد لله مدبّر الليالي والأيام، ومصرّف الشهور والأعوام، المنفرد بالكمال والتمام، الملك القدوس السلام، تنزه جلاله عن درك الأفهام، وتعالى كماله عن إحاطة الأوهام، ليس بجسم، فيشبه الأجسام، ولا بمتجوّف، فيحتاج للشراب والطعام، ارتدى برداء الكبرياء والإعظام، وأبصر ما في بواطن العروق، ودواخل العظام، وسمع أخفى القول وألطف الكلام، لا يعزب عن سمعه صريف الأقدام، ولا يخفى على بصره دبيب النمل تحت سُجف الظلام، إله رحيم عظيم الإنعام، وربّ قدير شديد الانتقام، قدّر الأمور فأحسن إحكام الأحكام، ومصرّف الحُكم في فنون النُقْض والإبرام، بقدرته هبوبُ الريح وتسيير الغمام، ﴿ومن آياته الجوارِ في البحر كالأعلام﴾^(١).

أحمده حمداً يبقى على الدوام، وأقرّ بوحدانيته كافرأ بالأصنام. وأصلي على رسوله محمد شفيح الأنام، وعلى صاحبه أبي بكر أول سابق إلى الإسلام، وعلى عمر الذي كان إذا رآه الشيطان هام، وعلى عثمان الذي أنهض جيش العسرة بنفقتة وأقام، وعلى عليّ البحر العُطّامط، والأسد الضرغام، وعلى عمه العباس أبي الخلفاء الأعلام.

اعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل الدين، فإنه شغل الأنبياء، وقد خَلّفهم فيه خلفاؤهم، ولولاه شاع الجهل وبَطُلَ العِلْم.

(١) الشورى ٣٣.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي البزار بسنده، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله شيراركم على خياركم، فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم».

أخبرنا علي بن عبد الله بسنده عن جرير، عن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم فيهم رجل يعمل بالمعاصي، وهم أعز منه وأمنع لا يغيرون إلا أصحابهم الله بعقاب».

واعلم أنه قد اضمحلّ في هذا الزمان الأمر بالمعروف حتى صار المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، وهذا زمن قوله عليه الصلاة والسلام: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود كما بدأ».

وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلاً للمُنْكَرِ والسَّاكِتِ عن الإنكار.

أخبرنا ابن الحصين بسنده إلى عامر قال: سمعت النعمان بن بشير يخطب - وأوماً بإصبعه إلى أذنيه - : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إن مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها، والمداهن فيها مثل قوم ركبوا سفينة، فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فأذؤهم، فقالوا: لو خرقنا في نصيبنا خرقتنا، واستقينا منه، ولم نُؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجواً جميعاً».

أخرجاه في الصحيحين.

واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على الخلق.

وفي أفراد مسلم من حديث أبي سعيد، عن النبي ﷺ أنه قال: «من رأى منكم منكراً، فاستطاع أن يغيّر بيده فليفعل، فإن لم يستطع بيده فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

وفي حديث أبي سعيد أيضاً، عن النبي ﷺ أنه سئل: ما أفضل الجهاد؟ فقال: «كلمة عدل عند سلطان جائر».

وقال الشافعي رحمه الله: أشد الأعمال ثلاثة: الجود من قلة، والورع في خلوة وكلمة حق عند من يُرجى ويخاف.

وفي حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له: أنت ظالم، فقد تودّع منهم».

وفي حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «إن من كان قبلكم كانوا إذا عمل العامل منهم بالخطيئة نهاه الناهي تعذيراً، فإذا كان الغد جالسه وواكله وشاربه، كأنه لم يره على خطيئته بالأمس، فلما رأى الله عز وجل ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض، ثم لعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم، والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد السفية فلتأطرنه على الحق أطراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم يلعنكم كما لعنهم».

وفي حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الناس إذا رأوا المنكر، فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله عز وجل بعقابه».

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله شراركم على خياركم، فيدعو خياركم، فلا يستجاب لهم».

قال مالك بن دينار: قرأت في التوراة: من كان له جار يعمل بالمعاصي، فلم ينهه فهو شريكه.

وقال مسعر: أمر ملك أن يخسف بقرية فقال: يا رب فيها فلان العابد. فأوحى الله تعالى إليه: أن به فابداً، فإنه لم يتمرّ وجهه في ساعة قط.

وينبغي للأمر بالمعروف أن يلطف، فقد قال الله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ (١).

(١) طه ٤٤.

ومر أبو الدرداء برجل قد أصاب ذنباً، وكانوا يسبونه فقال لهم: رأيتم لو وجدتموه في قليب ألم تكونوا مُستخرجيه؟ قالوا: بلى. قال: فلا تسبوا أحاكم، واحدوا الله الذي عافاكم. قالوا: أفلا تُبغضه؟ قال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي.

ورأى محمد بن المنكدر رجلاً يكلم امرأة في موضع خرب فقال: إن الله تعالى يراكما، سترنا الله وإياكم.

أخبرنا ابن ناصر بسنده عن ثابت البناني قال: كان صلة بن أشيم يخرج إلى الجبان فيتعبد فيها، وكان يمر على شباب يلهون ويلعبون فيقول لهم: أخبروني عن قوم أرادوا سفراً فحادوا بالنهار عن الطريق، وناموا بالليل، متى يقطعون سفرهم؟ فكان كذلك يمر بهم فيعظهم، فمر بهم ذات يوم، فقال لهم ذات يوم هذه المقالة، فقال شاب منهم: يا قوم إنه والله ما يعنى بهذا غيرنا، نحن بالنهار نلهو، وبالليل تنام، ثم أتبع صلة، فلم يزل يختلف معه إلى الجبان، ويتعبد معه حتى مات.

ومرّ بصلة بين أشيم فتى يجرّ ثوبه فهم أصحاب صلة أن يأخذوه بألستهم أخذاً شديداً فقال صلة: دعوني أكفكم أمره. ثم قال له: يا بن أخي إن لي إليك حاجة. قال: وما هي؟ قال: أحب أن ترفع إزارك. قال: نعم ونعمي عين! فرفع إزاره.

فقال صلة لأصحابه: هذا أمثل مما أردتم، لو شتمتموه وآذيتموه لشتمكم.

وقال سليمان التيمي: ما أغضبت أحداً فقيل منك.

وقال فتح بن شخرف: تعلق رجل بامرأة ومعه سكين لا يدنو منه أحد إلا عقّره، وكان شديد البدن، فبينما الناس كذلك والمرأة تصيح مرّ بشر بن الحارث، فدنا منه وحكّ كتفه بكتف الرجل، فوقع الرجل إلى الأرض، ومرت المرأة ومرّ بشر، فدنووا من الرجل وهو يرشح عرقاً فسألوه: ما حالك؟ فقال: ما أدري، ولكن حاكّي شيخ وقال: إن الله عز وجل ناظر إليك، وإلى ما تعمل. فضغفت

لقوله وهبته هيبه شديدة لا أدري مَنْ ذلك الرجل . فقالوا له : ذاك بشر بن الحارث . فقال : واسوأناه كيف ينظر إليّ بعد اليوم ! وحَمَّ من يومه ذاك . ومات يوم السابع .

وينبغي للآمر بالمعروف أن يحذر من فعل ما نهي عنه ، وترك ما أمر به .

فقد أخبرنا عبد الأول بسنده عن أمانة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يُجَاء بالرجل يوم القيامة ، فيلقى في النار ، فتندلق أقتابُ بطنه في النار ، فيدور كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : أي فلان ما شأنك ، أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ قال : كنت آمرم بالمعروف ، ولا آتية وأنهاكم عن المنكر وآتية . »

أخرجاه في الصحيحين .

واعلم انه إذا هدب الأمر نفسه ، أثر قوله ، إما في زوال المنكر ، أو في انكسار المذنب ، أو إلقاء الهيبة له في القلوب .

خرج إبراهيم الخوَّاص لإنكار منكر ، فنجح عليه كلب ، فما قدر على الوصول إلى مكان المنكر ، فرجع إلى مسجده وتفكّر ساعة ، ثم قام فجعل الكلب يتبصّبص حوله ولا يؤذيه حتى أزال المنكر ، فسئل عما جرى له فقال : إنما نجح عليّ لفساد دخل عليّ في عقْد بني وبين الله عز وجل فلما رجعت ذكرته فاستغفرت .

الكلام على البسمة

يَسَّرْ بَصْفُو عِشْتَه الْجَهْوُلُ	وَتُعْجِبَه الْإِقَامَةُ وَالْحَلْوُلُ
وَدُونُ مَقَامِه حَادٍ حَيْثُ	عَنِيْفُ السَّوْقِ وَالْمَوْتُ السَّبِيلُ
سَبِيلُ مَا تَوَجَّه فِيهِ سَفْرُ	فَكَانَ لَهُمْ إِلَى الدُّنْيَا قُفُولُ
طَرِيقِي يَسْتَوِي لِلْمَخْلُقِ فِيهِ	مَسَالِكُهُمْ وَيَخْتَلِفُ الْمَقِيلُ
تَغْرُهُمْ زَخَارِفُ دَارِ دُنْيَا	غَوَائِلُهَا بِجَمْعِهِمْ تَعْوُلُ

تطوف عليهم بكؤوس لَهْوٍ وَمَزْجُ كؤوسها الداءُ الدخيلُ
وتصقل وجهها لهم خِداًعاً وتحت صقالها السيفُ الصَّيْلُ

يا هذا قد صانك بالحلال، فلا تبتذل، وبالقناعة فلا تذلل، وطهرك من
الأدناس فلا تتوسخ، ودعاك إلى الأرباح فلا تتوقف، ويحك إذا خدمت الدنيا
رأت نفسها فتدلتت، وإذا أعرضت عنها عرفت قدرها فتدلتت، « اخذمي من
خدمتي واستخذي من خدمتك ». يا جامع الدنيا لغيره جمعاً يعوقه عن سيره .

ماذا تؤمل لا أبالك في مال تموت وأنت تمسكه
أنفوق فإن الله يخلفه لا تمش مذموماً وتتركه
ما لم يكن لك فيه قط منفعة مما جمعت فلست تملكه

يا هذا : إنما فضل العاقل لنظره في العواقب، فأما من لا يرى إلا الحاضر
فطفل :

تصنفو الحياة لجاهلٍ أو غافل عما مضى منها وما يتوقع
ولن يغالط في الحقيقة نفسه ويسومها طمع المحال فتتبع

قد أعدت لك كأساً لا يشبه الكؤوس، موت يسلب الأرواح ويختلس
النفوس، ورحلة لا تدري بالسعود، أو بالنحوس، إلى الحدِ ضيق وعَر ما مهَّدته
الفؤوس، تحط في ذليلاً وأنت محسوب منكوس، لا يشبه المطامير، ولا
يُجانس الحُبوس، المدر فيه فراش والتراب فيه لبوس، أترى يكون لك روضة
أو يشبه الناموس، كم مِحنةٍ يلقي ذلك الملقى المرموس، رفقا إذا وطئت الأحداث،
فالأحداث تدوس، ثم يُنْفَخ في الصور فتطير إلى الأكف الطُروس، وتُجسى ثمار
الجزء يومئذ من قديم الغُروس، وتشتد الشدائد في قَمطيرِ عبُوس، وتذل العتاة
الجبابرة المتغطرسون الشُوس، ويتساوى في الخضوع الأتباع والرءوس، وتقسّم بين
الخلائق خِلع السُّعود، وملابس النُّحوس. واعجباً لجمود ذهنك، وأنت في
الإعراض تنُوس، كم بهرج ورمل، وكم تجلى عليك عروس، أهذا الذي تسمعه
كلام الخالق، أو صوت الناقوس، يا مؤثراً شهوة لحظة تجني له حرب

البسوس، يا من قد غلب الأطباء دواؤه، أَمْرِيضَ أَنْتِ، أَم مَمْسُوسٍ، تُعْنِي
 بعلاجك «بقراط» وتَحْيِرُ «جالينوس» سبحان من خلق قلبك من حجارة،
 تعالى المليك القدوس، واعجباً لعقلك! العَرَضُ مَبْدُولٌ، والعَرَضُ محروس، جُلُّ
 همك من الدنيا وحظ الأخرى منك مَبْخُوسٌ، ثوبك جديد صحيح، ولكن
 القلب منكوس، وبلوغ الخمسين مُنْذِرٌ، وفي الستين تَصْرَبُ الكؤوس، هذا قدر
 النصائح، أفاخذك بالدبوس.

أَنْتِ فِي دُنْيَاكَ ضَيِّفُ وَالتَّوَانِي مِنْكَ حَيِّفُ
 مَرَّ بِالْقَرِّ شَتَاءً وَأَتَى بِالْحَرِّ صَيِّفُ
 خَاسِرٌ مَنْ نَقَدَهُ حَيًّا مِنْ تَقْوَمِ السُّوقِ زَيْفُ
 فَاغْتَنَّمْ أَجْرًا وَذِكْرًا حَسَنًا فَالْوَقْتُ سَيِّفُ

صِيحٌ عَلَى فَرَسِ الْجِدَّةِ، وَقَدْ فَرَسَ الْغَابَةَ، مَجَالِسَ الذِّكْرِ فَصُولٌ، وَتَعْبَةٌ
 الْمَوَاعِظِ شَرِبَاتٌ، فَاصْبِرْ عَلَى مَرَارَةِ الْمَرْكَبِ، لَعَلَّ الْأَخْلَاقَ تَحْسَنَ.

واعجباً تَفِيقٌ فِي الْمَجْلِسِ، فَتَنْطِقُ بِلَفْظِ تَوْبَةٍ، كَمَا يَفِيقُ الْمَجْنُونُ، فَيَتَكَلَّمُ
 بِكَلِمَةِ حِكْمَةٍ، فَإِذَا عَادَتِ السُّودَاءُ خَلَطَ!

أَيْفِيْقُ مِنْ مَرَضِ كَثِيْبٍ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ عَلَيْهِ أَتْسَا
 متى كان مرض الجسد عن أخلاط مجتمعة سهلت مداواته، ومتى كان مرض
 الجسد التغيير عن فساد في القلب، فإيا قُرب التلف، مداواة العشى ممكن، وأما
 مداواة الجنون فيتعدَّر.

جَعَلْتِ لِعِرَافِ الْيَامَةِ حُكْمَهُ وَعِرَافِ نَجْدٍ إِنْ هَا شَفِيَانِي
 فَقَالَا: شَفَاكَ اللَّهُ وَاللَّهِ مَا لَنَا بِمَا ضُمْنَتْ مِنْكَ الضُّلُوعُ يَدَانِ

حظُّ قلبك من هذا الكلام حظُّ الصدى من سَمْعِكَ، علتك علة طريفة
 يتحير في مثلها المداوي، تسرع في طلب الدنيا إسراع جواد، وأنت في طلب
 الآخرة جبان. إن لاح لك ذنب وثبت وثب فهُد، وإن حرصت على طاعة

أخذك فالجُ ابن أبي دؤاد .

خُذَ الوَقْتَ أَخَذَ اللِّصُّ وَاسْرَفَهُ وَاخْتَلَسَ فَوَائِدُهُ قَبْلَ الْمُنَايَا الدَّوَائِبِ
وَلَا تَعَلَّلْ بِالْأَمَانِي فَإِنَّهَا عَطَايَا أَحَادِيثِ النُّفُوسِ الْكُوَاذِبِ
وَدُونَكَ وَرِدُّ الْعَمْرِ مَا دَامَ صَافِيًا فَخُذْ وَتَزَوَّدْ مِنْهُ قَبْلَ الشَّوَائِبِ

الكلام على قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا

يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (١)

في هذه النفخة قولان : أحدهما : أنها الأولى ، والثاني : أنها الثانية . والقولان عن ابن عباس .

وأما الصُّورُ : فروى عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سأل النبي ﷺ عن الصور فقال : « هو قرْنٌ ينفخ فيه » .

وقال مجاهد : الصور كهيئة البوق . وحكي ابن قتيبة أن الصور : القرْنُ في لغة قوم من أهل اليمن ، وأنشدوا :

نَحْنُ نَطْحُنَاهُمْ غَدَاةَ الْجَمْعَيْنِ
بِالصَّائِحَاتِ فِي غُبَارِ النَّقْعَيْنِ
نَطْحًا شَدِيدًا لَا كَنَطْحِ الصُّورَيْنِ

أخبرنا أبو منصور بن محمد بن عبد المالك ، بن خير بن بسند ، عن أبي هريرة قال : حدثنا رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه فقال : إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور ، فأعطاه إسرافيل ، فهو واضع على فيه شاخص ببصره إلى الأرض ينظر متى يؤمر . قلت : يا رسول الله وما الصُّور ؟ قال : القرْنُ . قال : قلت : فكيف هو ؟ قال : عظيم والذي بعثني

(١) المؤمنون ١٠١

بالحق، إن أعظم دارة فيه كعرض السماء والأرض، فينفخ ثلاث نفخات:

النفخة الأولى: نفخة الفزع. **والثانية:** نفخة الصعق. **والثالثة:** نفخة القيام

لرب العالمين عز وجل، فيأمر الله عز وجل إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول: انفخ نفخة الفزع، فينفخ نفخة الفزع، فيفزع أهل السموات والأرض، إلا من شاء الله، فيأمره فيمدّها ويطيّلها فلا يفتّر، وهي التي يقول الله عز وجل: ﴿وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق﴾ (١) فيسير الله تعالى الجبال، فتمر مرّ السحاب فتكون سراباً فترتج الأرض بأهلها رجّاً، فتكون كالسفينة الموقرة في البحر تضربها الأمواج تكفاً بأهلها، أو كالقنديل المعلق بالعرض ترجه الأرياح، وهي التي يقول الله عز وجل: ﴿يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة. قلبوب يومئذ واجفة﴾ (٢). فتميد الأرض بالناس على ظهرها، فتذهل المراضع، وتضع الحوامل ويشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربة من الفزع حتى تأتي الأقطار، فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع، ويولّي الناس مُدبرين ما لهم من الله من عاصم ينادي بعضهم بعضاً، وهو الذي يقول الله عز وجل ﴿يوم التناد﴾ (٣) فيبيناهم على ذلك تصدّعت الأرض فانصدعت من قطر إلى قطر، فرأوا أمراً عظيماً لم يروا مثله، وأخذهم من ذلك الكرب والهول ما الله به عليم، ثم نظروا إلى السماء، فإذا هي كالمهل، ثم انشقت فانتثرت نجومها وانخسفت شمسها وقمرها.

قال رسول الله ﷺ: والأموات يومئذ لا يعلمون بشيء من ذلك. قال أبو هريرة: يا رسول الله، فمن استثنى الله تعالى حين قال: ﴿فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ (٤)؟ قال: أولئك الشهداء وقاهم الله، فزع ذلك اليوم وأمنّهم منه، وهو عذاب يبعثه الله على شيرار خلقه يقول الله عز وجل: ﴿إِنْ زَلْزَلَتِ السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْصُوعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى، وَمَا هُمْ

(٣) غافر ٣٢.

(١) ص ١٥.

(٤) النمل ٨٧.

(٢) النزاعات ٦ - ٨.

بسكاري، ولكن عذاب الله شديد ﴿١﴾. فيمكنون في ذلك البلاء، ما شاء الله، إلا أنه يطول عليهم، ثم يأمر الله عز وجل إسرأفيل فينفخ نفخة الصعق، فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله، فإذا اجتمعوا جاء ملك الموت إلى الجبار فيقول: قد مات أهل السموات والأرض إلا من شئت فيقول الله عز وجل وهو أعلم: من بقي؟ فيقول: أي ربّ بقيت أنت الحي الذي لا تموت، وبقيت حملة عرشك، وبقي جبريل وميكائيل. فيقول: إني كتبت الموت على من تحت عرشي، فيموتان، ثم يأتي ملك الموت، فيقول: قد مات جبريل وميكائيل فيقول وهو أعلم: من بقي؟ فيقول: بقيت أنت الحي الذي لا تموت، وبقيت حملة العرش وبقيت أنا، فيقول الله عز وجل: قَلِّمْتُ حملة العرش، فيموتون ويأمر الله تعالى العرش فيقبض القرن من إسرأفيل، ثم يقول: ليمت إسرأفيل فيموت. ثم يأتي ملك الموت فيقول: يا رب قد مات حملة عرشك، فيقول الله عز وجل وهو أعلم: فمن بقي؟ فيقول: بقيت أنت الحي الذي لا تموت، وبقيت أنا. فيقول الله عز وجل: أنت خلقت من خلقي خلقتك، لِمَا رأيت فمت. فيموت.

وفي رواية ابن أبي الدنيا: مت ثم لا تحيا.

فإذا لم يبق إلا الله عز وجل طوى السماء والأرض كطيّ السجل للكتاب، ثم دحاها ثم قال: أنا الجبار، لمن المُلْك اليوم - ثلاث مرات - فلا يجيبه أحد فيجيب نفسه فيقول: لنفسه: لله الواحد القهّار.

ثم يبسط الأرض بسطاً يمدها مدة الأديم، لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً، ثم يزجر الله الخلق زجرة واحدة، فإذا هم بالساهرة على ظهرها، ثم ينزل الله تعالى ماءً من تحت العرش كمني الرجال، ثم يأمر السماء أن تمطر فتمطر أربعين يوماً، حتى يكون الماء فوقهم اثني عشر ذراعاً، ثم يأمر الله عز وجل الأجساد أن تنبت كنبات الطرائث، أو كنبات البقل، حتى إذا تكاملت أجسادهم، فكانت كما

(١) الحج ١ - ٢.

كانت قال الله عز وجل: لِيَحْيِيَ حَلَّةُ الْعَرْشِ، فَيَحْيُونَ، فَيَأْمُرُ اللَّهُ إِسْرَافِيلَ، فَيَأْخُذُ الصُّورَ فَيَضَعُهُ عَلَى فِيهِ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: لِيَحْيِيَ جَبْرِيْلُ وَمِيكَائِيْلُ. فَيَحْيِيَانِ، ثُمَّ يَدْعُو اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْأَرْوَاحَ فَيُؤْتِي بِهَا تَتَوَهَّجُ أَرْوَاحُ الْمُسْلِمِينَ نُورًا، وَالْآخَرَى ظُلْمَةً، فَيَقْبِضُهَا جَمِيعًا، ثُمَّ يَلْقِيهَا فِي الصُّورِ، ثُمَّ يَأْمُرُ إِسْرَافِيلَ أَنْ يَنْفِخَ نَفْخَةَ الْبَعْثِ، فَتَخْرُجُ الْأَرْوَاحُ كَأَنَّهَا النَّحْلُ قَدْ مَلَأَتْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَتَرْجِعَنَّ كُلُّ رُوحٍ إِلَى جَسَدِهَا. فَتَدْخُلُ الْأَرْوَاحُ فِي الْخِيَاشِمِ، ثُمَّ تَمْشِي فِي الْأَجْسَادِ، مَشْيَ السَّمِّ فِي اللَّدِيغِ، ثُمَّ تَنْشَقُّ الْأَرْضَ عَنْهُمْ سِرَاعًا.

فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ، فَيَخْرُجُونَ مِنْهَا سِرَاعًا مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِي، حِفَاةَ عِرَاقِ غُرْلًا، ثُمَّ يَقْفُونَ مَقْدَارَ سَبْعِينَ عَامًا لَا يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ وَلَا يَقْضِي بَيْنَكُمْ، فَتَبْكُونَ حَتَّى تَنْقَطِعَ الدَّمُوعُ، ثُمَّ تَدْمَعُونَ دَمًا، وَتَعْرِقُونَ حَتَّى يَبْلُغَ ذَلِكَ مِنْكُمْ أَنْ يُلْجِمَكُمْ، أَوْ يَبْلُغَ الْأَذْقَانَ، فَتَصِيحُونَ وَتَقُولُونَ: مَنْ يَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّنَا عَزَّ وَجَلَّ فَيَقْضِي بَيْنَنَا فَتَقُولُونَ: مَنْ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْ أَبِيكُمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَكَلَّمَهُ قَبْلًا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَطْلُبُونَ ذَلِكَ إِلَيْهِ فَيَأْتِي وَيَقُولُ: مَا أَنَا بِصَاحِبِ ذَلِكَ، فَيَسْتَقْرُونَ الْأَنْبِيَاءَ نَبِيًّا نَبِيًّا، كُلَّمَا جَاءُوا نَبِيًّا أَبِي عَلَيْهِم.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: حَتَّى يَأْتُونِي، فَأَنْطَلِقَ مَعَهُمْ حَتَّى آتِيَ قَدَامَ الْعَرْشِ فَأَخَّرَ سَاجِدًا، حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ تَعَالَى مَلَكًا، فَيَأْخُذُ بَعْضُدِي فَيُرْفَعُنِي وَيَقُولُ لِي: يَا مُحَمَّدُ. فَأَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: مَا شَأْنُكَ؟ وَهُوَ أَعْلَمُ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ وَعِدْتَنِي الشَّفَاعَةَ. فَشَفَعْتَنِي فِي خَلْقِكَ، وَاقْضِ بَيْنَهُمْ. فَيَقُولُ: قَدْ شَفَعْتِكَ. فَأَرْجِعْ فَأَقِفْ مَعَ النَّاسِ، فَبَيْنَا نَحْنُ وَقُوفٌ إِذْ سَمِعْنَا حِسًّا مِنَ السَّمَاءِ شَدِيدًا فَهَلَّانَا. فَيَنْزِلُ أَهْلُ سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيَأْخُذُونَ مَصَافِقَهُمْ، ثُمَّ يَنْزِلُ أَهْلُ السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ بِمِثْلِي مِنْ نَزْلِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمِثْلِي مِنْ فِيهَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ حَتَّى يَأْخُذُوا مَصَافِقَهُمْ، حَتَّى يَنْزِلَ الْجِبَارُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي ظُلُلٍ مِنَ الْغَمَامِ، وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةَ، وَهُمْ الْيَوْمَ أَرْبَعَةٌ، أَقْدَامُهُمْ فِي تَخْوَمِ الْأَرْضِ السُّفْلَى وَالْأَرْضَ إِلَى حَجْرِهِمْ،

والعرش على مناكبهم لهم زجل من تسييحهم، يقولون: سبحان ذي العزة
والجبروت، سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان الحي الذي لا يموت سبحان
الذي يميت الخلق، ولا يموت، سُبوح قُدُّوس، سبحان ربنا الأعلى رب الملائكة
والروح، فيضع الله كرسيه حيث شاء من أرضه، ثم يقول: يا معشر الجن
والإنس إني قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا، أسمع قولكم وأنظر
أعمالكم، فأنصتوا، فإنما هي أعمالكم وصحفكم تُقرأ عليكم، فمن وجد خيراً
فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه.

ثم يأمر الله جهنم فيخرج منها عنق مظلم ثم يقول الله عز وجل: ﴿وامتازوا اليوم
أيها المجرمون. ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو
مبين﴾ إلى قوله: ﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾^(١) فيميّز الله الناس وتجنّسوا
الأمم، فيقضي بين خلقه إلا الثقلين الجن والإنس، فيقضي الله بين الوحش
والبهائم، حتى إنه ليقيد الجماء من ذات القرن، فإذا لم تبقى تبعة عند واحدة
لأخرى يقال لها: كوني تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يا ليتني كنت
تراباً﴾^(٢).

فيقضي الله بين العباد، فيكون أول ما يقضي فيه الدماء، فيأمر الله كل من
قتل فيحمل رأسه تشخب أوداجه، فيقول: يا رب سل هذا فيم قتلني؟ فلا تبقى
نفس قتلها قاتل، إلا قُتل بها، ولا مظلمة ظلم بها إلا أخذ بها، وكان في مشيئة
الله عز وجل إن شاء عذبه، وإن شاء رَحِمه، ثم يقضي بين من بقي من خلقه
حتى لا تبقى مظلمة لأحد عند أحد، إلا أخذها المظلوم من الظالم، حتى إنه
ليكلّف شائب اللبن بالماء، ثم يبيعه ان يخلّص اللبن من الماء، فإذا فرغ من ذلك
نادى مناد يُسمع الخلائق كلهم فيقول: ألا ليلحق كل قوم بأهتهم، وما كانوا
يعبدون من دون الله عز وجل، فلا يبقى أحد عبد شيئاً من دون الله عز وجل،
إلا مثلت له الآلهة بين يديه، ويجعل الله عز وجل يومئذ ملكاً من الملائكة على

(١) يس ٥٩ - ٦٣

(٢) النبأ ٤٠.

صورة عَزِير، ويجعل ملكاً من الملائكة على صورة عيسى بن مريم، فيتبع هذا اليهود، ويتبع هذا النصارى، ثم قادتْهم آلهتهم إلى النار، فإذا لم يبق إلا المؤمنون، وفيهم المنافقون بدأهم الله عز وجل فقال: يا أيها الناس ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم، وما كنتم تعبدون. فيقولون: ما لنا إله إلا الله، وما كنا نعبد غيره، فيكشف لهم عن ساق ويتجلى لهم من عظمته ما يعرفون انه ربهم تعالى، فيخرون سُجداً على وجوههم، ويختر كلُّ منافق على قفاه، فيجعل الله أصلابهم كصياصي البقر، ويضرب الله الصراط بين ظهراي جهنم كحد السيف عليه كلاليب، وخطاطيف وحسك كحسك السَّعدان، فيمرّون كطرف العين، أو كلمح البصر، أو كمرّ الريح، أو كأجاويد الخيل، أو كجياذ الرجال، فناجٍ مُسَلَّم، وناجٍ مخدوش، ومكدوش على وجهه في جهنم.

قال رسول الله ﷺ: فأتي باب الجنة، فأستفتح، فيفتح لي، فإذا دخلت فنظرت إلى ربي عز وجل خررت ساجداً.

تم الكتاب بحمد الله تعالى

والحمد لله رب العالمين

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٣	الطبقة الثانية فيها مجالس تشتمل على فضائل أيام السو لياليها المذكورات وفيها أحد عشر مجلساً
٥	المجلس الأول في ذكر عاشوراء والمحرم
٨	الكلام على البسمة
١١	الكلام على قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾
١٩	المجلس الثاني في ذكر رجب
٢٢	الكلام على البسمة
٢٥	الكلام على قوله تعالى: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله﴾
٣٠	المجلس الثالث في ذكرى المعراج
٣٨	الكلام على البسمة
٤٠	قوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾
٤٦	المجلس الرابع في ذكر فضائل شعبان
٤٨	الكلام على البسمة
٥٠	الكلام على قوله تعالى: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾
٥٥	المجلس الخامس في ذكر ليلة النصف من شعبان
٥٩	الكلام على البسمة
٦٠	الكلام على قوله تعالى: ﴿حم والكتاب المبين﴾
٦٥	المجلس السادس لاستفتاح شهر رمضان

- ٧٢ الكلام على البسمة
- ٧٤ الكلام على قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾
- ٨٠ المجلس السابع لانتصاف شهر رمضان
- ٨٣ الكلام على البسمة
- ٨٥ الكلام على قوله تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾
- ٩١ المجلس الثامن في ذكر العشر وليلة القدر
- ٩٩ الكلام على البسمة
- ١٠٢ الكلام على قوله تعالى: ﴿سلام هي حتى مطلع الفجر﴾
- ١٠٥ المجلس التاسع في ذكر عيد الفطر
- ١٠٨ الكلام على البسمة
- الكلام على قوله تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم
يخزنون﴾
- ١١١
- ١١٦ قوله تعالى: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾
- ١١٩ المجلس العاشر في عشر ذي الحجة
- ١٢٧ الكلام على قوله تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾
- ١٣١ قوله تعالى: ﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾
- ١٣٢ سجع على قوله تعالى: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾
- ١٣٤ المجلس الحادي عشر في ذكر يوم عرفة
- ١٣٨ الكلام على البسمة
- ١٤٠ الكلام على قوله تعالى: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً﴾
- ١٤١ سجع على قوله تعالى: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً﴾
- ١٤٤ قوله تعالى: ﴿وعلى كل ضامر﴾
- ١٤٤ قوله تعالى: ﴿يأتين من كل فج عميق﴾
- ١٤٥ قوله تعالى: ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾
- الطبقة الثالثة تشتمل على ذكر خلق ابن آدم والأرض والسموات فيها

الصفحة	الموضوع
١٤٧	ثلاثة مجالس
١٤٩	المجلس الأول يذكر فيه خلق ابن آدم
١٥٥	الكلام على البسمة
١٥٨	الكلام على قوله تعالى: ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾
١٦٣	المجلس الثامن في ذكر السموات وما فيهن
١٦٨	الكلام على البسمة
١٧٠	الكلام على قوله تعالى: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾
١٧٤	سجع على قوله تعالى: ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾
١٧٦	المجلس الثالث في ذكر الأرض وعجائبها
١٨٠	الكلام على البسمة
١٨٢	قوله تعالى: ﴿فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان﴾
١٨٧	سجع على قوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾
١٨٩	الطبقة الرابعة: تشتمل على فضائل العلم والمعاملات فيها ثمانية وعشرون مجلساً
١٩١	المجلس الأول في فضائل العلم والعمل
١٩٥	الكلام على البسمة
١٩٨	الكلام على قوله تعالى: ﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئاً﴾
١٩٩	قوله تعالى: ﴿ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾
٢٠٠	قوله تعالى: ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون﴾
٢٠٠	قوله تعالى: ﴿هم وأزواجهم في ظلال﴾
٢٠٢	سجع على قوله تعالى: ﴿هم وأزواجهم في ظلال﴾
٢٠٣	قوله تعالى: ﴿على الأرائك متكئون﴾
٢٠٣	سجع على قوله تعالى: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾
٢٠٥	المجلس الثاني في ذكر الطهارة
٢١٠	الكلام على البسمة

الصفحة	الموضوع
٢١٢	الكلام على قوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾
٢١٦	سجع على قوله تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾
٢١٨	المجلس الثالث في ذكر الصلاة
٢٢٣	الكلام على البسمة
٢٢٦	الكلام على قوله تعالى: ﴿إن الذين سبقتم لنا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾
٢٣٣	المجلس الرابع في ذكر الزكاة
٢٣٧	الكلام على البسمة
٢٤٦	المجلس الخامس في ذكر الصيام
٢٥١	الكلام على البسمة
٢٥٣	سجع على قوله تعالى: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾
٢٥٥	سجع على قوله تعالى: ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾
٢٥٥	السجع على قوله تعالى: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾
٢٥٨	سجع على قوله تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا﴾
٢٥٩	المجلس السادس في ذكر الحج
٢٦٤	الكلام على البسمة
٢٦٦	الكلام على قوله تعالى: ﴿إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة﴾
٢٧١	سجع على قوله تعالى: ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾
٢٧٢	المجلس السابع من الأخوة والصدقة
٢٧٨	الكلام على البسمة
	الكلام على قوله تعالى: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾
٢٨١	جنوبهم
٢٨٧	المجلس الثامن في ذكر العزلة
٢٩٢	الكلام على البسمة

الصفحة	الموضوع
٢٩٤	الكلام على قوله تعالى: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾
٣٠٠	السجع على قوله تعالى: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾
٣٠٢	المجلس التاسع في ذكر الأمر بالمعروف
٣٠٦	الكلام على البسمة
	الكلام على قوله تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا
٣٠٩	يتساءلون﴾